لجنة البيان العربي

الغزل عند العرب

تأليف

حسان أبو رحاب
مدير إدارة التحريرات العربية بوزارة المعارف

الطبعة الأولى

القاهرة
مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
١٠ شارع نوبار باشا (سابقاً شارع الدواوين)
١٣٦٦ — ١٩٤٧

البيان العربي

الغزل عند العرب

تأليف

حسان أبو رحاب

مدير إدارة التحريرات العربية بوزارة المعارف

الطبعة الأولى

القاهرة

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

٤٠ شارع نوبار باشا (كان شارع الدواوين)

١٣٦٦ — ١٩٤٧

مقدّمة

للسياسة فضل علىّ فى تأليف هذا الكتاب .

ذلك أن الحزبية لا زالت فى بلادنا تخلط بين الرأى السياسىّ ، وبين الوظيفة ، وكأن الوظيفة ملك لهذه الأحزاب تمنحها الأعوان والأنصار ، وتحرمها المعارضين والخصوم . وعندى أن هذا بلاء ندعو الله أن يجنب مصر و يلاته ونكباته . فالموظف فى وظيفته ملك للدولة . . . وهو أيًا كانت مرتبته خادم لأمته ، شأنه فى ذلك شأن الرئيس أيًا كانت مرتبته . و إذا أدّيا الوظيفة بأمانة و إخلاص ،كانا محل تقدير واحترام ، و إلا فالويل لهما كل الويل .

نُقلت إلى بنى سويف جزاء أن أعانت رأيى السياسى ، ولو أن هذا الاعلان كان قبل دخولى الوظيفة ! وقد فكرت أن أستقيل . ولو فعلت لكنت من أغنياء هذه الحرب ! . . ولكن الله سلَّم ! . .

و يظهر أننى لم أفعل لأمر قضاه الله : وهو هذا الكتاب .

كانت لى بمصر أعمال كثيرة شغلتنى عن القراءة ، والكتابة ، والتأليف . وليس الأمر كذلك وأنا «فى بنى سويف» لأنه ليس فيها مايشغل وقت الفراغ سوى المقاهى ، وهى بغيضة إلىّ ، وأعتبرها مثابة للوكلة الخاملين .

كان لا بد لى إذن من أن أقرأ . وأن أتابع القراءة ، وانصرفت بنوع خاص إلى قراءة كتب الأدب قديمها وحديثها .

وفى ذهنى منذ أن كنا نتلقى العلم أن للشعر العربى أبوابًا ، وضعوا لها حدودًا

ومعالم هى : الحماسة ، والمدح ، والنسيب ، والوصف ، والزهد ، والهجاء ، والرثاء .

فأخذت أبحث فى المكتبة العربية عن كتاب أو كتب فى هذه الأبواب بعينها .

فلم أجد آسفاً إلا أقوالا مبعثرة ، ومقالات متناثرة ، وخاصة لبعض أدبائنا المعاصرين .

فسألت نفسى فى شىء من الحسرة والألم : كيف يقعد بنا العزم ، فلا نخدم الأدب العربى ، فى ناحية من نواحيه ، لها أثرها ونفعها ، ومكانتها ؟ . أهذا جحود ؟ . أوعجز أو إهمال ؟ .

طغى علينا سيل الترجمة ، حتى امتلأ الإناء وفاض .

وطغى علينا حب الفرنجة ، حتى غلبنا فى كل شىء .

أنا لا أدعو إلى اطّراح المعرفة بما يجرى فى أمم الغرب من علم ، وأدب . ومدنية وحضارة .

ولكنى لا أفهم أن يكون هذا هو كل شىء .

أفهم أن نعرف هذا . وأن نعرفه عن يقين وتفكير . ولكن لنتذوقه ، ونجنى من ثماره ما يعود علينا بالخير فى علمنا ، وأدبنا ، ومدنيتنا ، وحضارتنا .

إن من الواجب ألا ننسى قوميتنا . بل من الواجب ألا ندّخر وسعاً فى أن نرفع هذه القومية ، بكل ما أوتينا من قوة . وبهذا نكون أهلا للحرية ، وللمجد الذى نصبو إليه ، ونجاهد فى سبيله .

وإن فى خدمة الأدب ودراسته ما يوحى إلينا من مُثل كريمة : تهذب النفس ، وتصقل الحس ، وتفتق الذهن ، وترقى بالعقل . كل هذه أمور يجدر بنا أن نحرص عليها ، ونعض بالنواجذ .

* * *

ما هو الغزل ؟

ثم لِمَ شُغِفَ العرب بالغزل ؟

وما هو الأثر الذى يعود على الناشىء والقارىء إذا درس الغزل ، وفهم معانيه ، وتذوق مراميه ؟ وكم له من مرام ومعان !

هـذه أسئلة يجب أن يكون لها أجوبة ، وأن تفصّل هـذه الأجوبة فى دقة ، وبحث ، وأناة .

فأين الكتاب الذى عالج هـذه المسائل ؟ ويجد فيـه القارىء ما يروى ظمأه . ويشفى غلته .

وقُل مثل هذا فى سائر أبواب الشعر .

وقد آلمنى أن لم أجد كتاباً خاصاً يحدثنا عن كل باب من أبواب الشعر العربى ، بل كتباً يتبارى فيها المؤلفون ، ويتنافس الأدباء . لكلٍّ ذوقهُ ونهجُه . ولكل طريقة تفكيره ، وبيان وجهته . وفى ذلك خير للأدب وللنشء الذين يدرسون هذا الأدب .

أحسست إذن بنقص فى الكتب التى بأيدينا . وبنقصٍ فى العناية بالكتابة عن أبواب الشعر العربى ، على هذا النهج الذى ذكرت .

واعتزمت أن أعالج هـذا النقص بالأسلوب الذى أراه وبالتفكير الذى أهتدى إليه . وأنا أعلم أن الطريق محفوف بالصعاب . يكلف من يرتاده ضروباً من العسر، والعناء . ولكن الكاتب لا يضيره ما يلقى من صعوبة أو تعب ، بل عليه أن يحاول ، وأن يتأنّى الفكرة ، وأن يدقق البحث ، وأن يكون الإخلاص رائده . ولعله بعد ذلك يكون ناجحاً موفقاً ، أو يكون أقرب إلى النجاح والتوفيق .

لهـذا شحذت العزم ، ودأبت على العمل ، وقد عوّقنى ، وعطّل علىّ عبء الوظيفة ، وعبء أعمال أخرى ، تأخذ من وقتى وجهودى . فطال العهد ، وتباطأ

جنى الثمر . وخاصة بعد أن عدت إلى القاهرة ، فعادت إلىّ كثرة من هذه الأعباء .

ورعى الله الإسكندرية . حيث كانت تُضفى علىّ بمائها ، وهوائها ما أعاننى بعض العون ، فى تأليف هذا الكتاب .

وقد اتسع أمامى الأفق .

لا بد أن أتحدث عن الشعر : كيف نشأ ؟ وكيف تطور ؟ وكيف مثّل حياة العرب ؟ وكيف اتجه إلى هذه الأغراض من : مدح ، وحماسة ، وغزل ، ووصف ، وزهد ، وهجاء ، ورثاء ؟

والغزل نفسه فيه نواح كثيرة لا بد من علاجها ، كل ناحية فى كتاب .

فما العمل ؟

تمنيت أن يكون للمؤلف أضعاف وقته . وأن تكفل له الراحة ، ويكفل له العيش . إذن لأفاد ، وأثرت اللغة العربية من هذه الفائدة .

ولكن لا تجدى الأمانى .

وإذا صحّ العزم . وخلصت النية ، تحقق ما نريد ، ولو طال المدى .

إذن سأتابع هذه السلسلة . وسيكون لكل سلسلة كتاب :

كتاب الشعر وتطوره .

كتاب الغــزل .

كتاب شؤون الغزل وشجونه .

كتاب جمال المرأة والغزل .

هذه أربعة كتب سأبدأ بها العمل .

أما الكتاب الأول فضرورة لابد منها لمن يعالج أبواب الشعر . وكنت قد رأيت أول الأمر أن يكون مقدمة للغزل . ولكنى وجدته واسع المدى ، بعيد الخطر ، فرأيت أن أفرد له كتاباً خاصاً .

كما كنت قد رأيت أن أجعل للغزل كتاباً واحداً . ولكن وجدت أنه سيتسع ، وسيتضخم ، وقد يمل القارىء من هـذه السعة ، ومن تلك الضخامة . فرأيت من الحكمة أن يكون كتباً ثلاثة . فإذا انتهيت من هذه الكتب الأربعة عن الشعر ، وعن الغزل ، اتجهت إلى أبواب الشعر الأخرى ، أعالجها على نحو ما عالجت به الغزل . وأرجو ألا يطول بى المدى .

ولِمَ بدأت بالحديث عن الغزل . دون أبواب الشعر الأخرى ؟

ذلك سؤال لا أحتاج فى الجواب عنه إلى كبير عناء .

فالغزل أكثر أبواب الشعر من حيث الكمّ . وأغنى أبواب الشعر من حيث الذوق ، والفن ، والعاطفة .

ولأمر مّا كان الغزل كذلك ؟

الغزل غناء وطرب ، بهجة وسرور .

ومن ذا الذى لايحب أن يكون دوماً مبتهجاً طروباً ؟

الغزل حب وإخلاص .

ومن ذا الذى لاتهفو نفسهُ إلى الحب ؟ ولا ترنو إلى الإخلاص ؟

وأيّا قدح فى الغزل القادحون ، وقالوا إن فى بعضه عبثاً ، وفى بعضه لهواً . فإن النفس البشرية مهما ارتقت وسمت تجنـح ولو فى بعض الأحايين إلى اللهو والعبث فما بالك إذا كان بريئاً ، طاهراً ، كريماً .

الغزل وجه الحياة المشرق الضاحك .

ومن ذا الذى يفر من النور إلى الظـلام ، ويؤثر العبوس على الإشراق والابتسـام ؟

الغزل حديث القلب والعاطفة .

ولغة القلوب تستهوى القلوب ، ولغة العاطفة تحنو لهـا العاطفة

على أنى لا أفهم الغزل فى هذا كله فحسب ، ولكنى أفهمه فناً يوحى الجمال : جمال الذوق . وجمال الحديث ، وجمال الفكر ، وجمال الأسلوب . وأفهمه درساً ، يوحى كثيراً من الأخلاق ، التى يحتاج إليها الإنسان الكريم .

ستعرف ذلك كله تفصيلا حين تقرأ كتب الغزل هذه التى أشرت إليها آنفاً ، حين تقرؤها بقلبك ، ووعيك . ولعلك تؤمن معى أننى ألفت هذه الكتب عن فكرة وغاية ، أرجو أن يدركهما القارىء فيما بسطت ، وحسبى فيما فعلت أنى ابتغيت الخير ، وعلى الله توكلت و إليه أنيب .

القاهرة فى { ربيع الأول سنة ١٣٦٦ / فبراير سنة ١٩٤٧ }

حسان أبو رحاب

الباب الأول

معنى الغزل - ألفاظه

الفصل الأول

معنى الغزل

أجمع علماء اللغة على أن الغزل معناه التحدث إلى النساء والتودد إليهن .

وتشمل مادة « غزل » فى اللغة ثلاثة معان :

١ — غزل الصوف — يغزله من باب ضرب ..مده وفتله خيطاناً ، ومنه المغزل بكسر الميم وضمها ، عند تميم .

٢ — غزل بالمرأة — يغزل من باب فرح — حادثها وأفاض بذكرها .

٣ — أغزلت الظبية — صار لها غزال . فالغزال ولد الظبية .

هذه ثلاثة معان لكلمة « غزل » فهل يوجد ارتباط بين هـذه المعانى ؟ يجمع بينها فى باب واحد ، وإن اختلفت الغايات وتعددت السبل .

نعم يوجد ارتباط وثيق بين «غزل الصوف» و «مغازلة المرأة » و «غزال الظبية» .

قال الزجاجي[1] —: أصل المغازلة : الإدارة والفتل . لإدارته عن أمر . ومنه سمي المغزل لاستدارته وسرعة دورانه . و به سمى الغزال لسرعة عدوه ، وسميت الشمس الغزالة لاستدارتها وسرعتها .

---

(١) المخصص ٥٤

و إذا شئنا أن نبسط هذا المعنى بعض البسط قلنا :

إن الغزل بالمرأة يتطلب من الرجل أن يتحدث إليها وأن يكون حديثه مؤثراً جذاباً حتى يستميلها إلى وده و يستهو يها إلى حبه . وهو فى هذه السبيل يسلك شتى الوسائل و يركب صعب الأمور . يحتال إذا وصل بالحيلة إلى غايته ، و يدارى إذا نفعت المداراة ، و يتدلل لها ، و يتوسل إليها لعل ذلك يغنى من الأمر شيئاً . والمرأة بين هجر ووصال وتمنّع ودلال . وفراق ولقاء لا تكاد نلقاك باسمة المحيا فتنعم بهذا الرضا حتى تنقلب عابسة الوجه ، مقطبة الجبين ، فنشقى بهذا العبوس أضعاف ما نعمت بأسباب الرضا والابتسام .

أليس ذلك كله فتلا ودورانا ؟ .

ألا يشبه ذلك « المغزل » فى لفه ودورانه ؟ .

ثم ألا يشبه الغزال فى عدوه السريع ونفوره الجامح ؟ .

ثم ألا يشبه « الشمس » وهى فى طلعتها تشرق علينا بالنور وفى غيبتها نسدل غياهب الظلام ؟ ، ونحن بين الطلوع والمغيب نسعد كما نسعد بالمرأة التى نحبها إن رضيت ، أو نشقى بها إن هجرت وتمنّعت .

بلى . لا شك فى ذلك ولا جدال .

الفصل الثانى

ألفاظ الغزل

وقد غنى الغزل بألفاظ كثيرة توافق هذه المعانى الجمة التى عرض لها الشعراء ، وتوافق هذه العاطفة الثائرة ، وما ينصل بها من لوعة وحرقة وأنين .

وإنى لا أريد أن أستوعب هذه الألفاظ ، ولا أريد أن أستوعب مدلولاتها ، فهى كثيرة متشعبة ، متداخل بعضها فى بعض .

ومن هذه الألفاظ :

النّسيب ، التشبيب ، العشق ، الحب ، الهوى ، الصّبابة ، الهُيام ، الشَّغَف ، العلاقة ، اللّوعة ، الوَجْد ، الغرام ، التَّيْم ، التَّبْل ، التدليه .

وإذا شئنا أن نكشف معانى هذه الألفاظ ، ونعرف مدلولاتها ، فإنها لا تخرج هى وسائر ألفاظ الغزل عن معان ثلاثة :

١ — التحدث إلى المرأة ، والتودد إليها . ٢ — العلاقة التى يتركها هذا الحديث ، ومدى هذه العلاقة من قوة أو ضعف . ٣ — آثار العلاقة ، وتعدد نواحى هذه الآثار .

وإذا كان علماء اللغة يقولون إن هنالك مناسبة بين اللفظ والمعنى ، فإنا نرى المناسبة بين ألفاظ الغزل ومعانيه أكثر وضوحاً وبياناً .

ويحسن بى فى هذا المقام أن أوجه النظر إلى الملاحظات الآتية :

١ — لا صعوبة ولا تنافر فى هذه الألفاظ ، ولا فى الحروف التى تتألف منها .

٢ — ليس فى ألفاظ الغزل حرف ثقيل بالتضعيف ، أى التشديد ، وإذا وجدته فى مثل متيّم ، مدلّه . فإن الياء حرف لين ، وتضعيفها لا يزيدها ثقلا بل ليناً . وإن تضعيف اللام لا ثقل فيه ولا شدة .

٣ — حروف اللين ثلاثة : الألف ، والواو ، والياء . وتسمية هـذه الحروف باللين صادقة ولعلك ترى أن هذه الحروف تكثر فى ألفاظ الغزل .

٤ — فى بعض ألفاظ الغزل أو كثير منها مدّ قصير أو طويل . ومن ذلك مثلا : الهوى ، الغرام .

ولعله بانَ لك من هذه الملاحظة أن ألفاظ الغزل سهلة لينة تناسب معانى الغزل من رقة وعذوبة . فالمحبوب حين يتحدث إلى حبيبة نفسه لا تراه إلا عذب الحديث ، وحين يودعها لا تراه إلا رقيق الحال خشية الفراق وما أشـده على النفوس ! وحين يناجيها لا تراه إلا هزيلا يرسل نفثات حبه وهو معذب معنّى ، بل حين تهجره وتجفوه لا تراه إلاّ ضارعاً متوسلاً خاضعاً متذللاً . لعلها ترضى بعد امتناع ، وتبسم بعد عبوس.

هذه هى المعانى الرقيقة العذبة ، وتلك هى الألفاظ السهلة اللينة .

ولعله بانَ لك أن حروف هذه الألفاظ متلائمة متقاربة لا تنافر بينها ولا وحشية ولا احتراب . وكأنها تناسب ما يكون بين المحبين حين تصفو لهم الحياة . وما ألذ هذه الحياة ! إنها تقارب بين الأرواح وامتزاج بين النفوس ، وأنعم بهذا الامتزاج وذاك التقارب !

ولعله بان لك أن هـذا المد الذى تراه فى بعض ألفاظ الغزل يناسب المد الذى تراه فى معانى هذه الألفاظ ؛ فالمد الذى تراه فى كلمة الخصام يناسب طول العذاب الذى يلقاه المغرم فى حبه . والمد الذى تراه فى كلمة « الهيام » يناسب شـدة كلف المرء بمحبوبته . وهكذا . . .

إن سهولة ألفاظ الغزل وسهولة حروف هذه الألفاظ لا تناسب معانى الغزل من حيث الرقة والعذوبة فحسب ، ولكنها توافق طبيعة العربى وحبه للغزل .

قال ابن دريد[١] :

---

(١) المزهر ص ١٩٥

واعلم أن أكثر الحروف استعمالا عند العرب : الواو ، الياء ، الهمزة . وأقل ما يستعملونه على ألسنتهم لثقلها الظاء ثم الذال ثم الثاء ثم الشين ثم القاف ثم الخاء ثم العين ثم النون ثم اللام ثم الراء ، ثم الباء ثم الميم .

ولعلك ترى أن حروف ألفاظ الغزل التى ذكرتها هى من هذه الحروف كثيرة الاستعمال على رأى ابن دريد .

ألا يدل ذلك على أن الغزل قريب إلى نفس العربى حبيب إلى طبعه ؟ وكذلك كانت حروف ألفاظه أكثر استعمالا وأكثر تداولا ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره وأكثر من استعماله .

ويظهر أن هذه السهولة تخطت ألفاظ الغزل إلى أسماء نساء الغزل ، فترى أمثال دعد ، هند ، ليلى ، لبنى ، سلمى ، عزة ، و بثينه .

وهى أسماء سهلة عذبة فى النطق حلوة فى اللسان .

الباب الثاني

نشأة الغزل ـ دواعيه

الفصل الأول

نشأة الغزل

يحسن بنا فى هذا المقام أن نكرر الإشارة إلى معنى الغزل وهو : التحدث إلى النساء ، والتودد إليهن .

وإذا شئنا أن نحلل هذا المعنى وجدناه يشمل ثلاثة أركان :

الركن الأول : الرجل الذى يتحدث ويتودد .

الركن الثانى : المرأة التى تستمع حديثه وتودده .

الركن الثالث : الحديث الذى يقوم بين الرجل والمرأة ، ويحمل ما يكون بينهما من آصرة الحب والمودة .

فإذا وجد الرجل الذى يتحدث ، ووجدت المرأة التى تستمع إلى الحديث ، ووجد الحديث الذى يكون وسيلة الارتباط بينهما — كان الغزل .

فهل كان الغزل عند العرب لتوفر هذه الأركان الثلاثة : من رجل ، وامرأة وحديث ؟

نعم .

فالعربى نشأ منذ القدم محباً للفرح والطرب والسرور ، نتيجة البيئة التى يعيش فيها ؛ ونتيجة الحياة الاجتماعية التى تطبعه بطابعها الخاص .

والعربى ، كما نعرف ناعم البال ، لا يشغله من أعباء الحياة ما ينوء تحت أثقاله وما يجعل العيش فى نظره عابساً قاتماً . ويكفيه من الحياة أن يجد قوته وأن يجده فى أبسط صورة ، ومن أقرب طريق فيقنع ، ويرضى بما قسم الله .

والعربى صافى الطبع ، قوى العاطفة ، فلا بد أن يجد سبيله إلى مايغذى هذا الطبع ويقوى تلك العاطفة .

والعربى شاعر بفطرته ، فأبرق بهذا الشعر إلى درجة كريمة رفيعة ، تكون قريبة إلى النفوس .

إذن وجد العربى ، وفيه من الصفات ما يؤهله لأن يكون غزلا ، ومبدعا فى هذا الغزل .

ولكن ذلك وحده لا يكفى . فإذا لم توجد المرأة ؟ فمع من يكون الحديث ؟ وإذا لم تكن المرأة جميلة جذابة ، فلن يكون حديث أو يكون ولكنه كريه ثقيل ، لا تقبله النفس ، ولا يستريح إليه القلب . على أن وجود المرأة وحده لا يكفى ، كما أن جمالها وحده لا يكفى ، فلا بد حتى تثير عاطفة العربى ، وحتى تهيج شاعريته ، فتأتى بالسحر الحلال — لابد أن تكون المرأة جميلة وأن تكون على جانب من الأدب والفطنة ، وحسن البيان .

وهبك شاعراً بارعاً وجلست إليك فتاة بارعة فى الحسن والجمال ، ولكنها ليست من العلم والبيان والفطنة فى شىء ، أيثير وجودها فى نفسك ما يثير وجود فتاة أخرى مازها الله بالجمال وحسن الحديث ورقة الشعور ، وبدع الخيال ؟

وإذا كان قد وجد العربى الذى من شأنه أن يتحدث أو يتودّد ، فقد وجدت المرأة التى من شأنها أن تغرى الرجل بالحديث معها ، والتودد إليها . تغريه بجمالها ،

وقد ثبت أن للمرأة العربية جمالا فاتناً . وتغريه فوق ذلك بما وهبها الله من فطنة ، وذكاء ، وعلم ، وأدب .

وكيف السبيل إلى المرأة ؟

إنها تلقى الرجل ويلقاها دون حجر ، ولا حرج ، ولا تضييق .

كان من عادة العرب كما حدثنا[1] بن الهيثم عدىّ عن ابن عياش : « أن يتحدث رجالهم إلى النساء لا يرون بذلك بأساً » .

وكما حدّث رباح العامرى : « والعرب ترى ذلك غير منكر أن يتحدث الفتيان إلى الفتيات » .

إذن نشأ الغزل عند العرب إذ توفرت أركانه الثلاثة . ونما هذا الغزل وتطور تبعاً لنمو هذه الأركان وتطورها .

وسترى ذلك مفصلا فى سائر الفصول والأبواب .

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ٣١٣

الفصل الثانى

دواعى الغزل

١ — بيئة العربى وطبعه :

قدمت لك فى نشأة الغزل أن من أقوى دواعيه ما ركّب الله فى طبع العربى من حب للمرأة ، ومما يوحيه هـذا الحب من حديثها وتقربه إليها . وما أحاطه الله به من صحراء واسعة ، وسماء مشرقة ، ومن وسائل عيش تساعد على صفاء النفس ، وخلو البال . وذكر[1] ابن خلدون أن بلاد العرب لا تنبت زرعاً وأن أهلها يفقدون الحبوب والأدم جملة ، وخلص من هذا إلى قوله : «ونجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالا فى جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين فى العيش ، فألوانهم أصفى ، وأبدانهم أنقى ، وأشكالهم أتم وأحسن ، وأخلاقهم أبعد من الانحراف ، وأذهانهم أثقب فى المعارف والإدراكات » .

ولو كان طبع العربى بعيداً عن حب المرأة ، بعيداً عن الإشراق والسمو . ولو كان من وسائل العيش ما ينغص باله ، و يبلبل حاله ما استقام له هذا الفن الجميل من الغزل ، وما كانت له هذه الروعة فى مجاله الفسيح .

وقيل لكثير : «ما بقى من شعرك ؟ قال : ماتت عزة فما أطرب ، وذهب الشباب فما أعجب . ومات ابن ليلى — يعنى عبد العزيز بن مروان — فما أرغب . وإنما الشعر بهذه الخلال » .

---

(١) المقدمة ص ٩٨

٢ — اختلاط الرجل بالمرأة :

قلنا إن من عادة العرب أن يتحدث رجالهم إلى النساء ، لايرون فى ذلك بأسا . ولقاء الرجل المرأة هو الدعامة الأولى للغزل .

ولو لم يكن هذا اللقاء ما كان غزل ، ولا كان حديث ، ولا كان وصف للقاء والوداع ، وما فى اللقاء من ذكريات وشؤون ، وما فى الوداع من حسرة وأنين .

ولو لم يكن هـذا اللقاء ما كانت النجوى ، ولا كان عتب وملام ، ولا عرف الرجل فى المرأة مواضع دلّها وحسنها وجمالها وفتنتها ، ولا فاض شعره بوصف ذلك كله ، وما يتبع هذا الوصف من فنون .

كان العربى يلقى المرأة فتأخذه بحسنها وجمالها . فتثور فى نفسه عاطفة القربى إليها ، وتملى عليه هذه الثورة أن يحدثها عن فيض شعوره ، عن الكلوم التى خلّفتها فى قلبه ، فإذا صدت وتمنعت توسل إليها ، واحتال عليها ، لعلها ترق وترحم . وكثيراً ما كان يرتقب طلوعها ، وكثيراً ما كان يرتحل إليها ، وكثيراً ما كانت تسعده الظروف باللقاء ، وكثيراً ما كانت تشقيه بالحرمان !

وكيف كان يلقى الرجل المرأة ؟

لم تكن المرأة العربية محتجبة فى منزلها ، بل كانت حرة طليقة ، تنتقل وترحل ، وتشارك الرجل فى كثير من أعماله . كانت ترعى الغنم . وكانت تملأ الماء . وكانت تحج إلى بيت الله الحرام . وكانت تذهب إلى السوق ، لتشترى أو تبيع . وترتاد أسواق الأدب لتسمع أو تنشد ما تريد .

وكانت فى كل هذه المراحل تلقى الرجل ، ويلقاها الرجل ، وفى الرجل عاطفة وحساسية ، وفى المرأة رقة وعذوبة . عذوبة لفظ ، وعذوبة خَلق ، وعذوبة أدب . فلابد أن تلتقى العواطف ، ولا بد أن تهتز القلوب ، ولابد أن يحمل الشعر نجوى العواطف وهزات القلوب . فكان الغزل ، وكان شعر الغزل .

لعلك تعجب حين تقرأ فى أخبار شعراء الغزل ، أن الشاعر لا يكاد يلقى امرأة بارعة فى الجمال ، حتى تتحرك شاعريته بآيات من شعر الغزل ، تفيض رقة ، وعذوبة وقوة تأثير . ويسوقنى تداعى المعانى ، وأنا أتحدث عن هذا المعنى إلى ما نشهده ، ونحن نجول على شاطىء الاسكندرية فى فصل الصيف ، وما نراه فى الغيد الحسان من وجه ضاحك ، وعيون نجل ، وقوام فارع ، وشعر متدل ، ونهود كواعب — كل ذلك يثير فى قلوبنا العاطفة الملتهبة ، فنتحدث ولو بين خلجات نفوسنا حديث غزل ، وخيال ، وإعجاب ، وتقدير . ولو أننا أوتينا بسطة فى الشاعرية ، كما أوتى العرب الأولون لرأيت وقرأت فى وصف هؤلاء الغيد ، وفى التحدث إليهن وفيما يجره الحديث من شؤون وشجون — شعراً غزلا ، لا يقل روعة وحساسية عن شعر الأولين . بل وجدت من المعانى الرقيقة ما يوافق هذه الطبيعة الجميلة التى صنعتها الطبيعة فى القرن العشرين ، ولم تكن قد صنعتها فى القرن الخامس وما قبله أو بعده .

ومن الخير أن نتحدث الآن ولو فى شىء من الإجمال عن هذه المناسبات ، التى جمعت بين الرجل والمرأة ، فجمعت بين قلبين ، وعاطفتين ، ثم جمعت إلى ذلك ترجمانا صادقا من الشعر الفرد الطروب ، يصف هذه القلوب ، وتلك العواطف .

ما أكثر هذه المناسبات ! ولكننا نلخصها فيما يأتى :

(١) المرعى :

بلاد العرب تنبت الكلأ والعشب ، ويعيش أهلها من الألبان ، لذلك أخذوا أنفسهم برعى الغنم والإبل ، ولا يكاد يشب الفتى حتى يقوم بحظه فى هذه الناحية من تكاليف العيش . وكانت الفتاة تشارك الفتى فى مباشرة كثير من مرافق الحياة ، لا ترى فى ذلك بأساً ، ولا حرجا . فكانت الفتاة تؤدى واجبها فى رعى الغنم . فهؤلاء وأولئك من فتية وفتيات ينتجعون مواطن الكلأ ، ويردون مناهل الماء ولا شك أن هذا يمكن من اختلاط الرجل ، والمرأة ، ولا شك أن هذا الاختلاط

يمكن الرجل من أن يتحدث إلى المرأة ، ومن أن يجتمعا إلى ظل واحد ، فترة طويلة من النهار ، فإذا غربت عليهما الشمس افترقا ولكن إلى حيث تؤذن بالطلوع ، فيتجدد اللقاء . وفى خلال ذلك كله — والعربى قوى الشاعرية ، والعربية قوية الحساسية — يكون الحديث الحلو ، ويكون الغزل الرقيق .

فهذا مجنون[١] بنى عامر أحب ليلى ، وهما صغيران يرعيان الغنم ، وفى ذلك يقول:

تعلقتُ لَيْلَى وهى ذاتُ ذُؤابَةٍ[٢] ولم يبدُ للأتْرَاب من ثَدْيِها حَجْمُ
صَغِيرَيْنِ نرعى البَهْمَ ياليتَ أننــا إلى اليوم لم نَكْبَرْ ولم تَكْبَرِ البَهْمُ

وابن ميّادَةَ[٣] خرج[٤] يبغى إبلاله حتى ورد جُبارا[٥] ، فأتى بيتا ، فوجد فيه عجوزا ، قد أسنت ، وأدخلته بيتها لتقريه ، وإذا بنت لها قد هتكْت الستر ، واستقبلته ، فراعه جمالها ، وأخذ يشبب بها ، فيقول :

نَظَرْنا فهاجَتْنا على الشَّوْقِ والهوى لِزَيْنَبَ نارٌ أَوْقَدَتْ بِجُبَارِ
كأَنَّ سَنَاها لاح لِى من خَصَاصَةٍ على غير قَصْدٍ والَمطِىّ سَوَارِى

وجميل بن معمر العذرى[٦] كان يرعى إبله بواد يقال له — بغيض — فاضطجع وأرسل إبله تذهب حيث تشاء ، ومرت بثينة وجارة لها تردان الماء ، وشاء لها العبث أن تنفرّ فصالا من إبل جميل ، فسبها جميل فافترت عليه فملح إليه سبابها فقال :

وأَوّلُ ما قاد المــودة بيننـا بوادى بغيضٍ يا بُثَيْنَ سِبَابُ
وقلنا لهــا قَولاً فجاءت بمثــله لكلّ كلامٍ يا بُثَيْنَ جوابُ

وكان[٧] قد أصاب قبيلة جَرم جدب فانتجع جماعة منهم بلاد بنى قُشير وقد أصابها الربيع فأرعتهم طرفا من بلادها . وكان أن رأى يزيد بن الطَّثْرية القشيرى

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ١١ (٢) الذؤابة : شعر الناصية (٣) شاعر غطفان فى الجاهلية والإسلام من شعراء الغزل (٤) الأغانى ج ٢ ص ٣١٥ (٥) موضع ماء قرب المدينة (٦) الأغانى ج ٨ ص ٩٨ (٧) الأغانى ج ٨ ص ١٦٠

جارية من جرم يقال لها وَحشية فهام بها ، واشتد وجده بها ، وإليها كتب يزيد :

أحبّكِ أطراف النهار بشاشةً　　وبالليل يدعونى الهوى فأجيب

لئن أصبحتْ ريح المودة بيننا　　شمالا لقدْ ما كنتِ وهى جَنوب

فأجابته بقولها :

أحبّكَ حب اليأس إن نفع الحيا　　وإن لم يكن لى من هواك طبيب

وحدثنا ذو الرُّمّة أن أول ما قاد المودة بينه وبين ميــة أنه وأخاه خرجا يبغيان إبلاً لهما وبينما هما فى الطريق إذ وردا ماء وكانت بالقرب منه مية . رآها ذو الرمة ، فهام بها فى ديارها عشرين سنة . وفيها يقول :

وقفتُ على ربع لميّــةَ ناقتى　　فما زلت أبكى عنده وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد مما أبثّه　　تــكلمنى أحجــاره وملاعبه

وكثيّر[1] كان يرعى الغنم ، ومر بنسوة من بنى ضمرة فسألهن عن المـاء ، وكانت هاديته إلى المـاء عزة ، وقد كَعَبَ ثدياها ، فأعجب بهــا كثير وشغف حباً . وبينما هو يسوق غنمه إذ جاءته عزة بدراهم ، وقالت :

يقلن لك النسوة . بعنا بهذه الدراهم كبشاً من ضأنك . فباعها كبشاً ، ولم يأخذ منها ثمناً . وأمهلها حتى يروح بهن ، فلما راح مرّ بهن ، فقلن له : هذا حقك فخذه ، فقال : عزة غريمى . ولست اقتضى حقى إلا منها ، وكأنه أراد باقتضاء حقه منها أن يبادلها الحب ، وأن يتحدث إليها بخوالج نفسه ، وأن تتحرك شاعريته بادىء ذى بدء بهذه الأبيــات :

نظرتُ إليها نظرة وهى عاتقٌ[2]　　على حين أن شَبّتْ وبان نهودها

وقد درّعوها وهى ذات مؤصّد[3]　　مَجوب[4] ولما يلبس الدرع ريدُها[5]

---

(١) الأغانى ج ٩ ص ٢٥　　(٢) العاتق : الشابة .　　(٣) المؤصد صدار تلبسه الفتاة الصغيرة ، فإذا أدركت درعت　　(٤) المجوب : الذى جعل له جيب

(٥) ريدها : أسلا رئدها : تربها وندها .

من الخفرات البيض ودّ جليسها إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

(ب) التزاور والاستسقاء :

كان من عادة العرب أن يزور بعضهم بعضاً ، كما نفعل نحن الآن ، وفى هذه الزيارة يلتقى الفتى الفتاة وقد يتولد عن هذا اللقاء حب ، و يتولد عن هذا الحب ، غزل رقيق .

والعرب كما نعرف أهل مروءة وجود . وكثيراً ما تضطرهم تكاليف العيش إلى التنقل والارتحال وكثيراً مايلقون فى هذا الرحيل من عناء ونصب فيضطرهم هذا إلى الراحة وقد يضطرهم إلى طلب الماء يطفئون به لوعة الظمأ ، ولفحة الهاجرة ، أو إلى قرى يكفيهم بعض الزاد .

هذا التزاور وذاك الرحيل وما يترتب عليه من قرى ومن سقاية الماء يساعدان على لقاء الرجل المرأة ، وبالتالى على ما يقع بينهم من أواصر الحب ، وبالتالى على ما يوحيه الحب من شعر الغزل .

خرج عبد الله بن علقمة[1] أحد بنى عامر وهو شاب مع أمه تزور جارة لها ، وكان لها بنت يقال لها حبيشة . فلما رآها عبد الله أعجبته ، ووقعت فى نفسه . وفى ذلك يقول عبد الله فى أثناء انصرافه بأمه من هذه الزيارة وكانت السماء تمطر :

وما أدرى بلى إنى لأدرى أصوبُ القَطْر أحسنُ أم حُبيشْ

حُبَيْشَةُ والذى خلق الهدايا وما عن بعدها للصب عيشْ

وقد شاء العاذلون أن يفرقوا بينهما وأن تنتقصه ولكن عبد الله قرأ المكيدة فى دمع عيونها . فقال :

لو قُلتِ ما قالوا لزِدتُ جوًى بكم على أنه لم يبقَ سترٌ ولا صبرُ

ولم يك حُبّى عن نوالٍ بذلتِه فيُسليني عنه التجهّمُ والهجرُ

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٢٨٠

وما أنسَ م الأشياء لا أنسَ دمعَها   ونظرتَها حتى يُغيّبني القـــبرُ

وكيف التقى قيس ولبنى ، حتى خلفا لنا هذا التراث الخالد ؟ .

مر[1] قيس لبعض حاجته بخيام بنى كعب بن خزاعـة ، ووقف على خيمة منها والحى خُلُوف[2] ، والخيمة خيمة — لبنى — بنت الحباب الكعبية ، فاستقى ماء فسقته ، وخرجت إليه به ، فلما رآها وقعت من نفسه ، وشرب الماء ، فقالت له : أتنزل فتبترد عنـدنا ؟ . قال : نعم . فنزل بهم . وجاء أبوها فنحر له وأكرمه . وانصرف قيس وفى قلبـه من لبنى حب لا يطفأ ، وفاض قلبه بحبه لها ، وكان ترجمانه فى ذلك شعره ، الذى نسمعه ونقرؤه ، فنعجب به أيّما إعجاب .

ووقف نُصيب[3] على أبيات فاستسقى ماء ، فخرجت إليه جارية بلبن أو ماء فسقته وشبب بها ، وقد عرف اسمها واسم الجبل القريب من بيتها وقال :

أُحِبُّ قنا[4] من حُبِّ هندٍ ولم أكن   أُبالى أقُرْباً زادَه اللهُ أم بُعْـدَا

(حـ) مواسم العرب :

لا شك أن هذه المواسم كانت مثابة لاختلاط الرجل بالمرأة ، أو بعبارة أدق كانت مثيراً لشعور الرجل والمرأة ، هذه الإثارة التى تؤجج بين قلبيهما عاطفة الإعجاب، أو عاطفة أخرى تتجاوز الإعجاب إلى الحب والغرام . ولا يخفى أن هـذه الإثارة تولد شعراً جديداً ، هو الغزل .

وطبعى أن يكون لهذه المواسم ذلك الأثر فهى معرض عام ، يرى فيه الرجل المرأة ، وترى المرأة الرجل . فإذا وقع نظر العربى وهو دقيق مرهف على جمالٍ وصفه ، وعلى عاطفة تحدث عنها ، وعلى دلال ترجم عنه .

وطبعى أيضاً أن تلج المرأة هذه المواسم ، وهى أديبة شاعرة ، تقرأ ما فى الشعر

---

(١) العقد الفريد ج ٦ ص ٢٢٧   (٢) غائبون

(٣) الأغانى ج ١ ص ٣٥٣   (٤) جبل لبنى مرارة

من غزل رقيق ، ومن إعجاب بالحسن والجمال . فلم لا تكون هى القيثارة التى يغنى عليها الشاعر آية الحب ، آية الفتنة ، آية الروعة والجلال ؟ . لم لا تكون ؟ حتى يتحدث الشعر عنها ، فيتناقله العرب ، بل يتناقله التاريخ جيلا بعد جيل ، وخاصة أنه لا حرج فى ذلك ولا نكران .

وقد مرت بك بعض الأمثلة ، تظهر لك بوضوح وجلاء ، أن المرأة كانت مشغوفة بالغزل ، وكانت تتوق أن تكون أداة لهذا الغزل ، بل كانت تغرى الشاعر بوسائل شتى ، حتى يتغزل فيها ، وحتى يكون شعره الغزلى مقولا فيها وحدها ، دون غيرها من نساء العرب .

وما هى مواسم العرب ؟

الموسم الأكبر هو الحج . وهو وإن كان مثابة للناس وأمنا ، وهو وإن كان ملتقى القلوب حيث تصفو من أدران الحياة ، ومن أرجاس الفساد ، وحيث تتجه إلى الله وحده فتخشع له وتخضع ، وتتوب وتنوب . تلك سنة العرب منذ الجاهلية حتى جاء الإسلام ، وطال به الأجل . على أن العربى — وذلك روحه الصافى ، وهذا قلبه النقى وتلك اتجاهاته إلى الخالق الأعلى — إذا رأى المرأة ، وراقه جمالها وحسنها شغف بها ، وتودد إليها ، وتحدث عنها كأثر من آثار الله الذى صور فأحسن الصورة ، والذى زين فأحسن الزينة ، أو كأثر من آثار روحه ، وهو أصفى ما يكون فى هذه الساحة الكريمة . وليكن مظهره فى هذا الصفاء أن يذكر جلال الله ، وأن يذكر جمال المرأة ، ولا شك أنه أثر من آثار جلال الله .

هذا عمر بن أبى ربيعة يرتقب موسم الحج ، وإذا جاء ارتحل عمر إلى مثابته وأطلق طرفه ، يتأمل ، وإذا به يكشف فى المرأة مواضع حسنها وجمالها . وإذا شعره يفيض بالحديث عن هذا الحسن ، وذاك الجمال .

ومن غزل عمر فى الحج قوله :

أبصرتُها[1] ليلةً ونسوتَها يمشين بين المقام والحجَر
بيضاً حِساناً نواعماً قُطُفاً يمشين هَوْناً كمِشيةِ البقرِ
قالت لِتربٍ لها تُلاطِفُها لنُفسدنَّ الطوافَ فى عمرِ
قومى تصدَّىْ له ليعرِفَنا ثم اغمزيه يا أُختِ فى خَفَرِ

هو فى هذه الأبيات يصف امرأة أبصرها ونسوتها يمشين بين المقام والحجر. وكيف وصف هذه المرأة ؟.

ذكر حسنها ، وما يتبع هذا الحسن من البياض والنعومة ، وذكر مشيتها ، وما يتبع هذه المشية من تثنّ وخيلاء . ثم ذكر نوعا من طرق الغزل ، بين امرأة ماكرة ماهرة . و بين رجل ليس بأقل منها حباً للغزل ، وقبولا له ، ورغبة فيه . نوع من العبث واللهو ، تكون فيه المرأة متجنية مدلالة . تعقد العزم هى وترب لها ، على أن تفسد طواف عمر . وكيف ذلك ؟ تتصدى له ، فيتجه إليها بصره ، وهو حساس مرهف ، فيعرف حسنها ، و يعرف جمالها ، و يعرف فى هذا الحسن مظهراً من مظاهر الغمز اللطيف المحبوب ، ويعرف فى جمالها مظهراً من مظاهرالحياء الجميل .

وحدّث قدامة بن موسى أنه خرج بأخته زينب بنت موسى إلى العمرة ، فلما كان بسَرِف لقيه عمر بن أبى ربيعة على فرس ، فسلّم عليه . قال قدامة « إلى أين أراك متوجهاً ياأبا الخطاب ؟ قال ذكرت لى امرأة من قومى برزة الجمال فأردت الحديث معها . قال قدامة : أما علمت أنها أختى . قال : لا والله ، واستحيا ، وثنى عنق فرسه ، راجعاً إلى مكة .

وزينب هذه يقول فيها عمر :

ياخليلى من ملام دعانى وألِمّا الغَداة بالأظعانِ
لا تلوما فى آل زينب إنّ القلب رهنٌ بآلِ زينبَ عانى

---

(١) الأغانى ج ١ ص ١٧٠

هذا عمر فى الحج[1] يرى امرأة من أهل العراق ، يروقه جمالها . وكان من أمره أن مشى معها ، وسار حيث سارت ، حتى تحدث معها ، وتحدثت معه ، وحتى توثقت بينهما آصرة الحديث ، إلى أن خطبها ، و إلى أن قبلت هذه الخطبة ، ولكن على شرط أن يرتحل معها إلى بلدها ، وأن يطلبها من أهلها . وكان أن تزود لهذا السفر الشاق ، واستعان بصديق له فى الراحلة والزاد ، وسارا معاً ، ولا يدرى الصديق ما يريد عمر . ولا يدرى لم كان عمر يتعجل السير ، و يستحث الخطا ، حتى لحق ركب العراقية ، وحتى أخذ يحادثها طول الطريق ، وأخذت تحادثه ، وكان بينهما غزل رقيق ، وود جميل ، وأقام عمر بالعراق أياما ، ثم راسل العراقية ، يتنجز وعدها . و يظهر أن العراقية لم تكن تريد زواج عمر ، بل أرادت أن تأنس إليه ، وتستمع إلى غزله ، وتصغى إلى دفات قلبه ، وأرادت أن ينقلها شعره إلى أسماع الناس ، وأن يتحدث التاريخ عن حسنها وجمالها ، و يتحدث فوق ذلك أنها أثارت فى الشاعر العربى عاطفته حتى اهتزت بهذا الغزل العذب الرقيق . لم تلب العراقية رغبة عمر ، واعتذرت له اعتذاراً هيّناً جميلا ، و بعثت إليه بخمسة آلاف درهم . أما عمر فقد رد خمسة الآلاف ، وعاد إلى مكة ، وفى نفسه حسرة على فراقها ، وألم على أن زواجه لم يتم بها . وقال فى ذلك قصيدته التى أولها :

نام صحبى ولم أنم　　　من خيال بنا ألمّ

وفيها يقول :

قلت ياعمرو شفّنى　　　لاعج الحب والألم
ايت هندا نقل لها　　　ليلة الخيف ذى السَّلَمَ

وكانت خرفاء العامرية فى طريق الحاج وكان جمهرة من الشعراء يمرون بها ، ويجدون من حسن وفادتها ، ما تجد هى من غزلهم ، ورقة أشعارهم .

(١) الأغانى حـ ١ ص ١٧٢

ومن هؤلاء ذو الرمة وفيها يقول :

تمامُ الحج أن تقف المطايا على خَرْقاء واضعةِ اللِّثامِ

وحدثنا عبد الله بن عمر العمرى ، قال :

خرجت حاجا ، فرأيت امرأة جميلة ، تتكلم بكلام رفثت فيه ، فأدنيت ناقتى منها . ثم قلت لها يا أمة الله : ألست حاجة ؟ أما تخافين الله ؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسناً ، ثم قالت تأمل يا عمى ! فإنى ممن عنى العرجى بقوله :

من اللّاء لم يحججن يبغين حِسْبَةً ولكن ليقتلن البرىء المُغَفَّلا

وكان عبد الملك بن عبد العزيز السلولى من شعراء اليمامة يهوى امرأة يقال لها سُعدى ، وذات مرة لقيها راحلة نحو مكة حاجة ، فأخذ بخطام بعيرها ، وقال :

قل للتى بكرت تريد رحيلا للحج إذ وجدت إليه سبيلا

ما تصنعين بحجة أو عمرة لا تقبلان وقد قتلتِ قتيلا

أحيى قتيلك ثم حُجى وانسُكى فيكون حجك طاهراً مقبولا

وكان أبو نواس يحب « جَنان » جارية آل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى وقيل له يوما إن جنان قد عزمت على الحج ، فكان هذا سبب حجه ، وقال : أما والله لا يفوتنى المسير معها والحج عامى هذا إن أقامت على عزيمتها ، وقد أقامت « جنان » على عزيمتها ولم يفت أبا نواس المسير معها . وفى ذلك يقول :

ألم تر أننى أفنيت عمرى بمطلبها ومطلبها عسير

فلما لم أجد سبباً إليها يُقرِّبنى وأعيتنى الأمور

حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعنى وإياها المسير

وجلس نسوة قريبا من المسجد الحرام ، وأخذن يتذاكرن الشعر والشعراء . فقالت أحداهن قاتل الله جميلا حيث يقول :

وبين الصّفا والمروتين ذكرتُكم بمختلِف ما بين ساعٍ ومُوجِفِ

وعند طوافى قد ذكرتُكِ ذكرةً هى الموتُ بل كادت على الموت تَضْعُف[1]

فقالت الأخرى :

بل قاتل الله كثيِّر عزة حيث يقول :

طلعن علينا بين مروة والصفا يمُرْن[2] على البطحاء مَوْرَ السَّحائب

فكدن لعَمْرُ الله يُحْدِثْنَ فتنة لمختشع من خشية الله تائب

وقالت الأخرى : قاتل الله نُصَيْبا حيث يقول :

ألامُ على ليلى ولو أستطيعها وحُرْمةِ ما بين البنيَّة والسِّتر

لملْت على ليلى بنفسىَ مَيلة ولو كان فى يوم التَّحالق والنَّحر

فهذه أقوال ثلاثة ، لشعراء ثلاثة .

أما جميل وكثير عزة فإنهما يتغزلان فى الحج ، ويذكران الصفا والمروة ، حيث يذكران ذكر الحبيبة ، وزينة الحبيبة ، وما لهذه الزينة من بدع وفتنة ، أما نصيب فإنه لا يبالى بلوم الناس ، على ما كان بينه وبين ليلى ، وهو لا يبالى أيضاً أن يقول . لو رآها فى معلم من معالم الحج لشغل بها ، وتحدث إليها ، ورغب بهذا الحديث عما تتطلبه هذه المعالم من نُسك وعبادة .

٣ — أسواق الأدب :

وللأدب عند العرب سوق رائجة رابحة . فهم قوم جبلوا منذ القدم على حب الشعر ، نظموه وتغنوا به ، وكان سجلّ علومهم ومعارفهم ، ووحى آثارهم ومفاخرهم . وأنت تعرف أن العرب كانت فى الجاهلية تقيم فى أنحاء البلاد أسواقاً للأدب منها : عُكاظ[3] ، ومَجَنَّة[4] ، وذو المجاز[5] ، وتعرف أيضاً أن سوق عكاظ امتدت

---

(١) تضعف : تزيد (٢) يتمايلن جائيات ذاهبات (٣) موضع قرب الطائف
(٤) موضع قرب مكة (٥) موضع قرب عرفات

إلى ما بعد الإسلام حتى سنة تسع وعشرين ومائة . وكانت هذه الأسواق مباءة للعرب جميعاً ، يفدون إليها من كل مكان ، وهناك ينشد الشعراء ، ويتحدث الخطباء ، وهناك يجودون الكلام نظمه ونثره ، وكل يسعى إلى أن يكون صاحب الغلبة، والسبق، بل هناك يلتقى الرجل والمرأة لا حرج فى ذلك ولا بأس وكنت تستمع إلى شعر المرأة كما تستمع إلى شعر الرجل ، وكانت المرأة تسمع الشعر كما يسمعه الرجل لأن للمرأة العربية ذوقا فى الأدب ، ولأن للمرأة العربية حظا من الأدب ، يدانى حظ الرجل .

وإذا كانت هذه الأسواق ملتقى العرب من رجال ونساء فهى إذن من دواعى الغزل . وكما قلنا أن لقاء الرجل المرأة ، يثير فى نفسيهما عاطفة ثائرة حارة . والرجل حساس مرهف ، خصب الخيال ، قوى الشاعرية والمرأة جميلة فاتنة ، تعرف فى الرجل حساسيته وعاطفته ، وشاعريته ، فتعريه بجمالها ودلالها ، وتذكى فيه الصبابة والهوى ، فيترجم الرجل عن قلبه ، ويكون الشعر ترجمانه ، ويكون الغزل دليله وبيانه .

هذه الأسواق داعية من دواعى الغزل ، لا لأنها تجمع بين الرجل والمرأة فحسب ، بل لأنها أيضاً مباءة للشعر العربى ، والغزل ناحية من نواحى الشعر العربى ، يسمعها الرجل ، فيعجب بها ويطرب ، ويدفعه هذا إلى أن يكون له مثل هذا الشعر، يعجب به الناس ، ويطرب به القلوب ، وتسمعه المرأة فتزهو بما حباها الله ، كيف لا . وهذا الشعر تكريم لها أو لأتراب لها ، لا يسبقنها فى الحسن والجمال . وكأنى بها وقد عادت فى العام التالى ترجو أن يكون لها من الشعر ، ومن تسابق الشعراء فى وصفها، والتغنى باسمها ما يجعلها رفيعة الشأن . ذائعة الصيت . وكأنى بالشاعر أيضاً وقد عاد فى العام التالى يرجو أن يكون له من نساء كثيرات مادة لخياله الشعرى، ومادة لعاطفته الحساسة يصفهن ، ويتحدث إليهن ، ويحمل شعره كثيراً من مظاهر الوصف والحديث، خاصة

وقد سار شعره المقول من قبل ، وانتقل فى كل واد ، وتذوقته الأفئـــدة ، وتدارسته العقول ، فأعجبت بمعانيه ، وما يوحى من فن وروعة .

على أن للعرب مواسم وأسـواقاً أخرى للأدب ، فهناك مجالس الملوك ، مجالس الأمراء ، مجالس الحكام ، يرتادها الشعراء ، و يؤمونها من كل حدب ، يقصدون القربى إلى ذوى الجاه والسلطان ، و يقصدون العطاء الجم ، والنعم الجزيلة ، وتجـد مظهر ذلك فى كل العصور حيث تكون القوة ، وحيث يكون الحول .

فى هذه المنتديات تسمع من الشعراء ألسنة قوالة ، وقرائح متقدة ، وتسمع كأثر لهذه الألسنة ، وتلك القرائح شعراً رائعاً محوداً ، فيه غزل رقيق لأنه هو الفن الذى يصح أن يجمع بين هذه القلوب ، فى وقت دعة ، ورخاء وسلام .

يقول الدكتور طه حسين بك :

لم تكن [١] اجتماعاتهم تخلو دائماً من النساء ، فقد كان الإماء الظريفات يأخذن منها بنصيب عظيم ، وكانوا يجتمعون فى الحانات والأديرة ، فى بيوت الأمراء والوزراء وفى بيوتهم الخاصة ، فيلذون و يتحدثون . وتستطيع أن نتنبأ بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم فى الأدب العربى ، والعقل العربى . كانت هذه الأحاديث عذبة غير متكلفة ، ولا ثقيلة الروح ، كانت تصدر عنهم عفواً فتمثل عقولهم وشعورهم .

وللنساء أسواق أدب لا تقل عن أسواق الرجال ، من حيث الرغبة فيها ، والإقبال عليها ، ومن حيث مدارسة ما يتناشدونه فيهـا من أشعار ، ومن حيث تذوق الجمال الفنى من هذه الدراسة الشعرية والجرى وراء معانيها الحية الحساسة ، ومن حيث أن هذا الشعر نفسه يثير فى نفوسهن ألواناً من العاطفة وألواناً من الحياة ، محببة إليهن ، قريبة إلى هواهن .

وكأنى بهؤلاء النسوة يجتمعن ، وفيهن المغرمات المتيمات ، وهن أديبات يفهمن

---

(١) حديث الأربعاء ج ٢ ص ٤٠

الشعر و يتذوقنه عن معرفة وخبرة . كأنى بهن يلتقين ، و يتبارين فى أن يتناشدن أشعار الغزل ، وأخبار الغزل ، وأى معانيه أكثر روعة ، وأى أخباره أقوى دلالة على الحب الصافى ، والعشق الرقيق . كأنى بهن فى مجالسهن هذه يتذاكرن أحوالهن مع أحبابهن ، من متعة حديث ، ومن لوعة فراق ، ومن رقبة العواذل ، ومن نجوى الطيف ، ومن صد ووصال . ثم يتذاكرن رجال الغزل من الشعراء ، وماذا قالوا فى هذه المعانى وأيهم كان أكثر إجادة ، وأكثر روعة ، وأكثر نفاذاً إلى القلوب .

ومثل هذا يحدث إذا اجتمعت فتاتان ، وكان الهوى قد وصل إلى قلبيهما ، فإنهما يتحدثان وإنهما يتناجيان ، وعلى قدر مايكون لهما من علم وأدب ، وما يكون لهما من خبرة ودراية ، بهذا الفن الجميل من الغزل يكون الحديث شائقاً و يكون الاجتماع ظريفاً لطيفاً .

وكثير من مجالس النساء هذه كان لا يخلو من الرجال . و يظهر لى أنهن كن يجدن فى وجود الرجل نوعاً من المتعة ، ونوعاً من اللذة ، وخاصة إذا كان شاعراً ، وإذا كان شاعر غزل ، يحدثهن كيفما شئن ، أحاديث الحب والهوى . وما أحلى هذه الأحاديث ! .

هذا[1] مجلس امرأة من بنى أمية يحضره شعراء ثلاثة : نُصَيْب — أبو مِحْجن — كُثَيِّر ، الأحوص ، و يحضره وصائف ، ورجال من الموالى ، ونساء بارزات . وكان أن تذاكر الرجال والنساء ألواناً من شعر الغزل ، وكان أن قالت المرأة لجارية لها ذات جمال خذى ويحك ! من قول النصيب عافى الله أبا محجن :

ألا هل من البين المفرِّق من بدّ   وهل مثلُ أيام بمنقطَع[2] السَّعد[3]
تمنيت أيامى أولئك والمنى   على عهدِ عادٍ ماتعيد[4] ولا تبدى

(١) الأغانى ج ١ ص ٣٥٦   (٢) منقطع المكان : حيث ينقطع وينتهى
(٣) مكان قريب من المدينة   (٤) أى لاتأتى بعائده ولا بادئه أى لا نفع فيها .

فغنته بأحلى لفظ ، وأشجى صوت .

وقالت لها : خذى أيضاً من قول أبى مِحْجن — عافى الله أبا محجن :

أرِق المحبُّ وعاده سَهدُهْ ... لِطوارق الهمِّ التى تردُهْ

وذكرتُ من رقّت له كبدى ... وأبَى فليس ترقُّ لى كبده

لا قومهُ قومى ولا بلدى ... فنكونَ حيناً جيرةً — بلده

وَوجَدت وجداً لم يكن أحدٌ ... قبلى من أجْلِ صبابة يجده

فغنته ، وجاءت به أحسن من الأول .

وقالت لها : ويحك ! خذى من قول أبى محجن — عافى الله أبا محجن :

فيالكَ من ليل تمتّعتُ طولَهُ ... وهل طائفٌ من نائم متمتّعُ

نعم إن ذا شجْوٍ متى يلق شجْوه ... ولو نائماً مُستعتِبٌ[1] أو مودّع

له حاجة قد طالما قد أسرّها ... من الناس فى صدر بها يتصدّع

تحمّلها طولَ الزمان لعلّها ... يكون لها يوماً من الدهر منزَع

فغنته ، وجاءت بشىء حير الأذهان والألباب .

ثم قالت لها : خذى أيضاً من قول أبى محجن — عافى الله أبا محجن :

يأيها الركب إنى غير تابعكم ... حتى تلمّوا وأنتم بى مُلمونا

فما أرى مثلكم ركباً كشكلكمُ ... يدعوهم ذو هوى الاّ يعُوجونا

أمْ خبّرونى عن دائى بعلْمكم ... وأعلَم الناس بالدّاء الأطبّونا[2]

قال نصيب : فوالله لقد زُهيت بما سمعت زهواً خيل إلى أنى من قريش ، وأن الخلافة لى ! .

ثم قالت : حسبك يابنية : هات الطعام ياغلامُ ، فوثب الأحوص وكثير وقالا :

---

(١) يقال استعتبته وأعتبنى : استرضيته فأرضانى

(٢) البارعون فى الطب

والله لا نطعم لك طعاماً ولا نجلس لك فى مجلس . فقد أسأت عشرتنا واستخففت بنا ، وقدمت شعر هـذا على أشعارنا ، واستمعت الغناء فيه ، و إن فى أشعارنا لما يفضل شعره ، وفيها من الغناء ما هو أحسن من هذا . فقالت : على معرفةٍ كلّ ما كان منى ، فأى شعركما أفضل من شعره ؟ أقولك يا أحوص ؟ :

يقرُّ بعينى ما يقر بعينها — وأحسنُ شىء ما به العين قرتِ

أم قولك يا كثيّر فى عزة :

وما حسبتْ ضمْرِيّةٌ[١] جُدوية — سوى التيْسِ ذى القرنين أنّ لها بعْلا

فخرج كثير والأحوص مغضبين . أما نصيب فتغدى عندها ، وأمرت له بثلاثمائة دينار وحلتين وطيب .

وهؤلاء فتيات من أهل مكة يجتمعن فى متنزه لهن ، ولا يطيب لهن مقام إلا إذا كان الدّارمىّ بينهن ، يحدثهن من شعره ، و يمتعهن بنوادره . اجتمعن ذات يوم ، وفيهن صديقة له ، وكل واحدة منهن قد واعدت هواها[٢] فخرجن حتى أتين الجحفة[٣] وهو معهن . فقال بعضهن لبعض : كيف لنا أن نخلو مع هؤلاء الرجال من الدارمى ؟ . فإنا إن فعلنا قطعنا فى الأرض ! قالت لهن صاحبته أنا أكفينّه . قلن : إنا نريد ألا يلومنا . قالت : على أن ينصرف حامداً . وكان أبخل الناس ، فطلبت منه أن يذهب إلى مكة ليشترى لهن طيباً ، فاكترى حماراً ، وصار إلى مكة وهو يقول :

إنا بالله ذى العـز — وبالرّكن وبالصَّخْره

من اللائى يُردن الطيـب فى اليسر وفى العُسْره

وما أقوى على هـذا — ولو كنتُ على البصْره

وكان جماعة من النساء المتظرفات يدخلن إلى بشار فى كل جمعة يومين . يجتمعن

---

(١) نسبة إلى جدى بن ضمرة بن بكر بن كنانة (٢) من تحبه وتهواه
(٣) قرية قرب مكة

عنده ويستمعن من شعره . وذات يوم سمع كلام امرأة منهن ، فعلقها قلبه وراسلها يسألها أن تواصله . فقالت لرسوله : وأى معنى فيك لى أو لك فى ؟ وأنت أعمى لاترانى فتعرف حسنى ومقداره ، وأنت قبيح الوجه فلاحظ لى فيك . فليت شعرى لأى شيء تطلب وصال مثلى ؟ !

وهذه[1] هند بنت الحارث المرية مع نسوة لها ، تحتال على عمر بن أبى ربيعة ليحضر مجلسهن هذا ، ويحدثهن من غزله ، ومن شعره . أرسلت إليه خالداً الخِرِّيت ، فأغراه ليرى هؤلاء النسوة ، وهن بارعات فى الحسن والجمال . وعرض عليه أن يأتيهن متنكراً ، فيسمع من حديثهن ، ويتمتع بالنظر إليهن ، ولا يعلمن من أمره شيئاً . قال عمر : وكيف لى أن أخفى نفسى ؟ قال خالد : تلبس لبسة أعرابى ثم تجلس على قعود فلا يشعرن إلا بك قد هجمت عليهن ، ففعل عمر ماقال ، وجلس على قعود ، وأتاهن فسلم عليهن ، ووقف بقربهن ، وسألنه أن ينشدهن ، وأن يحدثهن ، فأنشدهن من شعر كثير ، والأحوص وجميل ، ونصيب وغيرهم ، فقلن له : ويحك يا أعرابى ما أملحك وأظرفك ! لو نزلت فتحدثت معنا يومنا هذا . فإذا أمسيت انصرفت فى حفظ الله . قال عمر : فأنخت بعيرى ، ثم تحدثت معهن ، وأنشدتهن فسررن بى وجذلن بقربى وأعجبهن حديثى ، ثم إنهن تغامزن ، وجعل بعضهن يقول لبعض . كأنا نعرف هذا الاعرابى ما أشبهه بعمر بن أبي ربيعة ! فقالت إحداهن : هو والله عمر فمدت هند يدها فانتزعت عمامة عمر ، وألقتها عن رأسه ، وقالت له هيه ياعمر ! أتراك خدعتنا منذ اليوم ! بل نحن والله خدعناك ، واحتلنا عليك بخالد ، فأرسلناه إليك لتأتينا فى أسوأ هيئة ونحن كما ترى . قالوا وطال بينهم الحديث ، وإنشاد الشعر .

وفى هذا المجلس يقول عمر ، ويصفه بهذه الأبيات :

ألم تسأل الأطلالَ والمتربَّعا ببطن حُلَيّات[2] دَوارسَ بلقعا

---

(١) الأغانى ج ١ ص ١٧٥ (٢) حليات اسم موضع قرب مكة

إلى السفح[1] من وادى[2] المغمّس بُدّلت معالمه وبْلا ونكباء[3] زعْزعا

لهندٍ وأتراب لهندٍ إذ الهوى جميعٌ وإذ لم نخش أن يتصدعا

وإذ نحن مثل الماء كان مزاجُه كما صفّق[4] الساقى الرحيق المشعشعا

وإذ لا نطيع الكاشحين ولا نرى لواش لدينا يطلب الصّرمَ موضعا

وقريب من هذا[5] أن خرج نسوة من أهل مكة إلى بعض المتحدثات من نواحى مكة ، وكانت الليلة مقمرة ، وخرج معهن الغريض المغنى ، ورغب الحارث ابن خالد أن يشهد هذا المجلس ، وأن يستمع إلى حديث النسوة ، فأتى عمر بن ربيعة وقال له : إن فلانة وفلانة وفلانة ، وسماهن كلهن ، قد بعثننى ، وهن يقرأن عليك السلام . وقلن : تشوقن إليك فى ليلتنا هذه لصوت أنشدناه الغريض . وكان الغريض يغنى هذا الصوت فيجيده ، وكان ابن أبى ربيعة به معجباً وهو قوله :

أمسى بأسماء هذا القلب معموداً إذا أقول صحا يعتاده عيداً

قال عمر : لقد أزعجتنى فى وقت كانت الدعة أحب ميه إلى ، ولكن صوت الغريض ، وحديث النسوة ليس له مترك ولا عنه محيص ؛ وكان أن وفدا عليهن ، فتهيبن ، وتحفزن ، فقال الغريض : لا عليكن !

هذا ابن أبى ربيعة والحارث ابن خالد جاءا متشوقين إلى حديثكن وغنائى .

قالت فلانة : وعليك السلام يابن أبى ربيعة ، والله ماتم مجلسنا إلا بك . وكان غناء ؛ وكان حديث ؛ ولا يزالون بأنعم ليلة وأطيبها حتى بدأ القمر يغيب ؛ فتفرقوا وتفرقن ، وفى ذلك يقول عمر :

هل عند رسم برامةٍ[6] خبر أم لا ، فأىّ الأشياء ننتظر

---

(١) السفح : موضع (٢) المغمس : موضع

(٣) النكباء : الريح التى تنكب عن مهاب الرياح . يقال ريح زعزع أى شديدة

(٤) صفق الشراب : مزجه (٥) الأغانى ج ٦ ص ٣٢٧

(٦) منزل فى طريق البصرة إلى مكة .

قد ذكرتنى الديار إذ درست ... والشوق مما يهيجه الذِّكر

تمشى رسول إلىّ يخبرنى ... عنهم عِشاءً ببعض ما ائتمرو

ومجلس النسوة الثلاث لدى الخـ ... ـيمات حتى تبلج السَّحر

فيهن هندٌ والهم ذِكْرتها ... تلك التى لا يُرى لها خطر

ثم انطلقنا وعندنا ولنا ... فيهن لو طال ليلنا وطر

وقولها للفتاة إذ أزِف الـ ... ـبين : أغادأم رائح عمر ؟

عجلان لم يقض بعض حاجته ... هلا تأنّى يوماً فينتظر

اللهُ جارٌ له وإن نزحت ... دار به أو بدا له سفر

وهؤلاء[1] نسوة يجتمعن عند امرأة من أهل المدينة ، ولكن المجلس يحلو إذا كان فيه شاعر ؛ وكان غزلا يحدثهن حديثاً لذيذاً ممتعاً .

قالت النسوة للمرأة : أرسلى إلى الأحوص فإنا نحب أن نتحدث معه ؛ ونسمع من شعره ؛ قالت : إذاً لا يزيدكن على أن يخرج إذا عرفكن فيشهركن وينظم الشعر فيكن ؛ ولم يعبأ النسوة بهذا التحذير ؛ فإن نظم الشعر فيهن حبيب إلى نفوسهن . وتلك أمنية يسعى إلى تحقيقها كثير من النساء وليس أحب إلى المرأة العربية — إذا لم يكن بها حرج — من أن يفتتن الشعر بها وأن يتحدث عن حسنها وجمالها ؛ وأن يسير فى كل مكان ؛ وفى كل جيل يحمل إلى الناس جميعاً هذا الحديث العذب الرقيق ، ولا يزال النسوة بالمرأة حتى أرسلت إلى الأحوص رسولا ؛ يذكر له أمر هذا المجلس ويحمل له رغبة هؤلاء النساء ؛ أما الأحوص فقد جاء سراعاً . وجلس إليهن يحدثهن حديثاً طويلا ؛ وينشدهن من شعره الشيء الكثير . وفى هذا يقول الأحوص من قصيدة طويلة :

كلٌّ يرى أن الشباب له ... فى كل غاية صبوةٍ عذر

---

(١) الأغانى ج ١٦ — طبعة قديمة — ص ٩٢ .

سيفانة[١] أمر الشباب بها ... رقراقة لم يُبلها الدهــر
حتى إذا أبدى هواه لها ... وبدا هواها ماله سَتر
سَفَرت وما سفَرت لمعرفة ... وجهاً أغر كأنه البدر

قالوا[٢] ولما قضى الفرزدق حجه خرج إلى المدينة فدخل على سكينة بنت الحسين عليه السلام مُسلّما . فقالت له : يا فرزدق من أشعر الناس ؟ .

قال : أنا . قالت : كذبت . أشعر منك الذى يقول :

بِنفسىَ من تجنُّبُه عزيزٌ ... علىّ ، ومَن زِيارتُه لِمَامُ
ومن أمسى وأصبحُ لا أراه ... ويطرقنى إذا هجــع النيام

وخرج ثم عاد إليها من الغد ، فدخل عليها ، وقالت : يا فرزدق من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت . صاحبك أشعر منك ، حيث يقول :

لولا الحيــاء لهاجنى استعبار ... ولزرتُ قبرَكِ ، والحبيبُ يُزار
كانت إذا هجر الضجيعُ فراشها ... كتم الحدث وعفّت الأسرار
لا يلبث القُرَناء أن يتفرقوا ... ليــلٌ بكُــرّ عليهمُ ونهـار

وخرج ثم عاد إليها فى اليـوم الثالث ، وحولها مولدات كأنهن التماثيل ، فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن ، فأعجب بها . فقالت : يا فرزدق . من أشعر الناس ؟ قال : أنا . فقالت : كذبت . صاحبك أشعر منك ، حيث يقول :

إن العيون التى فى طرفها مرض ... قتلننـا ثم لم يُحْيِـين قتـلانا
يصرعن ذا اللُّب حتى لا حَرَاك به ... وهن أضعفُ خلق الله أركانا

وكان أن أعجب الفرزدق باحدى هؤلاء الجوارى ، فأعطته سكينة إياها .

---

(١) يقال إمرأة سيفانة : ممشوقة طويلة

(٢) الأغانى ج ١٤ — طبعة قديمة ص ١٧٧

وقالوا[١] : إن أبا دَهْبَل كان يهوى امرأة من قومه يقال لها عَمْرة ، وكانت امرأة جزلة[٢] يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار .

ويقول فيها أبو دَهْبَل :

تطاولَ هذا الليلُ ما يتبلّج ... وأعيت غواشى عَبْرتى ما تفرَّجُ

وبت كئيباً ما أنام ، كأنما ... خلال ضلوعى جَمْرَةٌ تتوهج

فطوراً أُمنّى النفس من عَمْرة المنى ... وطوراً ، إذا مالجّ بى الحزن أَنشِج[٣]

لقد قطع الواشون ما كان بيننا ... ونحن إلى أن يوصَل الحبلُ أحوجُ

وقالوا[٤] : كانت عقيلة بنت الضحاك تهوى ابن عمها عمرو بن كعب . وكانت عقيلة أديبة تحفظ الشعر ، وتعرف كثيراً من نوادره ومراميه . ووفد عليها رجل من قبيلة الفرزدق . فسألته : ممن الرجل ؟ . قال : من بنى حنظلة . قالت : من أيهم ؟ قال : من بنى نهشل . فتبسمت وقالت : أنت إذن ممن عناه الفرزدق بقوله :

إن الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعز وأطول

بيتاً بناه لنا المليك ، وما بنى ... ملكُ السماء فإنه لا ينقل

قال الرجل : نعم . جُعلت فداك . فضحكت ، وقالت : فان ابن الخطفى — جرير — قد هدم عليكم بيتكم هذا الذى فخرتم به حيث يقول :

أخزى الذى رفع السماء مجاشعاً ... وبنى بناءك بالحضيض الأسفل

قال : فوجمت . فلما رأت هذا فى وجهى قالت : لا عليك فإن الناس يقال فيهم ويقولون . ثم قالت : أين تؤم ؟ . قلت : اليمامة .

فتنفست الصعداء . ثم قالت : ها هى تلك أمامك . ثم أنشأت تقول :

تذكرنى بلاداً خيرُ أهلى ... بها أهل المروءة والكرامهْ

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ١١٦

(٢) الجزلة : الأصيلة الرأى

(٣) النشيج : صوت معه توجع وبكاء

(٤) الأغانى ج ٨ ص ٤٥

وأخذت تذكر هواها فى أبيات جزلة رقيقة ، منها :

إذا رقد النّيامُ فان عمرا تؤرّقه الهموم إلى الصباح

تُقطّع قلبه الذكرى وقلبى فلا هو بالخلى ولا بصاح

سقى الله اليمامة دار قوم بها عمرو يحنّ إلى الرواح

وكان للأدب فى بلاد الأندلس مجالس يؤمها كثير من رجال العلم والأدب ، حتى امتلأت المحافل والمجامع بضروب اللهو والطرب .

وكما[1] قال الدكتور أحمد ضيف : « وكان للنساء أثر عظيم فى هذه المجالس ، فاتجه الناس إلى الاندماج فيها ، واستعذبوا هذا المورد وانصرفت همم الأدباء إلى التفوق فى هذا الميدان . فكان لذلك أثر عظيم فى أخلاق الأدباء ، وصورة البلاغة من نظم ونثر » .

وفى وصف أحد هذه المجالس تقول المعتمد بن عباد :

أيها الصاحب الذى فارقت عيـ ـنى ونفسى منه السَّنا والسناء [2]

نحن فى المجلس الذى يهب الرا حة والسمع والغنى والغناء

نتعاطى التى تسمى من اللـ ـذة والرقة الهوى والهواء

فأته تلف راحة ومُحَيّا قد أعدا لك الحيا والحياء

٤ — مظاهر الترف

ليس من شك فى أن الغزل فن من الفنون الرفيعة ، وأنه لون من ألوان الحياة الباسمة الصافية . لا تهفو إليه الأفئدة إلا إذا كانت خالية من شوائب الحياة ، وآلام الزمن . ولا تهتز به القلوب إلا إذا كانت غردة طروبة ، تجد لها من شعر الغزل ما يغذى هذا الطرب ويقويه ، وينميه .

---

(١) بلاغة العرب ص ٦٦ (٢) السنا : ضوء البرق والسناء الرفعة .

وقل لى بربك : ما لهؤلاء الناس الذين يكدون فى البحث عن قوتهم فلا يجدونه ، وإذا وجدوه ففى غصة ومرارة . ولهؤلاء الذين نكبهم الزمن فنغص آمالهم ، وأمنهم ، وهدوءهم بضروب من القلق والفزع . ولهؤلاء الذين شغلهم نوع من أنواع الحياة ، أيًّا كان ، فاستولى على كل نواحى شعورهم وتفكيرهم ، وحجبهم عن هذه الحياة الجميلة التى يعيش فيها جماعة من الناس ، تجمعهم آصرة الحب ، والتى يكون الغزل ، وشعره أداة من أدوات الترفيه والفن فى عالمها الهادىء المحبوب . ولهؤلاء الذين عاشوا فى الحياة وعقولهم مغلقة ، وقلوبهم جامدة ، فهم يكادون أن يكونوا كالبهم فى جهل وغفلة وضيق.

نعم . ما لهؤلاء الناس والغزل ؟ .

إنهم لا يعرفونه ، ولا يصلون إليه ، ولا يتذوقون ما فيه . وإذا وصلوا إليه اعتبروه نوعاً من اللهو والسخرية والمجون . إذن يكون الغزل حيث يكون صفاء العيش ، وحيث يكون نعيم الحياة . وحيث تكون الدعة والطمأنينة ، وهدوء البال .

وعلى قدر ما لهذه العوامل من حظ فى القوة والضعف ، يكون حظ الغزل من قوة أو ضعف .

على قدر ما يكون لهذه العوامل من تأثير فى الشاعر ، ومن تأثير فى الناس . فالشاعر إذا كان ناعماً صافياً سما بروحه إلى هذا النوع الجميل ، فأبدع وأتقن وأخرج لنا مجموعة صالحة من المعانى العذبة، والأخيلة الرائعة . وجمهور الناس إذا نعموا وصفت قلوبهم وجدوا من نتاج الشاعر ، ومن فيض الشعراء ما يغذى عاطفتهم وشعورهم . وفى هذا الميدان توجد الصلة بين الشاعر وقارئيه وسامعيه ، ويوجد التسابق فى الإجادة وتوجد الثروة الشعرية ، التى يغنى بها الأدب ، وينعم بها الناس .

يقول ابن خلدون[1] :

« إن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدى أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها

(١) المقدمة ص ١٨٣

فتكثر عوائدهم ، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته . »

ويقول فى فصل آخر :

« فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التى كانوا يتكلفونها فى طلبه ، وآثروا الراحة والسكون والدعة ، ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المبانى والمساكن والملابس ، فيبنون القصور ، ويجرون المياه ، ويغرسون الرياض ، ويستمتعون بأحوال الدنيا . »

وإننا لنقرأ فى الشعر العربى حيث كانت القوة ، وحيث كان الملك وتحصيل ثمراته — كما ذكر ابن خلدون — ألواناً رائعة من شعر الغزل . كما نعرف كثيراً من نوادر الغزل وأخباره وحوادثه تمتلىء بها كتب الأدب ، ويتحدث بها الناس جيلا بعد جيل ، وقد يكون هذا من الطبعى الذى يحتاج إلى بسط أو بيان . فالإنسان فى كل عصر وفى كل أمة متى نعم ، وهدأ باله ورغد عيشه ، أخذ يفكر فى ترفيه نفسه ، وتهذيب حسه ، وصقل وجدانه .

ولا شك أن الشعر من أقوى هذه الأسباب ومن أكثرها ذيوعاً وانتشاراً . وخاصة عند العرب وقد شغفوا به حباً من قديم الزمن . ولا شىء كالغزل بين ضروب الشعر يكون أكثر حساسية وأكثر نفاذاً إلى القلوب .

على أنه ليس من الضرورى أن يكون ملك ، حتى يكون من تحصيل ثمراته الدعة ، والراحة والاستمتاع بأحوال الدنيا ، ثم يكون الغزل ، يكون شعر الغزل . ولكن يكفى أن يكون البال صافياً ، غير مشوب بما يكدره ويعكر عليه هناءته ورفاهته .

ولهذا كان شعر الغزل أيام الجاهلية ، وليس هناك ملك حتى تحصل ثمراته ، ولكن كان العربى صافى النفس ، هادىء البال ، يجد نعيمه فى الحياة ، حيث يجد قوته ، وكان لا يلقى فى الحصول على هذا القوت مشقة وعناء وهو بعد الحصول على القوت

أكثر ما يكون أمناً ، ودعة وسلاما ، وهو لذلك تتجه إلى شعر الغزل ويجد فيه غذاء القلب ، وغذاء الروح .

ومن هذه العوامل :

(ا) الشباب

وأعنى بهذا شباب الشاعر ، وشباب الأديب ، وشباب الأمة .

فالشاعر إذا كان شابا فتيا ، ذا صحة ونشاط ، وتهيأت له الوسائل الأخرى ، فإنه يعمل جاهداً على أن يُضفى على الإنسانية من طريق الشعر ، الذى هو ترجمان نفسه لونا من ألوان الحياة المرحة الباسمة ، الحياة الجميلة العذبة ، الحياة الصافية ، حياة الغزل ، حياة الحب ، حياة الهوى .

وفى هذه الحياة يصور لك كثيراً من المعانى الرائعة ، التى تحدثك عن العواطف الملتهبة المتقدمة ، إنه يكون فى شعره كما يكون فى شبابه زاهراً ، ناضراً ، حساساً ثائراً . إنه يكون فى شعره كما يكون فى شبابه ضحوكا مرحا ، راقصاً طروبا . إنه يبعث فى شعره روحا من قلبه ووحياً من عاطفته ، ولذا يكون غزله فى الشعر فى هذا العهد الغض الباسم صورة رائعة فيها قوة ، وفيها جِدّة ، وفيها فن وجمال .

أما إذا كان الشاعر قد أصابته الشيخوخة ، وتوالت عليه أحداث الزمن حتى قوست ظهره ، وضيقت العيش فى سبيله فإنه يرغب عما هو حسن جميل . و إنه يزهد فى مظاهر الحياة ، وخاصة مباهجها وزخارفها . فلا شأن له بالغزل ، ولا شأن له بمعانى الحب يصورها ، و يتفنن فى تصويرها . وقد مر بنا أن سئل كثير : لم أصبح لا يقول الشعر ؟ فذكر أن من أقوى الأسباب التى حالت بينه و بين الشعر أن ذهب شبابه فلا طرب .

وشباب الأديب يجعل فيه قبولا لكل ما هو فاتن جميل ، يلهب عاطفته ، و يملك عليه قلبه ، و إنه يجد ذلك فى شعر الغزل ، ولذا فهو يتذاكره ، و يتدارسه ، و يختار

من ألفاظه ومعانيه ، ما يروى ظمأه ، ويطفىء غلته ، والشعراء إذا وجدوا من يتفهم أشعارهم ، و يغوص عن مكنون المعانى كان هذا حافزاً للجودة والإتقان وكان هذا سبباً من أسباب تقدير المجودين ومكافأة النابهين . ومن هـــذا التقدير أن يسرى شعره فى كل مكان ، ينطق به كل لسان ، ويهتف به كل قلب . وحينذاك يتبارى الشعراء و يتنافسون . وحينذاك تكون للغزل سوق نافقة تكثر فيها البيع الشراء ، فالطلب كثير ، والعرض كثير .

وأحب أن أصور لك المسألة تصويراً آخر :

هذا شاعر غزل ، يطلع علينا بفيض من وحى قلبه ، ويخرج لنــا صوراً جميلة من الألفاظ والمعانى . ولـكنه بين قوم كهول ، أعناهم الزمن وأقعدهم ، وجعلهم يرون أفق الحياة فى وجوههم ضيقاً عابساً كريهاً ، ليس فيه ازدهار ، وليست فيه آمال ، وليست فيه فتوة وشباب .

ما لهؤلاء وشعر الغزل ، وأخبار الغزل ! !

إنهم فى حال قد تسلمهم ولو بعد عهد قريب من الزمن إلى حافة القبر ، فليزهدوا فى الحياة الدنيا ومباهجها ، وليتصلوا إلى الحياة الأخرى بأسباب من تقوى الله وخوف عقابه . و إذا كان الأمر كذلك فإن الغزل لا يصل إلى قلوبهم ، و إن شعر الغزل لا يصل إلى أسماعهم .

وشباب الأمة أى قوتها وعظمتها . الأمة الفتية الشابة ، يكون قد اجتمع لها زاد من أسباب المجد يجعلها فى رغد من العيش ، وفى قوة ومنعة، وفى راحة وأمن وطمأنينة . وتلك هى الحال التى عناها ابن خلدون ورآها فى حصول الملك لأى أمة من الأمم . وتلك هى الحال التى إذا عاش الناس فى ظلها نعموا وترفهوا ، فطابت آمالهم ، ووجدوا فيهـا مجالا خصيباً ، فيه يسرحون ويمرحون ؛ ويجد شعراء الغزل فى هذه الحيلة ما يقوى شاعريتهم ، و يصقل عاطفتهم ، ويرقق إحساسهم ، ويوحى إليهم أن يطلعوا على الناس

بما هو حسن جميل وما هو عذب غرد ؛ وما هو فاتن شائق يوافق حياتهم الناعمة وعيشهم الفاره .

وإذا اجتمع شباب الشاعر ؛ وشباب الأديب -- أى جمهور القارئين أو السامعين — وشباب الأمة وجد الشعر أكثر ما يكون قوة وروعة ، وكان الغزل ، أكثر ما يكون عذوبة ورقة . ولعلنا حين نتحدث عن تطور الغزل نعطيك صورة صحيحة فى تأييد ما نقول .

قالوا :

كان أبو العتاهية غزلاً ، ولكنه انصرف فى أخريات أيامه ، وقد كبرت سنه إلى الزهد وترك الغزل ، ولكن الرشيد يحلو له أن يسمع غزل أبى العتاهية ، فرغب إليه أن يتغزل فأبى فحبسه ، فغنى بقوله :

خليلىّ ما لى لا تزال مضرّتى ... تكون على الأقدار حتما من الحتم

كفاك بحق الله ما قد ظلمتنى ... فهذا مقام المستجير من الظلم

ألا فى سبيل الله جسمى وقوتى ... ألا مُسعِدٌ حتى أنوح على جسمى

فأمر الرشيد بإحضاره وقال له : بالأمس ينهاك أمير المؤمنين المهدى عن الغزل فتأبى إلا لجاجا ومكابرة ، واليوم آمرك بالقول فتأبى جرأة علىّ وإقداما . فقال : «يا أمير المؤمنين إن الحسنات يذهبن السيئات . وكنت أقول الغزل ولى شباب وجدة ، وبى حراك وقوة . وأنا اليوم شيخ ضعيف لا يحسن بمثلى تصابٍ » .

ولم يقنع الرشيد بهذا، فرد إلى الحبس. وكان من الحق أن يقنع به لأنه قول صحيح سليم.

وسنرى فى باب الغزل أن شباب الشعراء هو الذى أجدى على الشعر العربى بما نقرؤه فى شعر الغزل . وإن عهد شباب الأمة هو خير العهود ازدهاراً فى الغزل ، بل تكاد تكون الثروة الغزلية من آثار هذا العهد .

ومن الجلى أن عصر بنى أمية ، وعصر بنى العباس هما مظهر الشباب فى الأمة

العربيــة . ومن الطبعى أن يكون الغزل فى هذين العصرين زاهراً عامراً . ولم يؤت هذا الحظ فى أى عصر من العصور كما وجد فى هذين العصرين .

(ب) الجوارى

نقرأ فى الأدب العربى كثيراً من أخبار هؤلاء الجوارى وأنهن كن سبباً فى بعض العهود وخاصة فى العصر العباسى إلى حال ازدهر فيها الأدب وسما ، وأصبح غنياً بفنون من الظرف والرقة والجمال .

وقد دعا إلى كثرة هؤلاء الجوارى فى العصر العباسى ما كان بين العرب والفرس من عشرة وجوار واختلاط ، وأن التسرى أصبح حلالا ، فللخليفة أو الأمير أو الحاكم أن يملك من هؤلاء من يشاء ، وأن الفتوحات ، خلفت للعرب من هؤلاء الشىء الكثير .

ويظهر أن كثرة الجــــوارى فى هذا العصر قد هالت الرياشى الشاعر ، وفى ذلك يقـــول :

إن أولاد السَّـــرارى كَثُروا ، يا رب ، فينـا
رب أدخلنى بـــلاداً لا أرى فيها[1] هجينـــا

وبعض هؤلاء الجوارى يكن مملوكات للخلفاء أو الأمراء أو الأغنياء وكن يختلفن إلى كثير من الأندية والمحافل ، يعرفها الشعراء ، والأدباء ، فيتجهون إليها ، وهناك يتناشدون أشعار الغزل ، ويسمعون الغناء العذب ، ويسمرون ويشربون ، ويجدون فى ذلك متعة لا تدانيها متعة .

وكان[2] لابن رامين[3] منزل بالكوفة يعرض فيه بعض جواريه وكن مغنيات مجيدات ، وهنَّ : سلاّمة الزرقاء ، وربيحة ، وسَعْدة . وفيهن يقول إسماعيل بن عمّار قصيدته التى أولها :

---

(١) الهجين من أمة سرية (٢) نهاية الأرب ج٥ ص٧٥

(٣) ابن رامين هو عبدالملك بن رامين مولى عبد الملك بن بشر بن مروان.

هل من شفاءٍ لقلبٍ لَجَّ محزونِ   صبًا وصبَّ إلى رِئْمٍ ابن راهين

إلى رَبيحةَ ، إنَّ الله فضَّلها   بحُسْنِها وسماعٍ ذى أفانينِ

نعم شفاؤكَ منها أن تقولَ لها :   قَتَلْتِنِى يومَ دَيْرِ[1] الَّلجِّ فأحيينى

أنتِ الطبيبُ لداءٍ قد تلبَّس بى   من الجَوَى فأنفثى فى فىَّ وأرْقينى

نفسى تأبَى لكم إلاَّ طَوَاعيةً   وأنْتِ تحْمينَ أنفًا أن تُطيعينى

وكان هؤلاء الجوارى على جانب عظيم من الجمال ، وكما يقول[2] الدكتور طه حسين بك :

قد أحسن تأديبهن ، فروين الشعر ، وقرضنه ، وأحسن الموسيقى ونبغن فيها ، وأخذن من العلم والأدب المعروفين حينئذ بطرف لا بأس به . فكن يثبتن لمناظرة الشعراء والعلماء وأئمة اللغة . وكن يعتزن بذلك ، ويتقدمن على الحرائر والمحصنات ، لأن حرية هؤلاء وإحصانهن كانا يحولان بينهن وبين التحدث إلى الرجال ، والتبذل فى هذا الحديث .

وقد يحلو للقارىء أن نحدثه بعض الحديث عن علم الجوارى ، وأدبهن .

كان[3] محمد بن عيسى الجعفرى يهوى بصبَص جارية ابن نفيس ، فذهب إليها ومعه صديق ، فلما غنتهما ، قال لها محمد بن عيسى : أتغنين ؟

وكنت أحبكمُ فسلوت عنكم   عليكمُ فى دياركمُ السلام

فقالت : لا . ولكنى أغنى .

تحمَّل عنها أهلها فبانوا   على آثار من ذهب العَفاء

فأطرق ساعة ، ثم قال : أتغنين ؟

وأخضع بالعُتبى إذا كنتُ مذنبًا   وإن أذنبتْ كنتُ الذى أتنصَّلُ

قالت : نعم . وأغنى أحسن منه .

(١) دير الحيرة بناه النعمان بن المنذر (٢) حديث الأربعاء ح ٢ ص ١٢٩ (٣) نهاية الأرب ج ٥ ص ٧٤

فان تقبلوا بالود نقبل بمثله ونبزلكم منا بأقرب منزل

فتقاطعا فى بيتين وتواصلا فى بيتين وما شعر بهما أحد ! .

وقال[١] مروان بن أبى حفصة : لقينى الناطفيّ فدعانى إلى عِنان[٢] فانطلقت معه ، فدخل إليها قبلى ، فقال : جئتك بأشعر الناس مروان بن أبى حفصة ، فوجدها عليلة ، فقالت : إنى عن مروان لفى شغل فأهوى إليها بسوط ، فضربها ، وقال لى : أدخل . فدخلت وهى تبكى ، فرأيت الدموع تنحدر من عينيها ، فقلت :

بكت عنانُ فجرى دمعها كالدُّر إذ يسبق من خيطهِ

فقالت مسرعة :

فليت من يضربها ظالماً تيبس يمناه على سوطه

قال مروان : فقلت أعتق ما أملك إن كان فى الجن والإنس أشعر منها .

وقال أحمد بن معاوية : قال لى رجل : تصفحت كتباً فوجدت فيها بيتاً جهدت جهدى أن أجد من يجيزه فلم أجد . فقال لى صديق لى : عليك بعنان جارية الناطفى ، فأتيتها فأنشدتها البيت وهو :

ومازال يشكو الحب حتى رأيته تنفَّسَ من أحشائه وتكلَّما

فلم تلبث أن قالت :

ويبكى فأبكى رحمةً لبكائه إذا مابكى دمعاً بكيتُ له دماً

وحدثنا[٣] الفضل بن العباس بن المأمون قال :

زارتنى عَريب يوماً ؛ ومعها عدة من جواريها ، فتحدثت معنا ساعة ، وسألتها أن تقيم معنا فأبت ، وقالت قد وعدت جماعة من أهل الأدب والظرف أن أصير إليهم وهم فى جزيرة المؤيد ، منهم ابراهيم بن المدبر ، وسعيد بن حميد ، ويحيى بن عيسى ،

---

(١) نهاية الأرب ج ٥ ص ٧٨ (٢) جارية الناطفى من مولدات اليمامة .

(٣) الأغانى طبعة قديمة ج ١٩ ص ١٢١

فخلفت عليها فأقامت ودعت بدواة وقرطاس ، وكتبت إليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم . أردت ، ولولا ، ولعلى .

ووجهت الرقعة إليهم فلما وصلت قرءوها ، وأخذها إبراهيم بن المدبر وكتب : تحت أردت : ليت . وتحت لولا : ماذا . وتحت لعلى : أرجو . ووجه بالرقعة إليها . فلما قرأتها طربت . وقالت : أنا أترك هؤلاء ، وأقعد عندكم . ومضت إلى مجلس أهــل الأدب .

لعل القارىء لا يكون فى حيرة من جواب عريب ، ورد إبراهيم بن المدبر أما هى فتعنى : أردت الحضور . ولولا ما شغلنى لتحقق عزمى ، ولعلى أراكم بعد قليل . وكان رده عليها . ليت ما أردت تحقق، وماذا شغلك ؟ وأرجو أن تحضرى بعد قليل.

وحدثنا عَمْرو بن بَانة[1] قال :

كان فى جوارى رجل من البرامكة ، وكانت له جارية شاعرة ظريفة ، يقال لها « حسناء » ، يدخل إليها الشعراء ، ويسألونها عن المعانى ، فتأتى بكل مستحسن من الجواب ، فدخل إليها سعيد بن وهب يوماً ، وحادثها طويلا ثم قال لها :

حاجَيْتُكِ يا حَسنــاء ... فى جِنْسٍ من الشعر
وفيها طــوله شِــبْرٌ ... وقد يُوفِى على الشِّــبرِ
له فى رأســه شــقٌّ ... نَطوفٌ[2] بالندى يجرى
إذا ما جفَّ لم يجــر ... لــدى برٍّ ولا بحــر
وإن بُــلَّ أتى بالعــجب العاجب والسِّحر
أجيبى لم أُرِدْ فُحْشًــا ... وربِّ الشفع والوتــر
ولكن صُغت أبياتا ... لها حظٌّ من الزَّجْرِ

قال : فغضب مولاها . وتغيّر لونه . وقال :

---

(١) عصر المأمون ح ٢ ص ٤٠٩ (٢) يقال ليلة نطوف : أى ماطرة تمطر حتى الصباح

أتفحش على جاريتى ، تخاطبها بالخنى ؟ .

فقالت له : خفّض عليك ، فما ذهب إلى ما ظننت ، و إنما يعنى القلم . فسُرّ عنه ، ونحاك سعيد ، وقال : هى أعلم منك بما سمعت .

كان من الطبعى إذن وقد كثر هؤلاء الجوارى الحسان ، وكن على جانب من المعرفة ، والأدب ، والفطنة ، وسرعة الخاطر ، وكن أيضاً مع هذا كله — وكله يغرى و يغوى — على حظ من حسن الصوت ، فأصبحت لهن ، أو لكثير منهن ميزة أخرى ، زادتهن فى أعين الناس فتنة ، وروعة هى الغناء . وما أقر به إلى نفوس العرب !، وما أحبه إلى الحس المرهف ، والقلب الطروب !

كان من الطبعى أن نجد شعر الغزل من هؤلاء الجوارى زاداً ، و إذا كان الشعر صورة للعصر الذى يعيش فيه . كان من هذه الصورة أن وصف لنا الشعر جمال هؤلاء ، ووصف فتنتهن ، وزينتهن ، ووصف حديثهن ، وكان من هذه الصورة أن حمل إلينا الشعر العربى ، وصفاً للقلوب التى أشربت حب هؤلاء الجوارى ، وللأفئدة التى خفقت بهواهن ، وغرامهن ، وكيف أن هؤلاء الجوارى سحرن كثيراً من ذوى العواطف الملتهبة ، وجذبن إلى نفوسهن كثيراً من ذوى الإحساس المرهف . وكان لا بد لنا أن نقرأ فى الشعر العربى صوراً من هذا كله .

إذن تغزل الشعراء فى الجوارى وفاض شعر الغزل بوصفهن ، وأخبارهن . وهانحن أولاء نقرأ من هذا فى الشعر العربى صوراً جميلة رائعة ، فيها قوة ، وفيها حسن ، وفيها إتقان ، فنحمد لهؤلاء الجوارى ما أسدين إلى الأدب من ثروة ، ومن زاد . وكان من الحق أن نعتبر هؤلاء الجوارى وكثرتهن ، وانتشار نفوذهن ، على الصورة التى نراها سبباً من أسباب الغزل ، وعاملا من عوامله .

و إنى ذاكر لك بعض أمثلة من شعر الغزل فى هؤلاء الجوارى . وفى الباب الخامس — تطور الغزل — بقية من هذه الأمثلة .

كان الرشيد يهوى ثلاث جوار ، ويقول الشعر فيهن ، وهن سِحْر ، وضياء ، وخنث ، وفيهن يقول :

أخذت سحر ولا ذنب لها ثلثى قلبى وتربâها الثلث

ويقول مطيع بن إياس فى جارية اسمها — ريم — كان يهواها :

يا رِيمُ يا فاتاتى إنْ لم تجودى فعِدِى
بيَّضتِ بالمَطْل وإخْلا فِك وعدى كَبِدى
حالفت عينى سهدى وما بها من رمدى

ويقول حَمّاد عَجْرَد فى جارية اسمها « جَوْهَر » :

إنى لأهوى جوهرا ويحب قلبى قلبَها
وأحب مِنْ حُبِّى لها مَنْ ودَّها وأَحَبَّها
وأحِبُّ جاريةً لها تُخْفِى وتَكْتُمُ ذَنبَها

وكان على بن آدم بالكوفة يهوى جارية ، علقها وهى صبية تختلف إلى الكتّاب فكان يجىء إلى ذلك المؤدب فيجلس عنده لينظر إليها ، فلما أن بلغت باعها مواليها فجزع على ذلك جزعاً شديداً ، وقال :

صاحوا الرحيل وحثَّنى صحبى قالوا الرّواح وطيَّروا لُبِّى
واشتقت شوقاً كاد يقتلنى والنَّفسُ مشرفة على نَحْب
لم يَلْقَ عند البين ذو كَلَف يوماً كما لاقيت من كرب
لا صبرَ لى عند الفراق على فقد الحبيب ولوعة الحب

ولأبى الشِّيص الشاعر جارية سوداء ، تعشقها ، وفيها يقول :

يا أبنةَ عم المسك الذكى ومَنْ لولاك لم يُتخذ ولم يطب
ناسبكِ المسكُ فى الرِّداء وفى الر يح فأكْرِمْ بِذاكَ من نسب

وأبو عُيَيْنَة الشاعر يهوى جارية ، يقال لها « أَمَان » طلب فيها مولاها ثمناً كبيراً ، وفيها يقول :

قلت لما رأيت مولى أمان   قد طغى سَوْمه بها طغيانا
لا جزى الله الموصلىّ أبا   إسحاق عنا خيراً ولا إحسانا
جاءنا مرسلا بوحى من الشيطان   أغلى به علينا القيانا
من غناء كأنه سَكَرات الحب   يُصْبِى القلوب والآذانا

ويقول أبو نواس فى « جنان » الجارية ، وقد كلِفَ بها كلفاً شديداً :

جَنان إن جُدْتِ يا مُناى بما   آمُلُ لم تَقْطُرِ السماء دما
وإن تمادى ولا تماديت فى   منعك أصبح بقَفْرَة رِمَما
عَلِقْتُ من لو أتى على أنفس الماضين والغابرين ما ندما
لو نظرت عَيْنُه إلى حَجَرٍ   ولّد فيه فتورُها سَقَمَا

وأحب بشار جارية يقال لها « فاطمة » سمعها تغنى فطرب من غنائها وفى ذلك يقول :

درةٌ بحريةٌ مكنونة   مازها التاجر من بين الدُّرَرْ
عجبَتْ فَطْمَةُ من نعتى لها   هل يجيدُ النعتَ مكفوفُ البصر

ج — الغناء :

يقول ابن خلدون فى صناعة الغناء « هى تلحين الأشعار الموزونة ، بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة ، يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة ، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب ، وما يحدث عنه من الكيفية فى تلك الأصوات » .

وإذا عرفت بجانب هذا ما طبع عليه العربى منذ نشأته من حب الشعر والشغف به ، والسبق فى مضماره وطبيعة البيئة التى تحيط به ، من شمس مشرقة ، وسماء صافية

وصحراء فسيحة الآماد . وأنه صافى الذهن ، ناعم البال ، يبتسم للحياة ويطرب لها ، ويتغنى بما وهب الله فيها من نعم ، وخيرات ، وجمال .

إذا عرفت هذا كله أدركت لم شغف العربى بالغناء ، ولم انتشر الغناء بين العرب وكانت له فى نفوسهم هذه المكانة الرفيعة تزدان به مجالسهم ، ويستهوى ألبابهم وأفئدتهم ، لا فرق فى ذلك بين السوقة والخاصة . ولا فرق أن يكون العربى فى حفل أو مجلس ، أو يخلو إلى نفسه ، فيذكر هواها ، وإذا هو يتغنى ببضعة أبيات من الشعر يلائم حاله ، وتوافق حنينه أو أنينه ، فيجد فى ذلك لذته ومتعته ، ويرى فى ذلك فرحته وبسمته .

وإنك لتجد فى كتب الأدب كثيراً من الأمثلة ، ومن الأخبار التى نفصح لك عن حب العربى للغناء ، وطربه به . إشباعا لرقة عاطفته ، وحساسيته ، وإشباعا لشاعريته . وما يحمله هذا الشعر من روعة فى اللفظ والمعنى .

يقول عبد الله بن جعفر :

إن لى عند السماع هزة ، لو سئلت عندها لأعطيت ، ولو قاتلت لأبليت .

وقالوا :

خرج[1] عبد الله بن جعفر متنزهاً ، فصادف ابن سريج ، وعزة الميلاء متنزهين فأناخ ابن جعفر راحلته ، وقال لعزة : غنينى ، ثم قال لابن سريج : غنى يا أبا يحيى ، فغنـــاه .

فطرب عبد الله وأمر براحلته فنحرت ، وشق حلته فألقى نصفها على عزة ، والنصف الآخر على ابن سريج .

فباع ابن سريج النصف الذى صار إليه بمائة وخمسين ديناراً . وكانت عزة إذا جلست فى يوم زينة أو مباهاة ألقت النصف الآخر عليها تتجمل به .

(١) الأغانى ج ٦ ص ٢٠٢

وكان عبد الله بن جعفر ، وابن أبى عتيق ، وعمر بن أبى ربيعة يغشون منزل عزة الميلاء ، فتغنيهم ، وغنت يوماً عمر بن أبى ربيعة لحناً لها فى شيء من شعره ، فشق ثيابه ، وصاح صيحة عظيمة صعق معها ، فلما أفاق قال له القوم : لغيرك الجهل يا أبا الخطاب . قال :

إنى سمعت والله ما لم أملك معه نفسى ولا عقلى .

وكان من عادة عمر بن أبى ربيعة ، وابن سريج أن يخرجا فى موسم الحج يتلقيان الحاج . خرجا ذات يوم ؛ وكان أن أظلم عليهما الليل ؛ فعدلا إلى كثيب ؛ والقمر طالع يضيء . فغنى ابن سريج من شعر عمر .

وما كاد ابن سريج يستتم الغناء حتى طلع رجل يركب فرساً عتيقاً ؛ أعجبه الصوت ! فمال إلى صوبه . قال الرجل لابن سريج : أيمكنك — أعزك الله — أن تردّ هذا الصوت ؟ فأعاده ابن سريج ، قال الرجل : بالله أنت ابن سريج ؟ قال نعم . قال : حياك الله ! وهذا عمر بن أبى ربيعة ؟ قال نعم . قال : حياك الله يا أباالخطاب . فقال له : وأنت فحياك الله . قد عرفتنا فعرّفنا نفسك . قال : لا يمكننى ذلك . فغضب ابن سريج وقال : والله لو كنت يزيد بن عبد الملك لما زاد . قال له : أنا يزيد بن عبدالملك . فوثب إليه عمر فأعظمه ؛ ونزل ابن سريج إليه فقبل ركابه . ونزع يزيد حلته وخاتمه ؛ ودفعهما إلى ابن سريج .

وذات يوم وقف ابن سريج عند بستان فى طريق الحج . وأخذ يغنى :

لمن نار بأعلى الخيف[1] دونَ البئرِ ما تخبو
أرقتُ لذكر موقعها تحنّ لذكرها القلب

وما أن سمع الحاج هذا الصوت حتى أقبلوا عليه ، وتزاحموا . ورأى هذه الحال رجل آخر ، وخاف أن ينصرف الحاج عن إتمام مناسك الحج ، فقال : يا هذا قد

---

(١) اسم موضع والخيف ما انحدر عن غلظ الجبل ، وارتفع عن سيل الوادى .

قطعت على الحاج وحبستهم ، والوقت قد ضاق ، فاتق الله وقم عنهم ، وكان أن قام ، فسار الناس .

وكان[1] أحمد بن أبي داود يعيب الغناء ، و يطعن على أهله ، ودعاه المعتصم يوما ، وكان معه إبراهيم بن المهدى ، فغنى — على إحدى الروايات :

طَرَقَتْكَ زائرةً فحيِّ خَيالَهَا بيضاءُ تخلِطُ بالحياءِ دلالَها

هل تَطمِسُون من السماءِ نجومَها بأكُفِّكم أو تَستُرون هلالَها

وطرب ابن أبى داود بهذا الغناء ، وشغله هذا الطرب عن كل شيء ، حتى سقط من يده سوطه . فطلب من غلام له سوطه ، فقال له : قد والله سقط سوطى . قال أحمد : فأى شيء كان سبب سقوطه ؟ . فقال الغلام : صوت سمعته شغلنى عن كل شيء ، فسقط سوطى من يدى . قال أحمد : فإذا قصته قصتى ! .

هذا جانب من طرب الخاصة بالغناء . وأسوق لك هذين الحادثين لطرب السوقة بالغناء .

شخص معبدٌ المغنى إلى مكة . وفى طريقه اشتد به الحر والعطش . وصادفه خباء فيه عبد : فمال إليه وقال : يا هذا اسقنى من هذا الماء . فقال : لا . فقلت : فأذن لى فى الكِنِّ ساعة ، قال : لا . فأنخت ناقتى ، ولجأت إلى ظلها فاستترت به وأخذت أغنى .

وما سمع العبد الغناء حتى احتمل معبداً وأدخله خباءه . ثم قال : أى بأبى أنت وأمى . هل لك فى سَوِيق السُّلْت[2] بهذا الماء البارد ؟ . فقلت : قد منعتنى أقل من ذلك وشربة ماء تجزئنى . قال : فسقانى حتى رويت . فلما أردت الرحلة ، قال أى بأبى أنت وأمى ! الحر شديد ، ولا آمن عليك مثل ما أصابك . فأذن لى أن أحمل معك قربة من ماء على عنقى وأسعى بها معك ، فكلما عطشت سقيتك صحنا ، وغنيتنى صوتاً . قال :

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص١٠٦ (٢) شعير لا قشر له ، يتبردون بسويقه فى الصيف .

قلت : ذاك لك فوالله ما فارقني اسقيني وأغنيه ، حتى بلغت المنزل .

وكان اسماعيل بن الهربذ مملوكا لرجل من ولد الزبير ، فدفع إليه درهمين ، يبتاع له بهما لحما . فلقي جارية على رأسها جرة تغنى لحناً ، فسألها أن تعلمه إياه فأبت إلا أن يعطيها درهمين ، فأعطاها ، ورجع إلى مولاه بغير لحم ، فضربه ضربا شديداً ، فأنسى اللحن . و بعد أيام دفع له درهمين آخرين يبتاع بهما لحماً ولقيته الجارية ، فسألها أن تعيد الصوت . فأبت إلا بدرهمين . فدفعهما إليها . وغنته الصوت ، وأعادته حتى أخذه . ورجع إلى مولاه ولا لحم معه . فسأله : ما القصة فى هذين الدرهمين ؟ ، وحدثه إسماعيل بالخبر ، وغناه الصوت . فقبل بين عينيه ، وأعتقه .

و إذا كانت هذه حال الغناء . يطرب له العرب ، وتهتز له قلوب الجميع ، و يصل بهم الإعجاب إلى الرقص ، أو إلى حال أخرى تدل على شيء من الخفة والطيش . إذا كانت هذه هى الحال فإنه ليس بغريب علينا أن نقرأ أخباراً كثيرة تدل على ما كان للمغنين والمغنيات من مكان كريم فى نفوس الناس جميعاً ، ملوكهم ، وأمرائهم ، وحكامهم ، وجمهرتهم . يكرمونهم ، ويقدرونهم ، ويجزلون لهم العطاء . القول ما يقولون ، والرأى ما يرون . و يكفى أن يكون أحدهم مجفوا من خليفة أو ملك ، فإذا غنى فى حضرة هذا الخليفة ، أو هذا الملك حصل العفو ، بل حصل الرضا .

كانت دنانير جارية ليحيى بن خالد البرمكى ، وسمع الرشيد صوتها ، وأعجب بها ، واشتد عجبه ، فوهب لها هبات سنية ، ووهب لها فى ليلة عيد عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار . وعاتبه فى ذلك عمومته ، فقال لهم : ما لى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها ، وإنما أربى فى غنائها . فاسمعوها فإن استحقت أن يؤلف غناؤها وإلا فقولوا ما شئتم . ولما سمعوها عذروه ، ولم يقولوا شيئاً .

ودخل[1] اسماعيل بن الهربذ على الرشيدى ، وغنّاه هذه الأبيات :

(١) الأغانى ح ٧ ص ١٠٤

يا راكب العيس التى وفدت من البلد الحرام
قل للإمام ابن الإمام أخى الإمام أبى الإمام
زين البرية إذ بدا فيهم كمصباح الظلام

قالوا : وكاد الرشيدى يرقص، واستخفه الطرب حتى ضرب بيديه ورجليه، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

وكان يزيد بن عبد الملك مشغوفا بحبابة المغنية . وتبنى بها عمر بن هبيرة فعلت منزلته ، حتى كان يدخل على يزيد فى أى وقت شاء . وما زالت حبابة تدنيه من يزيد ، حتى أصبح والياً على بلاد العراق .

وحج سليمان بن عبد الملك . وأقام مباراة بين المغنين ، ومن فاز أعطاه بَدْرة [1] وغناه ابن سريج هذه الأبيات وهى لعروة بن أذينة :

سرى همى وهم المرء يَسرى وغاب النجم إلاّ قِيسَ [2] فِتر [3]
أراقب فى المجرة [4] كل نجم تعرّض للمجرة كيف يجرى
لهمٍّ لا أزال له مديماً كأن القلب أسعِر حرّ جمر
على بكرٍ أخى ولّى حميدا وأىُّ العيش يصفو بعد بَكر

فأمر سليمان بدفع البَدْرَة إليه .

وغضب [5] الرشيد على إبراهيم الموصلى . فحبسه مدة . ثم اصطبح يوماً ، فبينما هو على حاله إذ تذكره . فقال : لو كان الموصلى حاضراً لانتظم أمرنا وتم سرورنا . قالوا يا أمير المؤمنين . تجىء به ، فما له ذنب كبير . فجىء به ، ولما دخل أطرق الرشيد . فلم ينظر إليه . وأومأ له من حضر أن يغنى ، فغنى ، فما تمالك الرشيد أن حرك رأسه مراراً ، واهتز طربا ، ثم نظر إليه . وقال : أحسنت والله يا إبراهيم . حلوا قيوده ، وغطوه

(١) البدرة : كيس فيه عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار (٢) قدر .
(٣) ما بين طرف الإبهام وطرف المشيرة (٤) نجوم فى السماء (٥) الأغانى ج٦ ص ٢٠٥

بالخلع . ففعل ذلك . فقال : يا سيدى رضاك أولا . قال : لو لم أرض ما فعلت هذا . وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وكان عثمان بن حيّان[1] واليا على المدينة . وأشار عليه قوم من وجوه الناس أن يصلح حالها من الفساد ، وأن يطهرها من الغناء والزنا ، فأعلن الناس بذلك . وأمهلهم ثلاثة أيام . وكان ابن أبى عتيق غائباً ، وقدم فى الليلة الأخيرة ، ودخل على سلاّمة القسّ . فسلّم عليها . وأعلمته الخبر ، وكان أن قابل عثمان بن حيان ، وتحدث معه فى أساوب لبق ، حتى أذن لسلاّمة بالمثول بين يديه . وكانت تحمل سُبحة ، وتظهر شيئاً من الخشوع . وكان أن حادثته ، وظهر من الحديث علمها ، وذكاؤها ، وقال لها ابن أبى عتيق . إقرئى للأمير ، فقرأت . فقال لها إحدى ، ففعلت . فكثر تعجب الأمير . فقال ابن أبى عتيق . كيف لو سمعتها فى صناعتها ! . فغنت .

سددن خصاص[2] الخيْم لما دخلنه   بكل لبانٍ[3] واضح وجبين

فقام عثمان من مجلسه ، وقعد بين يديها . ثم قال :

لا والله ما مثل هذه تخرج ! . قال ابن أبى عتيق :

لا يدعك الناس يقولون : أقر سلاّمة ، وأخرج غيرها . قال : فدعوهم جميعاً . وكان أن تركوهم جميعاً .

ولعلنا لسنا فى حاجة إلى بيان أن الغناء مظهر من مظاهر الترف والرخاء . وأنه يزدهر و ينتشر إذا كانت الأمة فى ظلال الدعة والقوة ، والسلام . و يذبل و يتضاءل إذا تقوض بناء الأمة . وضعفت أسباب المنعة والسيادة .

وكذلك الإنسان يحب الغناء ، و يميل إليه إذا كان فى رغد من العيش وفى نضارة من الشباب . وفى فُسحة من الآمال . أما إذا فدحته الخطوب ، ونكبته الأيام ،

(١) الأغانى ج ٨ ص ٣٤٢   (٢) الخصاص : الخروق .

(٣) اللبان . الصدر

فأصبح يرى فى نور الحياة ظلاما ، وفى بسمة الوجود كدراً وعبوساً ، فإن مثل هـذا لا يصل الغناء إلى قلبه ، و إذا وصل فإنه لا يتفتح له ، ولا يجد فيه اللذة والمتعة .

ويقول ابن خلدون :

و إذ قد ذكرنا معنى الغنـاء فاعلم أنه يحدث فى العمران إذا توافر ، وتجاوز حد الضرورى إلى الحاجى ، ثم إلى الكمالى ، وتفننوا فيه . فتحدث هذه الصناعة ، لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش ، والمـنزل ، وغيره . فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفننا فى مذاهب الملذوذات .

وهذا القول ينطبق تماماً على العرب وهم فى العصر الأموى ، وفى العصر العباسى .

أما فى العصر الأموى فقد كان عرب الحجاز على جانب من الثراء ، والدعة ورغد العيش ، ولهذا ذاع بينهم الغناء ، كما ذاع الغزل ، وسنبين ذلك .

وكانت الدولة قد استتب لها الملك ، وعاد إليها من فتوحاتها ، شيء كثير من القوة ، والرخاء ، وجنى ثماره .

وزادت هـذه الأسباب فى العصر العباسى ، كما زاد اختـلاط العرب بالفرس ، وكان لهؤلاء أثرهم فى انتشار الغناء ، وفى تقدمه ، ورواجه .

أما فى العصر الجاهلى فقـد كان غناء . لأن العربى فى هذا العصر و إن لم يبلغ ما بلغه فى العصر الأموى والعباسى من الرخاء والأمن ، وجاه الملك ، واختلاطه بأمم أخرى ، ولـكنه مع ذلك قانع بعيشه ، لا يجـد فى الحصول على قوته عنـاء ، يحبس نفسه ، و يكدر صفاءه . وتراه لهـــذا غرداً طروباً . وكان حداء الإبل ، وهو نوع من الغناء . وكان النواح ، وهو قريب من الغناء ، أو هو ناحيته الـكدراء العابسة .

إذن كان الغناء منذ العصر الجـاهلى ، ولـكنه ليس على غرار ما نرى فى العصر الأموى ، والعباسى فى كثير من النواحى .

ويخيل إلى أن بين الغزل والغناء آصرة تجعلهما متلازمين ، كأنهما نوع واحد ،

أو نوعان ، يغذى أحدهما الآخر ، ويكون عونا له وبدأ .

فالغناء يجد مادته فى شعر الغزل ، والغناء يكون حلوا جميلا إذا كان الصوت عذبا ، وإذا كان اللفظ حيا ، والمعنى رائعا ، وكان صاحب الغناء جميلا جذابا .

قال ثمامة بن أشرس :

كنت عند المأمون يوما فاستأذن الغلام لعمير . وكرهت ذلك . ورأى المأمون الكراهية فى وجهى . فقال : يا ثمامة ما بك ؟ . فقلت يا أمير المؤمنين إذا غنى عمير ذكر مواطن الإبل ، وكثبان الرمل ، وإذا غنتنا فلانة ؛ انبسط أملى ؛ وقوى جذلى . وانشرح صدرى ، وذكرت الجنان والولدان . لم بين أن تغنيك جارية غادة ؛ كأنها غصن بان ؛ ترنو بمقلة وسنان . كأنما خلقت من ياقوتة . أو خرطت من فضة ؛ بشعر عكاشة القينى ؛ حيث يقول :

من كف جارية كأن بنانها ... من فضة قد طوقت عنابا[1]

فكأن يمناها إذا ضربت بها ... ألقت على الكف الشمال حسابا

وبين أن يغنيك رجل كث اللحية ؛ غليظ الأصابع ، خشن الكف ؛ بشعر ورقاء ابن زهير حيث يقول :

رأيت زهيرا تحت كلكل خالد ... فأقبلت أسعى كالعجول أبادره

وبين أن يحضرك ما تشتهى النظر إليه ؛ ومن لا يقف طرفك عليه ؟ فتبسم المأمون ، وقال : الفرق بينهما واضح ؛ والمنهج فسيح . يا غلام لا تأذن له . وأحضر أطيب قيانه فظللنا فى أمتع يوم .

وفى هذا المعنى يقول أبو بكر الصولى :

وغناء أرق من دمعة الصب ... وشكوى المتيم المهجور

شغل المرء ، منظر ، ثم نطق ... فهو يصغى بظاهر وضمير

(١) العناب : شجر حبه كحب الزيتون أحمر حلو .

كل هذه الأسباب تجدها ظاهرة فى الغزل ، ففى شعره أكثر الألفاظ حياة ، وأكثر المعانى روعة ؛ ولذلك غنى المغنون ؛ وغنت المغنيات بشعر الغزل ؛ وقل أن نجد غناء فى غير شعر الغزل . وطبعى أن يكون ذلك فالغناء بهجة ، وطرب ، ومتعة ، والغزل بهجة وطرب ومتعة؛ فلابد أن يجد الغناء من شعر الغزل مايجعله أكثر بهجة وطرباً ومتعة .

ولهذا كان الغناء فى باب الغزل دون سائر أبواب الشعر . إذ أنه ليس فى أبواب الشعر الأخرى مجال من البهجة والطرب والمتعة . وأى طرب أو متعة نجدها فى الرثاء والزهد والهجاء ، والوصف والفخر ، والمدح ؟ . وإن كان هناك غناء فى باب المدح فهو غناء يقصد به القربى إلى الممدوح ، وهو فى العادة يكون ملكا أو أميراً ، أو حاكماً ، فإذا سمع من يغنى بمدحه أجزل له العطاء ، ومد له فى البذل . وإن كان هناك غناء فى الفخر فهو غناء يقصد به حفز الهمم وبعث العزائم، والإشادة بفضل الآباء والأجداد ، حتى يجد فيهم الأبناء والأحفاد القدوة الصالحة . وهذا الغناء تحتاج إليه الأمم فى دائرة ضيقة محدودة ، ولعلك ترى أن الغناء فى باب المدح والفخر وإن كان قليلا يسيراً . ولكنه لا يكون باعثاً إلى المتعة والطرب كما يكون الغناء فى شعر الغزل .

وقد يكون من أسباب ذلك : أن فى الغزل خفة ونشوة ، تصل إلى الأسماع فترق لها وتطرب . وفى الغزل حياة حلوة جميلة ، تعيش فيها . قلوب المحبين ، وهى غردة مبتهجة ، ومن ذا الذى لا تروقه تلك الحياة ؟ وفى الغزل ذكريات ، يصف فيها الشعراء حال المحبين . وقد يجد الناس فيها صوراً من حياتهم التى نعموا فيها بظلال الحب . فهم يطربون ويسعدون لأن هذه الحال توافق حالهم ، ولأن هذا الشعور صورة من شعورهم ، وكأن الشاعر عناهم بقوله ، وكأن المغنى راح يغنيهم بما فى هوى نفوسهم ، وإذا فات فريق من الناس أن ينعموا بظلال الحب فإنهم حين يسمعون شعره ، وحين يسمعون غناء فى هذا الشعر ، يبتهجون ولو على الأقل أكثر من ابتهاجهم فى أى غناء

من أى باب من أبواب الشعر الأخرى .

خرج الوليد بن يزيد إلى الصيد ، ومعه يزيد بن ضبّه الشاعر ، وأصاب الوليد فى يومه صيداً حسناً ، وطلب من يزيد أن يصف فرسه ، وصيد اليوم ، فقال فى ذلك قصيدة طويلة ، لم يبدأها بالنسيب ، فقال له الوليد : أحسنت يا يزيد الوصف ، وأجدته ، فاجعل لقصيدتك تشبيباً ، وأعطه الغَزَلَ وعَمَرَ الوَادِى حتى يغنيا .

فقال :

إلى هنـد صبـا قلبى ... وهنـدٌ مثلها يُصْبِى

وهنـدٌ غـادةٌ غيـدا ... ء من[1] خُرْنُوْمةٍ غُلْب

وما أن وجد النـاسُ ... من الأدواء كالحب

لقد لجّ بهـا الإعرا ... ض والهجـر بلا ذنب

ولما أقض من هنـدٍ ... ومن جاراتهـا نَحْبى[2]

إلى أبيات أخرى ، دفعها إلى المغنين ، فغنوه بها .

وقد قلنا : إن الغناء فى غير الغزل قليل ، وذكرنا فيما سبق بعض الأمثلة ، ومن هذا أيضاً أن غنّى سُلَيْم بن سلاّم قول محمد اليزيدى فى مدح الخليفة :

أبيتك عائذاً بك منـــك لمــا ضاقت الحيل

وحيّرنى هواك وبى ... لحينى يُضرب المثـل

وإن سلمت لـكم نفسى ... فما لاقيتـهُ جـلل

وإن قتـل الهوى رجلا ... فإنى ذلك الرجـل

ومات يزيد بن الملك ، ورثت سلاّمة القسّ فى موته ، فبكته بهذه الأبيات ، وغنتها ، فكان الرثاء مبكيا ، كما كان الغناء موجعا .

(١) من أصل كريم (٢) حاجتى .

لا تلمنا إن خَشَعنا	أو همنا بخشوع
إن فقدنا سيداً كا	ن لنا غير مضيع
وهو كالليث إذا ما	عُدَّ أصحاب الدروع
يقنص الأبطال ضرباً	فى مُضِيّ ورجوع

وفعل مثل ذلك إسحاق الموصلى حين مات الرشيد ، فغنى بهذه الأبيات :

قد لعمرى بت ليلى	كأخى الداء الوجيع
ونجىّ الهم منى	بات أدنى من ضلوعى
كلما أبصرت ربعاً	دارسا فاضت دموعى
مقفراً من سيد كا	ن لنا غير مُضيع

* * *

ورأينا فى كتب الأدب أن كثيراً من الملوك والخلفاء تكون لهم حال من الحب مع إحدى النساء ، و يطلبون من الشاعر أن يصف هذه الحال ، ثم يطلبون من يغنيها وهم فى مجلس من مجالس اللهو والطرب ، فيكون هذا حلواً جميلا .

ورأينا كذلك أن الصوت الجميل ، وأن المغنية إذا كانت حلوة وسيمة أثارت فى نفوس الشعراء عاطفة ، تدفعهم إلى أن يقولوا فيها الشعر ، يصفون حسنها وروعتها : حسن الجمال وروعة الفن فى الغناء .

و يحلو المغنية وقد حمل الشعر وصفها وحسنها وسيرتها أن تبدع ما شاء لها الإبداع والإتقان فى أن تغنى هذا الشعر على أحسن صورة من النغم ، والجرس .

ورأينا أن كان بعض المغنيات يرجون بعض الشعراء فى أن يقولوا فيهن قولا رقيقاً ، وطبعى أن يكون لهن فى هـذا الغزل مادة لغنائهن ، والغناء قريب إلى النفوس ، قربها إلى ما يشوق العاطفة من فرح وطرب ، و يهز القلب من أنس وسرور ، ولذا ترى الناس جميعاً — ما بعدت عنهم مكاره الحياة — يستمعون إلى الغناء ،

ويرددون النغم الحلو الجميل حين يحلون إلى نفوسهم ، وحين يهتز بهم الإحساس إلى مظاهر البهجه والغبطة . وقد قلنا إن بين الغناء وشعر الغزل آصرة قوية ، وإن الغناء يجد فى شعر الغزل زاده ومده ، لهذا كان من الطبيعى أن نتأثر بما يحمله إلينا الغناء من شعر الغزل ، نتأثر به فى كل نواحيه . نعجب بألفاظه ومعانيه ، ونتذاكر أحوال المحبين ، ونتدارس تاريخهم ، ونعرض أمامنا صفحات من أعمال الهوى ، ونتصور ما فيها من حلاوة أو مرارة ، ونقف حول ذلك مواقف من الإعجاب ، والتحليل ، ومواقف من النقد والدرس ، ونحاول أن نجد لها فى نفوسنا ما يوافقها ، حتى تكون أكثر روعة وجمالا ، أو لعلها فى الحق والواقع تمثل حالا من أحوالنا ، فتكون حينذاك حلوة ، كأنها قيلت وصفاً لحالنا ، وكم تشوق النفس كل مايتصل بها ! .

وكانت سلاّمة القس عذبة الصوت ، كما كانت فاتنة الحسن والجمال ، وأثار هذا فى نفس القسّ الإعجاب بها ، بل والهيام بها ، فمدحها بشعره ؟ وسألها أن تغنيه ففعلت :

ما بال قلبك لا يزال يُهيمه ... ذِكَرٌ عواقب غيّهن سَقام
إن التى طرقتك بين ركائب ... تمشى بمزهرها [1] وأنت حرام
لتصيد قلبك أو جزاء مودة ... إن الرفيق له عليك ذِمام

ومدحها الأحوص بهذه الأبيات فغنتها :

سلاّم هل لمتيّم تنويل ... أم قد صرمت وغال ودّك غول
لا تصرمى عنى ولاءك إنه ... حسن لدىّ وإن بخلت جميل
أزعمت أن مودتى وصبابتى ... كذب وأن زيارتى تقليل

وقلّ أن تجد مغنية لم تجد من الشعراء من تغزل بها ، ووصف فى شعره حسنها فى الصوت ، وحسنها فى البدن ، وحسنها فى غير هذين .

يقول عبد الرحمن بن أرطاة فى جميلة — مولاة بنى سليم — وقد تزوجت من موالى ابن الحارث بن الخزرج :

---

(١) المزهر : آلة الطرب المعروفة بالعود .

إن الدلال وحسن الغنـــا ء وسْـــط بيوت بنى الخزرج

وتلكم جميـــلة زين النسـاء إذا هى تزدان للمَخْـــرَج

إذا جئْـــتَها بذلتْ ودها بوجـه منـــــير لهـا أبلجِ

وكانت متيّم الهشامية لا تخرج إلا متنقّبة ، وقدمت يوماً إلى ابن عبيـد الله بن الحسين العنبرى القاضى ، فاحتاج إلى أن يشهد عليها ، فأمرها أن تَسْفر ، ففعلت فقيل لعبد الصمد بن المُعَذّل — وكان يهواها — لو رأيت متيّم وقد أسفرها القاضى لرأيت شيئاً عجيباً ! فقال :

ولما سرت عنها القناع متيمٌ تروح منها العَنـــبرى متيما

رأى ابنُ عُبيد الله وهو محكَم عليها لها طرفا عليه محـــكما

وكان قديماً كالح الوجه عابساً فلما رأى منها السفور تبسما

فإن يصب قلب العنبرى فقبله صبا باليتامى قلب يحيى بن أكثما

وقال[١] هارون بن محمد عبد الملك — ابن ذى الزوائد — فى بَصبص جارية ابن نفيس :

بصبص أنت الشمسُ مزدانة فإن تبـدّلت فأنت الهلال

سبحانك اللهم ما هكـذا فيما مضى كان يكون الجمال

إذا دعت بالعود فى مَشهد وعاونتْ يمنى يديها الشّمال

غنت غناء يستفز الفتى حـ ذقاً وزان الحذقَ منها الدلال

وقال[٢] العباس بن الأحنف فى عِنان جارية الناطفى :

لـو تجودين لصبٍّ راح ذا وجْـد شـديد

وأخى جهـل بما قـد كان يجـنى بالصـدود

ليس من أحْدث هجرا لصـديق بســـديد

---

(١) نهاية الأرب ج ٥ ص ٧٣ (٢) نهاية الأرب ج٥ ص ٨٠

ليس منه الموت إن لم تصليه ببعيـــد

وقال إبراهيم الموصلي في ذات الخال شعراً كثيراً ، غنى فيه ، منه :

أذاتَ الخال قد طال بمن أسقمته الوجعُ
وليس إلى سواكم في الّـ ـذي يلقى له فزع
أما يمنعك الإسـلا م من قتلي ولا الورَع
وما ينفعك لي فيك هوى تغترّه خدَعُ

ويقـول :

جزى الله خيراً من كلفت بحبه وليس به إلا التموّه من حبي
وقالوا قلوبُ الغانيات رفيقـةٌ فما بالُ ذاتِ الخال قاسية القلب

وقال عقيدٌ مولى صالح بن الرشيد في دنانير :

يا دنانيرُ قد تنكّر عقلي وتحيّرت بين وعد ومَطل
شَفِّعي شافعي إليكِ وإلاّ فاقتلوني إن كنت تهوين قتلي
أنا بالله والأمير وما آ مُلُ من موعد الحسين وبَذْل
ما أحب الحياة ياحِبّ إن لم يجمع الله عاجلا بكِ شملي

ويقول إبراهيم بن المدبّر في عَريب :

ألا يا عَريبُ وُقيتِ الرّدى وجنّبكِ اللهُ صَرْفَ الزمنْ
فإنك أصبحتِ زينَ النساء وواحدةَ الناس في كل فنّ
فقُربُكِ يُدني لذيذَ الحياةِ وبُعدُكِ ينفي لذيذَ الوسن[1]
فنعمَ الأنيسُ ونعمَ الجليسُ ونعم السميرُ ونعم السكَنْ

ويقول القسّ في سلاّمة :

أهابُكِ أن أقول بذلت نفسي ولو أني أطيع القلب قالا

---

(١) الوسن : فتور يتقدم النوم

حياء منك حتى سُلّ جسمي ... وشقّ علىّ كتمانى وطالا

ويقول ابن الرومى فى وحيد المغنية :

يا خليلىّ ! تيمتنى وحيدُ ... ففؤادى بها مُعَنّى عميد

غادة زانها من الغصن قدٌّ ... ومن الظبى مقلتان وجيد

وزهاها من فرعها ومن الخد ... دين ذاك السواد والتوريد

فهى برد بخدها وسلام ... وهى للعاشقين جهد جهيد

ويقول فى مظلومة :

مظلوم ما أنت بمظلومة ... فى حكم أهل الشرق والغرب

بل إنما المظلوم عبد لكم ... أصبح مقتولا بلا ذنب

هذا جانب من المغنيات . وجانب من الغزل فيهن . وهناك مغنيات أخريات . ما زَهُنّ الله بحظ من الجمال . من أمثال : عزة الميلاء . وحَبابة . ودُقاق . وقلم الصالحية وشارية . وبذْل . ومحبوبة .

وبجانب هذه الكثرة من المغنيات نرى من مشهورى المغنين أمثال :

سعيد بن مِسْجَح . مَعبَد . الغَريض . محمد بن عائشة . ابن محُرِز . ابن سُرَيْج . مالك بن أبى السَّمْح . يونس الكاتب . حُنَيْن . سياط . عُمَر الوادى . ابن جامع . يحيى ابن مرزوق . يزيد حَوراء . فُليح . ابراهيم الموصلى . اسحاق بن ابراهيم . عَلّوية . محمد بن الأشعث . عمرو بن بانه .

فهؤلاء جميعاً من مغنيات ومغنين لهم أثر كبير على الغزل ، فهم قد نشروا فى أغانيهم رقة الغزل ، وعاطفته بين القلوب ، فراحت بها مشوفة طروبة ، وكثير من هؤلاء شعراء ، وأكثر شعرهم فى الغزل ، يلحنونه ، ويبعثونه إلى الأفئدة والأسماع نغما حلواً لذيذاً ، وكثير من شعراء الغزل كان شعرهم أو طائفة منه وحيا من هؤلاء المغنين والمغنيات . ذلك أنهم أنسوا إليهم ، وطربوا إلى غنائهم ، فتسابقوا

فى أن ينظموا الشعر ، حتى يكون غناء ، يحمله الأثير إلى كل مكان، و إلى كل قلب . وإن الملوك والحكام كانت لهم أحوال وأسباب ، أكثرها فى الحب والهوى ، أرادوا أن يسجلها الشعر ، وأن ينقلها الغناء ، فكان لهم ما أرادوا ، ومنه الشىء الكثير . أما المغنيات فكان لهن فوق ذلك أثر آخر ، هو أنهن كن جميلات،فاتنات فى الحسن، فاجتمع حولهن الشعراء ، فطربوا لجمالهن ، وعذوبة غنائهن ، فاهتزت قلوبهم — وهى حساسة مرهفة — بالشعر ، وكان جميلا ، جمال المغنيات . عذبا ، عذوبة ألحانهن .

ولعل هذا كله يفسر لك أن بين الغناء والغزل صلة قوية ، تجمعهما فى رباط وثيق ، وحيث يكون الغناء يكون الغزل .

الباب الثالث

شغف العرب بالغزل

كان الغزل فى الشعر حبيباً إلى نفس العربى ، قريباً إلى هواه منذ القدم ، وما زال ينمو ويرق بنمو الزمن ورقى الحضارة ، حتى وصل إلى غايته فى العصر العباسى .

ولعله يصور لك هذا الحب قول محرز العُكلى :

يظَلّ فؤادى شاخصاً من مكانه لذكر الغوانى مُستهاما متيما

إذا قلت: مات الشوق منى، تنسمت به أرْيَحيّاتُ الهوى فتنسما

وقول مجنون بنى عامر :

فلا خير فى الدنيا إذا أنت لم تزر حبيباً ولم يطرب إليك حبيب

وقول غيلان الثقفى :

وإذا كان النسيب بسلمى لذّ فى سلمى وطاب النسيب

وقول كثير :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جامدا[1]

وكان[2] المفضل الضبّى يسير مع المهدى فسأله أن يحدثه حديثاً عجيباً، فسأله المفضل: أى الحديث عجيب ؟

قال المهدى : حديث النساء .

---

(١) الأمالى ج ٢ ص ٢٦ (٢) ـ المفضليات ـ مقدمة ص ٨

لا يكاد يخلو شاعر فى كل عصر من أن يجول فى الغزل وأن يكون له فيه حظ يناسب هواه ، وهوى جمهرة الناس، التى تسمع شعره ، وتعجب به .

ولا تكاد تخلو قصيدة من بدئها بالغزل، عدا قصائد الرثاء . فإن لها شأناً من الحزن والبكاء لا يوافق شأن الغزل من بهجة ومتعة وسرور .

وقد ذكر ابن قتيبة ، كما قلنا ، العلة فى ذلك والدافع الذى أوحى إلى العرب أن يسيروا على هذا الغرار . حتى الهجاء كثيراً ما نرى الشاعر يقدمه بأبيات من الغزل . وعلة ذلك أن الغزل يصل إلى السمع ثم إلى القلب فيكون برداً وسلاماً، حتى إذا جاء الهجاء كان قاسياً مقذعاً عنيفاً .

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن الرومى فى قوله (١) :

ألم تر أننى قبل الأهاجى ... أقدم فى أوائلها النسيبا
لتخرق فى المسامع ثم يتلو ... هجائى محرقاً يكوى القلوبا
كصاعقة أتت فى إثر غيث ... وضحك البيض يتبعه النحيبا

حدثنا على بن يحيى المنجم قال : سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون : أحسن الناس ابتداء قصيد فى الجاهلية امرؤ القيس، حيث يقول :

ألا عِمْ صباحاً أيها الطَّلَلُ البَالى

وحيث يقول :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وفى الإسلاميين القَطامىّ حيث يقول :

إنا مُحَيُّوك فاسلم أيها الطلل

وفى المحدثين بشار حيث يقول :

أبى طلل بالجزع أن يتكلما ... وماذا عليه لو أجاب متيّما

---

(١) ديوان ابن الرومى ص ١٣٥

وبالمربع آثار لهند وباللوى ملاعب ما يعرفن إلا توهما

وحديث على بن يحيى المنجم وإن كان منصرفاً إلى بيان حسن البدء فى القصائد ولكنه بجانب ذلك بيان إلى أن بداية هذه القصائد كلها كانت غزلا ، وكانت تصويراً دقيقاً لناحية من نواحى الغزل ، وعن بكاء الأطلال والدمن .

وقد مر بنا أن يزيد بن ضبة الشاعر كان مع الوليد يوماً فى صيد ، وصفه فى قصيدة عصماء . ولكن لم يبدأها بالنسيب ، فردها الوليد ، ليجعل فى أولها تشبيباً حتى يغنى به ، وكان أن فعل .

وكان الرشيد[1] يستقبل الشعراء بالرقة فى يوم جمعة ، وكانوا ثمانية ، فأخذوا ينشدونه ولما جاء دور أشجع السلمى ، وكان قد نظم قصيدة فى مدحه وابتدأها بالنسيب — كما هى العادة — وكان وقت الصلاة قد أزف وخاف إن أنشده القصيدة من أولها حانت الصلاة ولم يسمع ماقاله فيه مدحاً ترك التشبيب وأنشده من موضع المديح ، فضحك الرشيد وقال له : خفت أن يفوت وقت الصلاة فيقطع المديح عليك . فبدأت به وتركت التشبيب ، وأمره بأن ينشد التشبيب ، فأنشده إياه . فأمر لكل شاعر بعشرة آلاف درهم ، وأمر لأشجع بضعفها .

وقد بلغ حبهم للغزل أنهم يؤثرون الشاعر ويقدمونه ويفضلونه إذا كان ذا حظ من الغزل والنسيب . وقد اختلف علماء الأدب كثيراً فى أى الشعراء أفضل : « جرير والفرزدق والأخطل » . وآثر جماعة جريراً على صاحبيه . وكان الذى جعلهم يحكمون له بالغلبة والسبق أنه كان فى الغزل مجلياً مجوداً .

ولعل أبلغ دليل على تقدير شعراء الغزل وعلى تكريمهم حتى وهم أموات ما حدثنا به هشام بن عبد الملك الخزاعى قال :

كنا بالرقة مع هرون الرشيد فكتب إليه صاحب الخبر بموت الكسائى و إبراهيم

(١) الأغانى ج ١٧ طبعة قديمة ص ٣١

الموصلى والعباس بن الأحنف فى وقت واحد، فقال لأبنه المأمون : اخرج فصلّ عليهم . فخرج المأمون فى وجوه قواده وأهل خاصته وقد صفوا له . فقالوا له من ترى أن يقدم ؟ قال الذى يقول :

يا بعيد الدار عن وطنه هائماً يبكى على شجنه
كلما جدّ البكاء به زادت الأسقامُ فى بدنه

قيل له : هذا . وأشاروا إلى العباس بن الأحنف فقال : قدموه . فقدم عليهم .

بل قد وصل بهم الأمر حيناً من الزمن أنهم كانوا يتفاخرون . وأن قبيلة غلبت فى هذا التفاخر قبيلة أخرى لأنها رزقت شاعراً كان مجوداً فى الغزل .

سئل رجل من قبيلة عُذرة(1) : أنتم أرق قلوباً أم بنو عامر؟ قال : إنا لأرق الناس قلوباً ، ولكن غلبتنا بنو عامر بمجنونها .

بل هذه عِشْرِقةُ المحاربية(2) ، وكانت ظريفة وفيها بقية من الشباب ، تفاخر بأنه كان لها الغلبة والسبق فى حلبة الهوى . قالت :

جريت من العشاق فى حَلْبة الهوى ففتهمو سبقاً وجئت على رسْلى
فما لبس العشاق من حلل الهوى ولا خلعوا إلا الثيابَ التى أُبلى
ولا شربوا كأساً من الحب مُرّةً ولا حلاوةً إلا شرابُهمُ فضلى

كما بلغ من حبهم للغزل أن تنتقل أشعاره إلى أسماعهم فى سرعة خاطفة فيتناشدوها فى كل حفل وناد ، ويتذاكروا أخبارها وحوادثها ، ويتدارسوها بحثاً وتحليلا .

أما شغف نساء العرب بشعر الغزل فلا يحتاج إلى بسط أو بيان .

فالغزل وإن كان فيه تشهير بالمرأة ، وهذا ينافى ماطبع عليه العربى من المحافظة على العرض ، فإن فيه إشهاراً لها، وإشادة بمحاسنها، وتكريماً لفعالها. وكم أصابت من ذلك خيراً!

وإذا كان حب الثناء من طبيعة الإنسان فهو فى طبيعة المرأة أقوى

---

(1) الأغانى ج ٣ ص ٣٤ (2) ضحى الاسلام ص ٢٧١

وأكثر ، فالغيرة تدفعها إلى أن تكون خيراً من غيرها ، والدلال يدفعها إلى أن يكون حظها من الجمال لا يدانيه حظ . وكم رأينا من نساء بارعات فى الحسن ! لم يجدن التقدير والإعجاب ، فذبلت نضارة حسنهن ، وتهدل غصن هذا الجمال الذى كان قائماً ميَّاداً .

تسمع المرأة العربية شعر الغزل ، وهى بحكم فطرتها ، وبحكم تربيتها، وبحكم مايحيط بها من مقتضيات البيئة ، تتذوق هذا الشعر ويصل إلى سمعها ، ثم إلى قلبها ، فتعجب به وتطرب . وإذا كان هذا الشعر مقولا فى غيرها فلم لا يقال فيها ؟ أليست بذات حسن وجمال ؟ فلم لا يتحدث الشعر عن حسنها وجمالها ؟ أليست بذات زهو ودلال ؟ فلم لا يترجم الشعر عن زهوها ودلالها ؟

وما السبيل إلى ذلك ؟

إنها لا تحجب نفسها ، بل تكشف عن وجهها المشرق الوضّاح .

إنها لا تقبع فى دارها . بل تتنقل ، وتسافر ، وترتحل .

إنها تذهب إلى الحج فيراها الشعراء ، ويتحدثون عن جمالها .

إنها تجلس فى المتنزهات ولا ترى من الحرج أن تدعو شاعراً من شعراء الغزل تسمع إلى شعره فيهتز قلبها لخفقة الحب . وتلك هى أمنية الحياة .

وإذا كان الرجل العربى مشغوفاً بحب الغزل لأنه صافى الذهن، متوقد الطبع، رقيق العاطفة ، فالمرأة العربية أكثر شغفاً به ، لأنها أكثر صفاء وأشد توقداً ، وأقوى حساسية . لذلك كن يستمعن إلى شعر الغزل ، يتذوقنه ويتدارسنه كما يتدارسه الرجال .

هذه عائشة[1] بنت طلحة بعد أن تأيّمت[2] ، كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة وتخرج إلى مال لها عظيم بالطائف ، وقصر كان لها هناك ، فتتنزه فيه وتسمع إلى النُّميرى حيث ينشدها الكثير من أشعار الغزل .

---

(١) الأغانى ج ٦ ص ٢٠٣

(٢) مات عنها زوجها ولم تتزوج سواه .

وهند[١] والرباب خرجتا إلى متنزه لهما بالعقيق و بينما هما تتحدثان إذ أقبل خالد القسري فنبأه الأماني إذا هو أحضر عمر بن أبي ربيعة ،وكان أن حضر عمر وجلس يتحدث إليهن و إلى سائر النساء في هذا المكان و ينشدهن من شعره الغزلي حتى المساء .

وغاضرة[٢] أم ولد لبشر بن مروان كانت بالمدينة وقد مر بها السائب راوية كثير ، ولما عرفت أنه من أهل الحجاز سألته : هل يروى لكثير شيئا ؟ قال : نعم . قالت : أما والله ما كان بالمدينة من شيء هو أحب إليّ من أن أرى كثيرا ، وأسمع شعره . وفي نهاية الخبر رغبت إلى كثير وكان مع السائب أن يخرج إلى العراق ، و يلقى بشر بن مروان ، وتضمن له إن فعل مائة ألف درهم . ثم أعطته عشرة آلاف درهم وأعطت السائب خمسة آلاف درهم .

وهذه[٣] عنيزة بنت شرحبيل يلتقي بها امرؤ القيس مع صاحبات لها من نساء العرب و يجتمعن به بعد أن تركن غدير « دارة جلجل » وفي هذا المجلس كان طعام ، وكان شراب ، وكان حديث لهو وغزل ومجون .

ونرى المرأة العربية تغرى الشاعر العربي بشتى الوسائل حتى يكون لها الحظوة في أن يشبب بها ، وأن ينقل الشعر إلى أسماع الناس وأفئدتهم اسمها وذكرها .

كانت بملل[٤] امرأة ينزل بها الناس فنزل بها رجلان من قريش ، كما نزل نصيب الشاعر . أما القرشيان فقد أعطياها جزاء نزولها مالا . ولم يكن مع نصيب شيء ، فقال لها : اختاري إن شئت أن أضمن لك مثل ما أعطياك إذا قدمت ، و إن شئت قلت فيك أبياتا تنفعك . قالت : بل الشعر أحب إليّ فقال : —

ألا حيّ قبل البين أمّ حبيب   و إن لم تكن منا غداً بقريب
لئن لم يكن حبّيك حباً صدقته   فما أحد عندى إذاً بحبيب

(١) الأغاني ج ١٩ ص ٥٦
(٢) الأغاني ج ١١ طبعة ق ص ٥١
(٣) آداب اللغة العربية ج ١ ص ١٠٤
(٤) الأغاني ج ١ ص ٣٤٦

تِهامٍ[1] أصابت قلبه مَالِبــةٌ   غريبُ الهوى ، ياويح كلِّ غريب

وحجت أم المؤمنين[2] بنت عبد العزيز بن مروان وزوجة الوليد بن عبد الملك فأرسلت إلى كثيِّر وإلى وضاح اليمن أن ينسبا بها . أما كثير فقد هاب الأمر وخاف مغبته ، فلم يشبب بها بل شبب بجاريتها غاضرة فقال :

شجا أظعــان غاضرة الغَوادِي   بغــير مَشــورة ، عَرَضــاً فؤادى

أغاضر لو شهــدتِ غــداة بِنتم   حُنُوَّ العــائدات على وســادى

أوَيْتِ[3] لعاشــــق لم تشكميه   بواقــدة تــلــذع كالزناد

أما وضاح فنسب بها فبلغ ذلك الوليد فطلبه فقتله . وفى رواية أخرى جفاه ودبر فى قتله .

كما حجت عاتكة[4] بنت معاوية ، وبينما كانت بمكة بذى طوى ، وقد اشتد الحر وانقطع الطريق ، فكشفت وجهها — مر بها أبو دَهْبل الجمحى فوقف طويلا ينظر إليها ، وإلى جمالها وهى غافلة عنه ، وقال فيها بضعة أبيات شاعت بمكة ، وغنى فيها المغنون حتى سمعتها عاتكة إنشاداً وغناء فأعجبتها ، و بعثت إليه بكسوة .

ولذلك نرى نساء العرب يبكين شاعر الغزل إذا مات بكاء مراً ، لأن فى موته خسارة لا تعدلها خسارة . فى موته خسارة هذا الغزل الذى كان لهواً لهن ومتعة ، وكان وصفاً لمحاسنهن ، وإشادة بما وهبهن الله من حسن وجمال . ثم كان تصويراً لعاطفتهن وشعورهن . تصويراً لأحاديثهن ومحافلهن . كان صورة من صور الحياة ، تمثلهن أصدق تمثيل فكيف لا يحزنّ على هذا الشاعر ؟ وكيف لا يبكينه ؟ وكيف لا يطلبن من الله ضارعات خير عوض وبديل .

مات عمر بن أبى ربيعة فبكاه نساء مكة بكاء شديداً ، وقالت إحداهن :

---

(١) نسبة إلى تهامه . وقيل «سهام» وهو عندى أحسن   (٢) الأغانى ج ٦ ص ٢٢١

(٣) أى رثيت له وأشفقت عليه   (٤) الأغانى ج ٧ ص ١٢١

من أمكنة[1] وشعابها ، وأباطحها ، ونزهها ، ووصف نسائها وحسنهن وجمالهن ووصف ما فيها ! فقيل لها :

خفّضى عليك فقد نشأ فتى من ولد عثمان رضى الله عنه — أى العرجى — يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه . فقالت : أنشدونى من شعره . فأنشدوها ، فمسحت عينيها وضحكت وقالت : — الحمد لله الذى لم يُضيّع حَرَمه .

ومات كثيّر كما مات عِكْرمة مولى ابن عباس فى يوم واحد .

قالوا :

فاجتمعت قريش فى جنازة كثير ولم يوجد لعكرمة من يحمله .

وقالوا :

وغلب النساء[2] على جنازة كثير يبكينه ، ويذكرون عزة فى ندْبتهن له . وأقبل محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب يشق طريقه ويضرب النادبات بكمه ، ويقول : تنحين ياصواحبات يوسف ، فانتدبت له امرأة منهن . فقالت يابن رسول الله لقد صدقت . إنا لصواحبات يوسف ، وقد كنا له خيراً منكم له . وأوصى محمد بعض مواليه أن يجيئه بهذه المرأة بعد انصرافه . فأتى بها وقال لها محمد أنت القائلة : إنكن ليوسف خير منا . قالت : نعم ! تؤمننى غضبك يابن رسول الله ؟ قال : أنت آمنة من غضبى فأبينى . قالت : نحن يابن رسول الله دعوناه إلى اللذات من المطعم والمشرب والتمتع والتنعم ، وأنتم معاشر الرجال ألقيتموه فى الجب ، وبعتموه بأبخس الأثمان وحبستموه فى السجن ! فأينا كان عليه أحنى وبه أرأف ؟ فقال محمد : لله درّك ! ولن تُغالب امرأة إلا غلبت .

وحين مات مجنون بنى عامر قالوا :

---

(١) الأغانى ج ١ ص ٣٨٧

(٢) الأغانى ج ٩ ص ٣٧

لم تبق فتاة[1] من بنى جعدة ولا بنى الحَرِيش إلاخرجت حاسرة صارخة عليه تندبه . واجتمع فتيان الحى يبكون عليه أحر بكاء ، وحضرهم حى ليلى معزين وأبوها معهم فكان أشد القوم جزعا و بكاء عليه ، وجعل يقول : ما علمت أن الأمر يبلغ كل هذا ، ولكنى كنت امرءاً عربياً أخاف من العار ، وقبح الأحدوثة ما يخافه مثلى ، فزوجتها ، وخرجت عن يدى ، ولو علمت أن أمره يجرى على هذا ما أخرجتها عن يده ، ولا احتملت ما كان علىّ فى ذلك .

قالوا : وما رؤى يوم كان أكثر باكية و باكيا على ميت من يومئذ .

وكذلك فعل النساء حين مات جميل .

نعاه الناعى بهذه الأبيات التى قالها جميل وهو يلفظ النفس الأخير :

صدع[2] النَّعِيّ وما كنى بجميل   وثوى بمصر ثواءَ غيرِ قفول
ولقد أجر الذيل فى وادى القُرى   نشوانَ بين مزارع ونخيل
قومى بثينةُ فاندبى بعويل   وابكى خليلك دون كلّ خليل

وما سمعت بثينة نعى الناعى حتى أتته حزينة باكية القلب ، وقالت : — يا هذا والله لئن كنت صادقاً لقد قتلتنى ، ولئن كنت كاذباً فضحتنى .

وكان صادقاً إذ أخرج إليها حلته فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها ، وصَكّت وجهها ، واجتمع نساء الحى يبكين معها و يندبنه .

وفى هذا تقول بثينة :

وإنّ سلوى عن جميل لَساعةٌ   من الدهر ما حانت ولا حان حِينها
سواء علينا يا جميلُ بن معمر   إذا مت بأساءُ الحياة ولينها

وهذه طائفة من الأقوال والأمثلة والآراء تبين أيضاً مدى شغف العرب بالغزل :

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ٩٠

(٢) صدع : جاهر وصرح

روى أن دخل كعب بن زهير على النبى —ص— قبل صلاة الصبح فمثل بين يديه وأنشده :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يُفْد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

هيفاء ، مقبلةً عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

وخرج كعب بعد غزله فى هذه الأبيات وأبيات أخرى إلى مدح النبى — ص — وكساه برداً اشتراه منه معاوية بعشرين ألفا .

والحسين بن على بن أبى طالب وقد استشفع به قيس ليتزوج لبنى فكان للمحبين شفيعًا رحيما ، وكان أن جمع بين قلبين تحابا وتصافيا ، وقال لقيس حين جاءه : أنا أكفيك . وقد كفاه فسار إلى أبى لبنى ، فلما بصر به وثب إليه ، وقال: يابن رسول الله ما جاء بك ؟ ألا بعثت إلىّ فأتيتك. ولما كاشفه بما جاء به قال : يابن رسول الله ما كنا لنعصى لك أمراً . وكان أن قبل أبوها زواجها منه ، ولكن رغب فى أن يخطبها أبوه ذريح حتى لا تكون سبة وعار عليهم. فأتى الحسين رضى الله عنه ذريحاً وقومه، ورغب إليه أن يخطب لبنى لابنه قيس فقال :

السمع والطاعة لأمرك ، وتمت هذه الخطبة بين قيس ولبنى بفضل ما فعل الحسين بن رسول الله .

وكثيراً ما كان ينشد شعر الغزل فى المساجد، وفى حضور أئمة العلم والفقه والدين ، يسمعونه ، ولا يرون فى ذلك بأساً .

كان عبد الله بن عباس فى المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق ، وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فقال له ابن عباس : أنشدنا ، فأنشده :

أمن آل نعم أنت غاد فمُبكِرُ غداة غد أم رائح فمُهجِّر

حتى أتى على آخرها فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال :

الله يابن عباس !!

إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد ، ونسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمسُ عارضت فيخـزى ، وأما بالعشىّ فيخسر

فقال : ليس هكذا ! قال : فكيف قال ؟ فقال : قال :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت[1] فيضحى ، وأما بالعشى فيخصر[2]

فقال : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ! قال أجل ! وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها .

وكثيراً ما نقرأ شعر الغزل لجماعة من رجال الفقه والعلم والقضاء أمثال شريح القاضى، وعبدالله بن المبارك ، وعروة بن أذينة ، وعبدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود .

قال عروة بن أذينة :

قالت وأبثثتها وجدى وبحت به قد كنت عندى تحت الستر فاستتر

ألست تبصر منْ حولى؟فقلت لها : غطّى هواكِ وما ألقى على بصرى

وقد وقفت عليه امرأة فقالت له : أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح ؟

وأنت القائل :

وإذا وجدتُ أوار الحب فى كبدى غـدوْت نحو سقاء الماء أبترد

هـذا بَردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد ؟ !

والله ما قال هذا رجل صالح !

قالوا : كذبتْ عدوة الله عليها لعنة الله . بلى . لم يكن مرائياً ولكنه كان مصدوراً فنفث !

---

(١) قابلت (٢) يبرد

شغف العرب بالغزل وفاض به الشعر، وآثره الملوك والأمراء والحكام، وأثابوا عليه ورأوا فيه صقلا للنفوس وتهذيبا للوجدان، فأشاروا على المؤدبين أن يرووه لأولادهم، حتى تعذب ألسنتهم ويرق إحساسهم. ثم لم ير فيه الدين بأساً إذا كان عفاً بريئاً، فقد سمعه النبي، وقد أنشدوه فى بيوت الله، وقد أصغى إليه جمهرة من رجال الفقه والدين، ورأينا أن جاشت صدور بعضهم بقليل منه.

ولكننا مع هذا نقرأ فى بعض شعر العرب، ونرى من بعض أعمال ملوكهم وخلفائهم ما لا يدل على هذا الشغف الذى تحدثنا عنه:

قال معاوية[1] لعبد الرحمن بن الحكم:

يا أخى إنك شهرت بالشعر فإياك والتشبيب بالنساء. فإنك تعرُّ الشريفة فى قومها والعفيفة فى نفسها. والهجاء، فإنك لا تعدو أن تعادى به كريماً أو تستثير به لئيما. ولكن افخر بمجد قومك، وقل من الأمثال ما توقر به نفسك، وتؤدب به غيرك.

وقال عبد الملك بن مروان لنصيب الشاعر: أنشدنى، فأنشده قصيدته التى يقول فيها:

ومُضْمَرُ الكَشْحِ يطويه الضجيعُ به   طيَّ الحمائل لا جافٍ ولا فقِرُ[2]

فقال له عبد الملك: يا نُصيب، من هذه؟ قال: بنت عم لى نوبية لو رأيتها ما شربت من يدها الماء.

فقال له: لوغير هذا قلت لضربت الذى فى عينيك.

ونهى المهدى بشاراً عن الغزل وأنذره بالموت إن لم يكف عنه وفى ذلك يقول بشار:

يا منظرا حسنا رأيته   من وجه جارية فديته

بعثت إلى تسومنى   برد الشباب وقد طويته

---

(١) الأغانى ج ١ ص ٣٥١   (٢) فقر: اشتكى فقاره

والله رب محمـــــد ماإن غدرت ولا نو يته

أمسكت عنك وربمـا عرض البلاء وما ابتغيته

إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبيتـه

ومخضب رخص البنا ن بكى على وما بكيته

ويشوقنى بيت الحبيب إذا ادّكرت وأين بيته

قام الخليفـة دونـه فصبرت عنه وما قليته

ونهـانى الملك الهمـام عن النساء وما عصيته

لا بل وفيت فلم أضع عهداً ولا رأياً رأيتـه

قالـوا :

وضرب المهـدى أبا العتـاهية بسبب عشقه « عتبـة » وفى ذلك يقـول أبو دحمان الشاعر :

لولا الذى أحدث الخليفة فى العشـ ـاق من ضربهم إذا عشقوا

لبحت باســم الذى أحب ولكـ ـنى امرؤ قد ثنانى الفرَق

ودخل النصيب على عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة فقال له :

إيه يا أسود ! أنت الذى تشهر النساء بنسيبك . فقال إنى قد تركت ذلك يا أمير المؤمنين ، وعاهدت الله ألا أقول نسيباً .

وكان قد نسك فأثنى عليـه القوم وقالوا فيه قولا جميلا .

فقال له : أما إذ أثنى عليك القوم فسل حاجتك .

فقال: ياأمير المؤمنين ـ لى بنيّات سويداوات أرغب بهن عن السودان ، و يرغب عنهن البيضان فإن رأيت أن تفرض لهن فافعل . ففعل .

فكيف السبيل إلى التوفيق بين ما ذكرنا وهذه الآراء والأقوال ؟

يقول الأستاذ العقاد[1] :

إن شعر بشار هو شعر المتحدثين والمتحدثات فى مجالس اللهو والفراغ ، فهو مادة الحديث فى تلك المجالس ومادة الحديث عنها ، وهو وسيلة الإغراء بها، ورسول الدعوة إليها. ومن هنا كان إغراؤه بالفساد ومحاكاة ما يتخيله ويرويه بين الظرفاء والظريفات .

أما شعر كثير وأمثاله فهو كالرسالة الخاصة من رجل واحد إلى امرأة واحدة ، وهو وإن أغرى بشيء فلا يغرى المرأة بأن تذهب إلى ملاقاة الرجال الكثيرين والنساء الكثيرات ، ولكنه يغريها بعلاقات قلبية كالعلاقة بين كثير وعزة ، وجميل و بثينة ، وعروة وعفراء ، وقيس ولبنى ، وليس هذا مما يدفع العاشقة إلى مجالس الظرفاء والظريفات ، بل لعله مما يدفع إلى العكوف والاعتزال .

ويقول[2] الدكتور طه حسين بك :

ومن الغريب أن هؤلاء الشعراء والفلاسفة الذين كانوا يلقون فى العصر العباسى ضروباً من المحن تختلف قوة وضعفاً باختلاف الخلفاء والوزراء كانوا محبّبين إلى هؤلاء الخلفاء والوزراء . فكثير من هؤلاء الخلفاء والوزراء كان يحب شعر بشار ويلذ لشعر أبى نواس ، ومع ذلك فقد ضرب بشار حتى مات ، وحُبِس أبو نواس فى عصر الرشيد ، كما حبس فى عصر الأمين ، ولو أدركه المأمون لقتله ولو كان إعجاب المأمون بأبى نواس شديداً جداً .

ومصدر هذا التناقض فى سيرة الخلفاء والوزراء مع الشعراء والفلاسفة أن هؤلاء الخلفاء ومشيريهم كانوا يحيون حياتين مختلفتين : حياة للشعب يحتفظون فيها بجلال الدين ومجده وعظمة الخلافة وقوتها السياسية ، فهم من هذه الناحية محافظون . وحياة لأنفسهم ولخلصائهم فى القصور ومن وراء الحجب يتركون فيها لأنفسهم حريتها الفطرية ، فيلهون ويلعبون ، وينادمون ويشربون ، ويقترفون ضروباً من الآثام .

---

(١) شاعر الغزل ص ٧٩ (٢) حديث الأربعاء ج ٢ ص ١٣

وفى رأيي أن الغزل البرىء حسن وجميل . ونجده فى كثير من الشعر العربى ، حتى من غير العذريين .

ولم يعرض أحد لهذا بالقدح ، أو الذم ، أو التجريح .

فهو إما أن يكون رسالة بين قلبين ؛ تتمثل فيها الإخلاص ، والوفاء ، وصفاء الروح ، وطهارة القلب .

وأكرم بهذا من مثل طيبة ، ومن صفات نبيلة !

وهو إما أن يكون صورة للخيال الفسيح ، والمعنى الدقيق ، واللفظ العذب .

وأكرم بهذا من فن ! له روعته وتأثيره .

أما الغزل الماجن ، الذى يثير الشهوة ، وتتحرك له العاطفة الجامحة ، فهو المقصود بهذا النهى ، والذم ، والتجافى .

وقد يؤكد هذا المعنى أننا نعرف فى شعر بشار ، وفى شعر أبى نواس لونا من الغزل الماجن . وهذا سر ما أصابهما من حرج ، وعنت ، وتضييق .

على أن شعرهما ليس كله فى الغزل الماجن ، حتى يكون كله ذميما فى أعين الناس ، وفى أعين الحاكمين . بل فى شعرهما معان أخرى ، وأخيلة أخرى ، هى حسنة فى عيوننا ، كما كانت حسنة فى عيون هذا العصر الذى عاشا فيه .

ولا أعتبر هذا تناقضاً فى حياة هؤلاء الحكام .

إن اختلاف الحكم على بشار وأبى نواس ، والإعجاب بشعرهما تارة ، والإعراض عنه طوراً ليس باعثه تناقض سيرة الخلفاء . يحتفظون بجلال الدين ، ومجد الخلافة ، فيضيقون على بشار وأبى نواس . ويخلون إلى أنفسهم ، ويتركون لها حريتها ، فيروقهم شعر بشار وأبي نواس . ولكن باعثه لون الشعر . فإن كان ماجناً فاجراً كرهوه ، وذموه ، كما نكرهه الآن ونذمه . وإن لم يكن كذلك أحبوه ، وارتضوه ، كما نحبه الآن ونرتضيه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الرابع

أثر الغزل

لعله بان لك فيما تقدم مدى شعف العرب بالغزل ، وأنهم جروا على سننه منذ البداوة ، وظل قائماً بينهم فى عصر يولونه مزيداً من العناية وحسن التقدير .

أنشدوه فى بيوت الله وامتدحوه بمثل هذه الأقوال التى قدمت شطراً منها لطائفة من رجال العلم والفقه والدين .

ولا يخفى ما فى الغزل من آثار كريمة تهذب النفس ، وتصقل الحس ، وتوقظ الهمم ، وتبعث المروءة . كما لا يخفى أن بعض الملوك والحكام والأمراء اتخذوا الشعر ، ومنه الغزل ، أداة صالحة لتربية أبنائهم ، وتزويدهم بهذه الآثار .

كان ذو الرياستين[1] يبعث مولى له وأحداثا من أهله إلى شيخ عالم بخراسان ، له أدب وحسن معرفة بالأمور ، فقال لهم يوما : أنتم أدباء وقد سمعتم بالحكمة ، ولكم حُداء ونعم قال : فهل منكم عاشق ؟ قالوا : لا ، قال : اعشقوا ، فإن العشق يطلق اللسان ويفتح جِبِلّة البليد والبخيل ويبعث على التلطف ، وتحسين اللباس ، وتطييب المطعم ، ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشريف الهمة .

وقال ذو الرياستين إن بهرام جور كان له ابن وكان يرشحه للأمر من بعده ، ولكنه نشأ ناقص الهمة، ساقط المروءة، خامل النفس، سيء الأدب، فغمه ذلك،فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه ، وكان يسألهم عنه ، فيحكون له

(١) المستطرف ج ٢ ص ١٣٥

ما يغمه من سوء فهمه ، وقلة أدبه ، إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوما فقال له المؤدب : قد كنا نخاف سوء أدبه ، فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء فى فلاحه . قال : وماذا الذى حدث ؟ قال : رأى ابنة فلان المرزبان فعشقها فغلبت عليه فهو لا يهدأ إلا بها ، ولا يتشاغل إلا بها .

قال بهرام : الآن رجوت فلاحه .

وقال[1] الرشيد يوما لجلسائه : أنشدونى شعراً حسناً فى امرأة خفرة كريمة . فأنشدوا وأكثروا . ثم أنشده ابن مصعب قول محمد بن بشير الخارجى :

بيضاء خالصة البياض كأنها ... قمر توسّط جُنح ليل مبرد

موسومة بالحسن ذات حواسد ... إن الحسان مظنّة للحسّد

فقال الرشيد : هذا والله الشعر . لا ما أنشدتمونيه سائر اليوم ، ثم أمر مؤدب ابنيه محمد الأمين وعبد الله المأمون فرواهما الأبيات .

ورأى[2] سعيد بن مسلم ابناً له قد شرع فى رقيق الشعر وروايته فأنكر عليه ، فقيل له : إنه قد عشق . فقال دعوه فإنه يلطف ، وينظف ، ويظرف .

وسئل[3] أبو نوفل هل يسلم أحد من العشق ؟ فقال : نعم ، الجِلْف الجافى الذى ليس له فضل ولا عنده فهم . فأما من فى طبعه أدنى ظرف أو معه دماثة أهل الحجاز ورقة أهل العراق فهيهات !

ولم كان للغزل هذه المنزلة الرفيعة ؟

الغزل ضرب من ضروب الشعر يحمل اللفظ العذب ، والمعنى الشائق ، والخيال الرائع . وفى ذلك خير للأدب ومتعة للأدباء .

---

(١) الأغانى ج ١٤ طبعة قديمة ص ١٥٣
(٢) زهر الآداب ج ٤ ص ٨٩
(٣) نهاية الأرب ج ٢ ص ١٣٩

والغزل يمثل المرأة ، ويصفها ، ويحدثنا عن حسنها وجمالها . والمرأة زينة الحياة وبهجتها ، فالحديث عنها لذيذ ، ووصفها حلو جميل .

يقول الدكتور أحمد ضيف[1] :

إن النساء منبع من منابع الشعر ، والشعراء مدينون لهم بأفضل الصفات لديهم ، وهى وصف شعور الناس . والشاعر الذى يشعر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب وإنما يجمع آلام العشاق وأنينهم فيتألم ويئن معهم . وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب إلى النفس من سماع هذا الأنين . إن الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ، ورنات ما يجول بها من المعانى ليدفعها إلى النفوس فتصبو إليها ويدفعها بين العشاق ، فيرى كلٌّ قلبه ، وكأنه ينظر فى مرآة يرى فيها صورته . وذلك لا يكون إلا فى الشعر .

وإذا كنا نجد فى الشعر ما يروّح عن أنفسنا ، ويذهب عنها عناء العمل ، وأعباء الحياة فإن للغزل فى الترويح عن النفس حظاً عظيما لا يعدله حظ المدح أو الهجاء أو الوصف أو الحماسة أو الأدب أو الرثاء .

والحياة ثقيلة الأعباء ، والأعمال كثيرة الأشواك . وما أحوجنا إلى ما يذهب عنا الهم والحزن ! .

على أن الباحث المدقق حين يقرأ شعر الغزل ، وحين تتأثر عاطفته بما يحوى من آيات الحب والهوى قد يرى فيه لوناً آخر من ألوان الجمال .

يرى أمثلة حية لرقة الحس ، وحدة الذهن ، والتضحية ، والطموح ، والوفاء ، والصبر .

وإليك البيان :

(١) بلاغة العرب بالأندلس ص ٧٩

الفصل الأول

رقة الحس

ليس من شك فى أن الغزل لغة القلوب. لذلك كان الغزل يناجي القلوب، وكانت القلوب تهفو إليه وتصبو .

لا أريد هذه القلوب القاسية التى لاتحركها إلا المادة ، ولايثيرها إلا روح الانتقام، بل أريد القلوب الحية الطموحة التى ترى الجمال أيّاً كان نوعه ، فتهتز به وترنو إليه .

إن الله قد وهب للمرأة جمالا فاتناً ، وخلق لنا قلوباً . فكيف لا تتفتح لما وهبه الله ؟ .

إن من شأن القلوب أن ترق وتلين .

إن من شأن القلوب أن تعجب وتطرب .

فكيف بها أمام المرأة ؟ أمام فتنتها وزينتها . أمام دلّها وجمالها !

إنها لاشك ترق إليها ، وتعجب بها ، وقد ينقلب الإعجاب إلى حب وغرام .

والمرأة رقيقة لينة .

والرجل حتى يستحوذ على لبها وهواها لا بد أن يكون مثال الرقة واللين .

والمرأة ذات تجنّ ودلال :

تهجر الرجل وتطلب أن يسعى إلى ودّها .

وتظلم الرجل وتطلب أن يعترف أنه المذنب الملوم .

وتسيء إلى الرجل ولا تعترف أنها أساءت .

وتقسو على الرجل ولا تعترف أنها قست .

والرجل أمام هذا كله لابد أن يكون مرهف الحس صافى القلب .

فإذا حدثها كان عذب الحديث .

و إذا ناجاها كان رقيق النجوى .

يبثها حزنه وآلامه ، فى قوة وروعة تأثير.

يتوسل إليها بماء العيون وحمقات القلوب .

لايشكو منها آلاماً ، فهى لا تبعث الآلام !

ولا ينسب إليها ذنباً ، فهى لا ترتكب الذنوب .

ولا يرد إليها قولا ، فهى ذات الحول والسلطان !

ألاترى فى هذا كله الحس الرقيق ، والطبع الصافى ؟ .

بلى .

تصفح أحوال المحبين واحدة واحدة . فإنك ترى فى كل حال أمثلة للرقة واللين والمودة والرحمة .

واقرأ غزل المحبين . فإنك ترى كيف يكون الرجل حين يتحدث إلى حبيبته ، وحين يناجى طيفها وخيالها .وحين يشكو إليها حرقة الحب ولوعة الفراق . بل حين تتقرح العيون ، وتصفر الوجوه ، وتذبل الأجسام.

ترى ذلك كله و يروقك ما ترى ، وتتمنى أن تكون بين المحبين ، حتى تكون لك هذه العاطفة الرقيقة ، وهذا القلب النقى الصافى .

وقد مر بك أن بعض الناس ينتقصون الحب لما فيه من سهاد ونحول ، وحيرة وقلق ، وحزن وآلام . ولا يخفى أن هؤلاء على جانب من الغفلة والجهل ، فإن هذه العيوب التى تنقّصوا بها الحب هى فى الحقيقة من حسناته ومحامده ، فهى مظهر من مظاهر العاطفة ورقة القلب .

وماذا تكون الحياة إذا خلت من العاطفة والقلب ؟ .

للحياة مظهران يسعى الناس جاهدين إليهما : مظهر المادة ، ومظهر الروح . وكلما تسامى الناس وتصافت نفوسهم كانوا أقرب إلى مظهر الروح . فلم لا تكون هذه

الأحوال بين المحبين مظهراً من مظاهر الروح ؟ . وهو الذى ينشده كثير من الناس فلا يجدونه ، وقد وجده المحبون ونعموا به ، و إن جرّ عليهم ألواناً من النقمة والعذاب .

وصدق بشار إذ يقول :

فقلت: دعوا قلبي وما اختار وارتضى ... فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى ... ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبّا ... وألّف بين العشق والعاشق الصّب

ثم تعال لننظر من أحوال المحبين ومن غزل المحبين :

كان الصيد عادة من عادات العرب يتخذون منه أداة للتسلية ، وسبيلا للحصول على الغذاء . وكثيراً ما كانوا يصيدون الظباء . ولكننا نرى كثيراً من المحبين يطلقون سراحها، و يفكون قيودها ، فقد عرفوا فى الحب مرارة الأسر والضيق ، فكانوا مثال الرحمة والحنان ، ثم عرفوا فى الحب قيمة الحسن والجمال ، وفى الظباء عيون تشبه عيون الحبيب ، ومن أجل هذه العيون تكرم العيون جميعاً ، فلا يصيب أصحابها ذل وهوان .

قالوا :

مر المجنون[1] برجلين قدصادا ظبية ، فربطاها بحبل وذهبا بها ، فلما نظر إليها وهى تركض فى قيود من الحبال دمعت عيناه ، وقال لهما : خُلّاها ، وخُذا مكانها شاة من غنمى ، فأعطاها ، وحلّاها فولّت تعدو هاربة

وفى ذلك يقول :

أيا شبه ليلى لا تُراعى فإننى ... لك ، اليومَ من وحشية لصديق
ويا شبه ليلى لو تلبّثت ساعة ... لعلّ فؤادى من هواه يُفيق
تفرّ ، وقد أطلقتها من وَثاقها ... فأنت لليلى ، لو علمت ، طليق

(١) الأغانى ج ٢ ص ٨١

وخرج الوليد [1] يتصيد ذات يوم فصادت كلابه غزالا فأتى به ، فقال خلوه ، فما رأيت أشبه منه جيداً وعينين بسلمى ، ثم أنشأ يقول :

ولقد صِدنا غزالا سانحاً ۔۔۔ قد أردنا ذبحه لما سَنَحْ [2]

فإذا سِبهُكِ ما ننكره ۔۔۔ حين أزجى طَرْفَه ثم لمح

فتركناه ، ولولا حبكم ۔۔۔ فاعلمى ذاك لقد كان انذبح

أنت يا ظبيُ طليقٌ آمنٌ ۔۔۔ فاعدُ فى الغزلان مسروراً ورُح

وكان لكثيِّر [3] غلام تاجر فباع من عزة بعض سلعه ، ومَطَلَته مدة ، وهو لا يعرفها فقال لها يوماً : أنت والله كما قال مولاى : —

قضى كل ذى دين فوفَّى غريمه ۔۔۔ وعزة مَمْطول مُعَنًّى غريمها

فانصرفت عنه خجلة — فقالت له امرأة — : أتعرف عزّة ؟ قال : لا والله . قالت : فهذه والله عزة . فقال : لا جرم والله لا آخذ منها شيئاً أبداً ولا أقتضيها .

وعرف كثير الخبر فرقّ لرقته ، وجازاه على إحسانه فأعتقه . ووهب له المال الذى كان فى يده .

يقولون : لا يعرف الشوق إلا من يكابده .

وقد عرف المحبون الشوق لأنهم كابدوه ، وذاقوا حلوه ومره ، فأكرم بعضهم بعضاً ورحم بعضهم بعضا .

كم رأينا أنهم يجتمعون و يتحدث بعضهم إلى بعض فيذكرون مايقع بينهم و بين هوى نفوسهم ؟ فإن كان خيراً طربوا له وفرحوا به ، و إن كان بؤساً بكته العيون وتفطرت له القلوب .

قال العباس بن الأحنف :

رق قلبى لأهل العشق إنهم ۔۔۔ إذا رأونى وما ألقى يرقّونا

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٤٨

(٢) يقال سنح الطائر أوغيره : أتى من يمينك إلى يسارك .

(٣) الأغانى ج ٩ ص ٢٨

وكم رأينا ما فعله كثير حين كان يرسله جميل إلى حبيبته بثينة ليأخذ منها موعداً أو يبثها ما فى نفسه من حب وهيام . والمحب أدرى بما يشجى المحبين .

وكثيراً ما كانا يلتقيان ويتذاكران النسيب فتشجيهما غصص الهوى . التقيا[1] ذات مرة فقال كثير : يا جميل أترى بثينة لم تسمع بقولك ؟

يقيك جميل كل سوء ، أماله ... لديك حديث أو إليك رسول
وقد قلت فى حبيكم وصبابتى ... محاسن شعر ذكرهن يطول
فإن لم يكن قولى رضاك فعلمى ... هبوب الصبا يا بثن كيف أقول
فما غاب عن عينى خيالك لحظة ... ولا زال عنها والخيال يزول

فقال جميل : أترى عزة يا كثير لم تسمع بقولك ؟ .

يقول العدا : يا عز قد حال دونكم ... شجاع على ظهر الطريق مصمم
فقلت لها : والله لو كان دونكم ... جهنم ما راعت فؤادى جهنم
وكيف يروع القلب يا عز رائع ... ووجهك فى الظلماء للسفر معلم
وما ظلمتك النفس يا عز فى الهوى ... فلا تنقمى حتى فما فيه منقم

قالوا : فبكيا قطعة من الليل ثم انصرفا .

والتقى عمر بن أبى ربيعة بجميل : فقال له عمر : أنشدنى ، فأنشده :

خليلى فيما عشتما هل رأيتما ؟ ... قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

ثم قال جميل : أنشدنى يا أبا الخطاب . فأنشده :

ألم تسأل الأطلال والمتربعا ... ببطن حليات دوارس بلقعا

ونرى مثل هذه النجوى بين المحبوبتين .

وكأنى بهما تجتمعان فى خلوة من الرقباء ، وفى هدأة من شواغل الحياة ، فتناجى كل واحدة الأخرى ، وتحدثها أحاديث الغرام والهوى . ماذا فعل حبيب قلبها ؟ ،

(١) الأغانى ج ٨ ص ١٠٩

وماذا فعلت هى؟ وماذا قال لها ؟ وبماذا أجابت ؟ وماذا كتب لها ؟ وبماذا ردّت كتابه ؟
هذه النجوى أكثر من تلك روعة .

لأنها صورة عن عاطفة المرأة . وهى — كما نعرف — قوية ، ثائرة ، جامحة .

ثم انظر كيف يكون المحبوب أمام حبيبته .

يقول عبد الله بن طاهر :

نحن قوم تليننا الحدق النُّجـ ... ـل ، على أننا نلين الحديدا

طوع أيدى الظباء تقتادنا العـ ... ـين ونقتاد بالطعان الأسودا

نملك الصيِّد ثم تملكنا البيـ ... ـض المصونات أعينا وخدودا

تتقى سخطنا الأسودُ ونخشى سَخَط ... الخِشْفِ[1] حين يبدى الصدودا

فترانا يوم الكريهة أحرا ... را ، وفى السلم للغوانى عبيدا

ويقول ابن الرومى[2] :

أصبحت مملوكاً لأحسن مالك ... لو كان كمّل حُسْنَهُ إسْجَاحُهُ[3]

لم يَعْنِه أرق وفيه لقيته ... حتى أضر بمقلتى إلحاحه

كلا ، ولا دمعى وفيه سفحته ... حتى أضر بوجنتى تسفاحه

ويقول يزيد بن الطَّثرية :

أنا الهائم الصبُّ الذى قاده الهوى ... إليك فأمسى فى حبالك مُسْلِمَا[5]

برته دواعى الحب حتى تركنه ... سقيما ولم يتركن لحماً ولا دما

ويقول البحترى[6] :

ألا هل أتاها بالمغيب سلامى ... وهل خُبِّرت وجدى بها وغرامى

وهل علمت أنى ضنيت وأنها ... شفائى من داء الضنى وسقامى

---

(١) الخشف ولد الغزال (٢) ديوان ابن الرومى للأستاذ كيلانى ص ٣١٣
(٣) يقال أسجح الرجل: ترفق وسهل ألفاظه (٤) الأغانى ج ٨ ص ١٦٥
(٥) يقال أسلم: انقاد (٦) ديوان البحترى ص ٢٢٢

ومهزوزة هز القضيب إذا مشت ... مشت على دل وحسن قوام

أحلت دمى من غير جرم وحرمت ... بلا سبب يوم اللقاء كلامى

فداؤك ما أبقيت منى فإنه ... حُشاشة(١) جسم فى نحول عظامى

صلى مغرماً قد واتر(٢) الشوق دمعه ... سِجاماً(٣) على الخدين بعد سجام

ويقول(٤) ابن زيدون :

أنّى تضيّع عهدك ... أم كيف تخلف وعدك

وقد رأتكَ الأمانى ... رِضا فلم تتعدك

يا ليت شعرى وعندى ... ما ليس فى الحب عندك

هل طال ليلك بعدى ... كطول ليلى بعدك

سلنى حياتى أهبها ... فلست أملك ردك

الدهر عبدى لما ... أصبحت فى الحب عبدك

فأنت ترى من هذه الأمثلة أن الرجل ضعيف أمام حبيبته ، وإن كان فى ميدان الوغى بطلا مغواراً ، وأنه عبد ذليل لها ، أصابه بسببها السقم والضنى . ومع ذلك فإنه يحبها ويهواها ، ومع ذلك فإنه يفديها بما أبقت من حشاشة جسمه ، يهب لها حياته فإنه لا يملك أن يرد لها سؤالاً ، وهى البخيلة الممنّعة فى حبه ووصاله .

ليست العبودية عند المحبين عيبا ، يكسر من أنفتهم وعزة نفوسهم ، فذل الحبيبة لا يفوقه عز السلطان . ألا ترى ابن زيدون يقول وقد أصبح فى الحب عبداً : إنه ملك الدهر وساد الناس جميعاً ؟

وانظر ما يجرى بين المحبين :

يقول أبو إسحاق الموصلى :

---

(١) أى بقية جسم (٢) أى والى إنزال دمعه (٣) سجم الدمع : سال .

(٤) بلاغة العرب فى الأندلس ص ٨٢

حذّرت قلبي أن يعود إلى الهوى ... لما تبدل بالنزاع نزوعا
فأجابني لا تخش مني بعدما ... أفلتّ من شرك الغرام وقوعا
حتى إذا داع دعاه إلى الهوى ... أصغى إليه سامعاً ومطيعاً
كذُبالة أخمدتها فكما دنا ... منها الضِّرام تعلقَته سريعاً

ويقول الهذلي :

ويمنعني من بعض إظهار ظلمها ... إذا ظلمت يوما وإن كان لي عذر
مخافة أني قد علمت إذا بدا ... لي الهجر منها ما على هجرها صبر
وإني لأدري إذا النفس أشرفت ... على هجرها ما يبلغن بي الهجر

ويقول[1] ابن الرومي .

أبكيتني فبكيت ... من غير ذنب جنيت
وقلت لي امض عني ... مصاحبا فمضيت
ولو أمرت بأن أقضى ... الحياة قضيت
أضعتني فرعيت ... وخنتني فوفيت
أطعت فيّ الأعادي ... وكلهم قد عصيت

ويقول عمر بن أبي ربيعة[2]:

كدت يوم الرحيل أقضي حياتي ... ليتني مت قبل يوم الرحيل
لا أطيق الكلام من شدة الخو ... ف ودمعي يسيل كلّ مسيل
ذرفت عينها وفاضت دموعي ... وكلانا يلقى بلُبٍّ أصيل

ويقول قيس بن ذَرِيح[3] :

وإني لأهوى النوم في غير حينه ... لعل لقاء في المنام يكون

---

(١) ديوان ابن الرومي للأستاذ كيلاني ص ٩٢
(٢) الأغاني ح ١ ص ١٩٥
(٣) الأغاني ح ٩ ص ٢١٤

تحدثني الأحلام أني أراكم فيا ليت أحلام المنام يقين
شهدتُ بأني لم أحُلْ عن مودةٍ وأني بكم لو تعلمين ضنين
وأن فؤادي لا يلين إلى هوى سواك وإن قالوا بلى سيلين

ويقول جميل (1) :

وما زلتم يا بثن حتى لو انني من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
إذا خدرَت رجلي وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
وما زادني النَّأيُ المفرّق بعدكم سلوا ولا طول التلاقي تقاليا
وما زادني الواشون إلا صبابةً ولا كثرة الناهين إلا تماديا
ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني أظلّ إذا لم ألق وجهك صاديا
لقد خفت أن ألقى المنيّة بغتة وفي النفس حاجات إليكِ كما هيا

ويقول وضاح اليمن (2) :

قالت فزرنا قلت كيف أزوركم وأنا امرؤ لخروج سرك خاشي
قالت فكن لعمومتي سَلَما معاً والطف لإخوتيَ الذين تماشي
فتزورنا معهم زيارة آمن والسرُّ يا وضاحُ ليس بفاشي

ويقول مرداس بن همام الطائي (3):

هويتك حتى كاد يقتلني الهوى وزرتكِ حتى لامني كل صاحب
وحتى رأوا مني أدانيك رقة عليهم ولولا أنتِ ما لان جانبي

وماذا نرى في هذه الأبيات ؟

نرى بعض أمثلة للرقة بين الأحباب .

(1) الأغاني ج ٨ ص ١٢٦
(2) الأغاني ج ٦ ص ٢١٧
(3) ديوان الحماسة ج ٢ ص ١٦٣

فالقلب الرقيق يلبي دعاء الحبيب ،

والقلب الرقيق يرضى بظلم الحبيب لأنه يخاف هجرها . وكم فى الهجر من ألم وعذاب !

والقلب الرقيق يطيع الحبيب مهما كان ظلوما ، ويرعى وده مهما كان للعهد خائنا .

والقلب الرقيق يلتمس لحبيبته المعاذير فيما تقول وتفعل . فهجر الحبيبة فى نظر الحبيب تدلل ، وعذاب الحب فى نظر الحبيب ابتلاء .

والقلب الرقيق حين يلم بصاحبه داء يدعو الحبيب فيزول ما به من أوجاع .

و بعد الحبيب يذكى فى قلبه نار الشوق والحنين ، كما أن كثرة لقائه لا تجعل للملل سبيلا إلى نفسه . بل يسعى الوشاة للوقيعة بينه و بين حبيبه فلا يزيده ذلك إلا حبالها وكلفا بها .

يظل طول أيامه لا يطفىء غلة عطشه إلا أن يرى وجهها الضاحك الوسيم . يخاف أن يأتيه الموت بغتة وفى نفسه حاجة إليها . وما أكثر حاجات المحبين ! .

والقلب فى سبيل الحبيب يلطف مع الأخوة ، و يرق للأعمام ، حتى يزورها معهم ، وهو آمن مطمئن ، لا يخاف العيون .

بل يكون ليّن الجانب مع العواذل والوشاة حتى لا يحولوا بينه و بين الحبيب ، حين يود أن يراه وما أكثر ما يود أن يراه ! و إنا لنرى من مظاهر الرقة أن الحبيب يضرع إلى حبيبه و يتوسل إليه بما يكنه قلبه من حب وغرام ، وما يجره عليه هذا الحب من آلام وأسقام ، لعل الحبيب يكون رحيما شفيقاً ، فيجود له بالوصال ، وكم فى الوصال من لذة ونعيم ! .

يقول بشار بن برد[1] :

يا عبدُ بالله فـرّجى كُرَبى فقـد برانى وشفّنى نصبى

---

(١) الأغانى ج ٦ ص ٢٤٨

وضِقتُ ذرعاً بما كلمتُ به ... من حبكم والحبّ فى تعب
ففرّجى كُرْبَةً شَجِيتُ بها ... وحَرّ حُزْنٍ فى الصدر كاللّهب

ويقول :

رفّهى يا عبد عنّى واعلمى ... أننى يا عبد من لحم ودم
إنّ فى بردىّ جسما ناحلا ... لو توكأت على لا نهدم
ختم الحبُّ لها فى عنق ... مَوْضعَ الخاتمِ من أهل الذّمم

ويقول الأحوص[١] — فى سلاّمة القس :

أسَلام هل لمتيّم تنويل ... أم هل صرمتِ وغال ودّكِ غول
لا تَصْرِفى عنى دلالك إنه ... حسنٌ لدى و إن بخلت جميل
أزعمتِ أن صبابتى أكذوبةٌ ... يوماً وأن زيارتى تَعْليل

كما نرى من مظاهر الرقة ما يكون بين المحبين من حديث . وحديث المحبين حلو لذيذ ، لأنه يترجم عن إحساسهم وشعورهم ، ولأنه يعبر عما تكنه قلوبهم من لوعة وحرقة ، وغرام ، وهيام . ولذلك كان الحديث عذباً رقيقاً . ولذلك كان عند المرأة فناً من فنون الجمال ، رغب فيه المحبون ، وامتدحه شعراء الغزل .

و إنى أضرب هنا بعض الأمثلة ، وحين أتحدث فى الكتاب الثالث عن شئون الغزل وشجونه سترى من الحديث قولا مفصلا :

قال الهذلى[٢] :

فنلنا سِقاطاً من حديث كأنّه ... جنى النَّحْل أو أبكارُ كرم تَقطَّفُ
حديثاً لو أن البقل يُولَى بمثله ... زها البقل واخضر العِضاهُ[٣] المصيّف

وقال ابن الرومى[٤] :

وحديثها السحر الحلال لو أنه ... لم يجن قتل العاشق المتحرز

(١) الأغانى ج ٨ ص ٣٣٧ (٢) البيان والتبيين ص ١٩١ (٣) العضاه : شجر له شوك
(٤) نهاية الأرب ج ٢ ص ٧١

إن طال لم يملل وإن هى أوجزت ود المحدث أنها لم توجز

وقال عمر بن أبى ربيعة :

قد دعانى وقد دعا هن للهو شجون مهمة [1] الأشجان

فاجتنبنا من الحديث ثماراً ما جنى مثلها لعمرك جانى

وقال كثير :

وكنت إذا ماجئت سعدى بأرضها أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها

من الخفرات البيض ود جليسها إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

فأنت ترى من هذا كله أن فى شعر الغزل صورة صادقة عن حال المحبوب .

تنبين فى هذه الحال : كيف يكون الحس المرهف ، والعاطفة الرقيقة ، والطبع الصافى ، والقلب النقى ؟

ولم كان الحبيب تروقه الحرية ؟

ذلك لأنه يروقه أن يكون حراً طليقاً فى حياة الهوى .

يلقى حبيبته حيث شاء . ويطلب وصلها ورضاها فى كل وقت . ينعم معها بالابتسامة الحلوة ، والحديث العذب . ويكره القيود ، وما أكثر قيود الحب ! : فالدلال ، والرحيل ، والعواذل ، والوشاة ، والغيرة ، كل هذه قيود ، بغيضة إلى قلب الحبيب ، ثقيلة على نفسه .

ومن هنا كان المحبون أحراراً كراماً ، يبعون كل ما هو حر كريم .

ولم كان الحبيب حلو الحديث ؟

ذلك لأنه يريد كسب الرضا ، وأن يصل إلى القلب ، ويستثير كوامن النفس ، ولن يكون كذلك إلا إذا أوتى حسن القول ، وحلاوة الحديث ، ورقة التعبير ، وجمال المعنى .

---

(١) مثيرة الأحزان .

ولم كان الحبيب يقبل ظلم الحبيب ؟

يقبل ظلمها فى كل شىء : تسىء فيحسن ، وتصد فيصل ، وتخون فيفى .

ذلك لأن القول الطيب ، والعمل الطيب يميلان القلوب فترق ، وتصفو .
وفى ذلك كسب للرضا ، وكسب للوصال .

أرأيت لم كان المحب رفيق العاطفة ، مرهف الوجدان ، طيب الإحساس ؟

وهل رأيت أن المحبوبة لا ترضى من حبيبها أن يكون غليظ القلب ، جافى الطبع ،
إذن لا نفضت من حوله ، وانقطع ما بينهما من ود ، وعاشا فى احتراب ، يولد بينهما
ألوانا من الشرور والآثام .

وهيهات أن يقوم فى هذه الحرب صفاء ، ووفاء !.

الفصل الثانى

سعة الحيلة

يحدثنا شعر الغزل عن أعمال المحبين ، وهى تتطلب فطنة وذكاء ، وتتطلب حيلة ودهاء ! .

و إذا كانت الحاجة تفتق الحيلة ، كما يقولون ، فما أكثر حاجات المحبين ! .

هو فى حاجة إلى رضاها ، فليكدح ذهنه حتى ينعم بهذا الرضا .

هو فى حاجة إلى عفوها ، فليسلك شتى الوسائل حتى يمحو من قلبها آثار الخطيئة والهجران .

هو فى حاجة إلى أن يلقاها حتى يفوز بلذة اللقاء ، وما يوحيه من حديث ونجوى .

وما السبيل إلى ذلك ؟

إن عيون العواذل ترقبه ، وعيون النهار تفضحه ، وعيون الأهل والأقارب تحرسها وترعاها .

فكيف بالمحب أن يفقأ هذه العيون ، وأن يتخطى هذه الأسوار ، وأن يكافح هذه الصعاب ؟

إنها بعيدة الدار . ارتحل بها أهلها ، خوف الفضيحة والعار ، أو انتقل بها زوجها حيث بلده وهو ناء بعيد .

فليرتحل . ولكن كيف الوصول إليها ؟ فليُعمل الحيلة حتى يفكر فى طريق الوصول ، ثم فى طريق اللقاء .

وحين اللقاء ، كيف يحذر عيون الرقباء ، وما أكثرها ؟ !

إن للمحبين لغــة يعرفونها ويفهمونها ، لغــة الحركات والإشارات والغمزات واللحظات ، فإذا لم يكونوا أهل فطنة وذكاء ما عرفوا حل هذه الرموز .

يعيشون حيناً حتى لا يعرف العذول أن هناك قلوباً تخفق بالحب فلا يفضحها ، ولـكن يمهلهـا حتى تنعم بالحب فترة من الزمن ، بل يتجاوزون هذا العبوس إلى اللوم والتعنيف،مبالغة فى التخفى والحيطة ، بل يتجاوزونه إلى القطيعة والهجر حتى لا ينكشف أمرهم بين الناس .

يقول عمر بن أبى ربيعة :

فلمــا تواقَفْنا وسلّمتُ أشْرَقتْ　　　وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبَــا لهَنّ بالعرفان لمـا رأيننى　　　وقلن: امرؤ باغ أكلّ[1] وأوضعا

ويقول العباس بن الأحنف :

الله يعـلم ما أردت بهجركم　　　إلا مساترةَ العدو الـكاشح
وعلمت أن تسترى وتباعدى　　　أبقى لوصلكِ من دُنُوٍّ فاضـح

ويقول :

يا للرجال العاشــقين تواقفا　　　وتخاطبا من غــير أن يتكلما
حتى إذا خافا العيون وأشفقا　　　جعلا الإشارة بالأنامل سُلّمـا

وإنا لنرى فى أحوال المحبين وفى أبيات الغزل كثيراً من الأمثلة ، نعرف فيهـا حدة الذهن ، وسعة الحيلة ، وقدرة الفكر والعقل .

نرى أن كثيراً من رجال الغزل يحتالون حين يزورون هوى نفوسهم ، فيتنكرون فى أزيائهم ويغيرون هيئتهم حتى لا يفتضح أمرهم ، وحتى يفوزوا بما يبتغون .

هذا جميل[2] بن معمر العذرى أتى بثينة ليلا فى ثياب راع لبعض الحى وعمّ

---

(١) أعياه السفر وأسرع فى السير .
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ١١٣

دارها سائلا ، يتظاهر أمام الناس بأنه يسأل الصدقة والعطاء وكان فى الحق يسأل الود والوصـال .

انتحى ناحية حيث كانت حبيبة قلبه تكرم ضيفانها ، ولو درت لأسرعت إليه بقلبها . وقد سألته : من أنت ؟ فقال : مسكين ! فجلس وحده ، فعشت ضيفانها وعشته وحده ، ثم جلست هى وجارية لها على صِلائهما واضطجع القوم منتحين .

وأراد جميل أن يسمعها صوته حتى تعرف أمره .

فقـال :

هل البائس المقرور دانٍ فمصطل من النار ، أو مُعْطًى لحافاً ملابسُ

فقالت لجاريتها : صوت جميل والله ! اذهبى فانظرى . فرجعت إليها فقالت : هو والله جميل ! فشهقت شهقة سمعها القوم فأقبلوا يجرون، وقالوا: مالك ! فطرحت برداً لها من حبَرَةٍ فى النار وقالت: احترق بردى، فرجع القوم ، وأرسلت جاريتها إلى جميل فجاءتها به ، وجادت له باللقاء .

انظر ماذا فعل جميل ؟ وماذا فعلت بثينة ، وكيف التقيا ؟ .

ألا يدل هذا على ذكاء ، وفطنة ، وسعة حيلة ؟

وكان العرجى[1] يحب أم الأوقص . خرج ذات يوم إلى جنبات الطائف متنزهاً فبصر بها فى نسوة جالسة فعرفها وأحب أن يتأملها من قرب،دفعته الحيلة إلى مادفعت إليه جميلا إذ رأت أعرابياً ومعه سِقاء لبن فرفع إليه العرجى ثيابه وأخذ قعوده ولبنه ، ولبس ثيابه ومر قريباً من النسوة ، فصحن به : أمعك لبن ؟. قال : نعم، ومال إليهن وجعل يتأمل أم الأوقص ، وينظر أحياناً إلى الأرض ، كأنه يطلب شيئاً، وهن يشربن من اللبن ، فقالت امرأة منهن : أى شيء تطلب يا أعرابى فى الأرض ؟ ، أضاع منك شيء ؟ قال : نعم ، قلبي . فلما سمعت أم الأوقص كلامه نظرت إليه ، وكان أزرق

---

(١) الأغانى جـ ١ ص ٣٩٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعرفته . فقالت : العرجى ورب الكعبة ! ووثبت وسترها نساؤها ، وقلن : انصرف عنا لاحاجة بنا إلى لبنك .

فمضى منصرفاً وقال فى ذلك :

أقول لصاحبىّ ، ومثلُ ما بى — شكاه المرء ذو الوجد الأليم

إلى الأخوين مثلهما إذا ما — تأوّبه مورّقةُ الهموم

لِحينى والبلاء لقيتُ ظُهراً — بأعلى النّقع (١) أختَ بنى تميم

ونرى كثيراً من رجال الغزل يحتالون فى سبيل وصال الحبيبة ، فيرسلون الرسل ويغرونهم بالمغريات ، ويرسلون لهم الفكرة الصائبة ، والحيلة البصيرة ، ويطلبون منهم الفطنة واليقظة والحذر . وهؤلاء الرسل كم يحتالون ؟ حتى يصلوا إلى مايريدون .

انظر وتأمل .

ماذا فعل قيس حتى رأى حبيبته لبنى ؟

طالت علة قيس ، وطال عذابه بفراق لبنى . فليطلب الشفاء بالقرب منها .

ارتحل إلى المدينة وأتى امرأة من موالى بنى زُهرة يقال لها — بُريكة — ولم يشأ أن ينزل رحله حتى وعدته أن تقضى حاجته كائنة ما كانت ، فنزل ودنا منها فقال :

أذكر حاجتى ؟

قالت — إن شئت .

قال — أنا قيس بن دريح .

قالت — حيّاك الله وقربك ! إن ذكرك لجديد عندنا فى كل وقت .

قال — وحاجتى أن أرى لبنى . نظرةً واحدة كيف شئت .

قالت — ذلك لك علىّ .

فأقام عندها فترة من الزمن وأخفت أمره على الناس حتى لاينكشف السر .

(١) موضع قرب مكة .

وهنا رسما الخطة ، ودبرا الفكرة ، وأعملا الحيلة .

فماذا كان ؟

كان أن زارت بريكة لبنى وزوجها ، وكان أن حملت معها كثيراً من الهدايا . وكان أن لاطفتها وزوجها بهذا ، حتى يأنس بها ، كما أشار بذلك قيس .

نفذت بريكة هذه الخطة ، وكانت لبقة فطنة ظريفة ، وأكثرت من الزيارة حتى أنس بها زوج لبنى .

وحين شعرت بريكة ببارقه الأمل قالت لزوج لبنى : اخبرنى عنك : أنت خير من زوجى ؟ قال : لا . قالت : ولبنى خير منى ، قال لها : لا . قالت : فما بالى أزورها ولا تزورنى ؟ قال : ذلك إليها .

فأتتها ، وسألتها الزيارة وأعلمتها أن قيساً عندها ، فأسرعت لبنى إلى أن تلقى حبيبها ، وكان ما كان من شكوى و بكاء ، ومن شئون وشجون .

وأنشدها هذه الأبيات التى قالها فى علة فراقها :

أعالج من نفسى بقايا حُشاشَــةٍ على رمق والعــائدات تعود

وإن ذكرت لبنى هَشِشْتُ لذكرها كما هش لِلثّدْى الدَّرور وليــد

أجيب بلبنى من دعانى تجلدا وبى زفرات تنجــلى وتعود

وماذا فعل عمر بن أبى ربيعة حتى رأى هواه كلثم المخزومية ؟

كانت كلثم[1] هذه تضرب رسل عمر وتؤذيهم حتى لا يعودوا إليها . ولكن عمر أعمل الحيلة حتى يصل إلى كلثم . ابتاع أمة سوداء . وكانت لطيفة رقيقة ، وأحسن إليها وكساها وآنسها وعرفها خبره . وقال لها : إن أوصلت لى رقعة إلى كلثم فقرأتها فأنت حرة ولك معيشتك ما بقيت . فقالت : اكتب لى مكاتبة[2] واكتب حاجتك فى آخرها .

(١) الأغانى ج ١ ص ٢٠٤

(٢) أى تكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه مقسطاً فإذا أداه صار حراً .

ففعل ذلك عمر .

وهنا جاء دور هذه الأمة السوداء ، وجاء دور لباقتها وفطنتها وذكائها .

ذهبت واستعانت ببعض بنات جنسها ، ولعلها ذكرت الحرية ، ورقّ لها قلبها حتى أدخلتها على سيدتها كلثم ، وكان أن حادثتها ولاطفتها — وكانت رقيقة فى الحديث لبقة فى الملاطفة دفعت إليها المكاتبة ، وتوسلت إليها أن تقرأها ، وأن يصيبها من هذه القراءة خير ، فعاهدتها وأعطتها الكتاب فإذا أوله :

من عاشقٍ صبٍّ يُسِرُّ الهوى قد شفه الْوَجْد إلى كَلْثَمِ
رأتك عَيْنى فدعانى الهوى إليكِ للحَيْن ولم أعلم
قَتلتنا ، يا حبذا أنتمُ ، فى غير ما جُرم ولا مأثم
والله قد أنزل فى وحيه مبيّناً فى آيةِ المُحْكَمَ
من يقتل النفس كذا ظالما ولم يُقِدْها نفسه يظلم
وأنتِ ثأرى فتلافَىْ دَمِى ثم اجعليه نعمةً تُنْعِمى
وحكّمى عدلا يكن بيننا أو أنتِ فيما بيننا فاحكمى
وجالسينى مجلساً واحدا من غير ما عارٍ ولا مَحْرم
وخبّرينى : ما الذى عندكم بالله فى قتل امرىء مُسلم

وكأن كلثم حين قرأت هذا الشعر رق قلبها ، ولكن خافت أن يكون من عمر ملقاً ونفاقاً فدفعت رسوله هذا الظن دفعاً كريماً . قالت : يا مولاتى : فما عليك من امتحانه ؟ وما زالت بها حتى أخذت منها موعداً للقاء . وتلاقيا ومكث عندها شهراً لا يدرى أهله أين هو ؟ ثم تزوجها وأنجب منها ولدين أحدهما جُوان .

فأصبحت حرة طليقة جزاء ما فعلت من حيلة وذكاء وتدبير .

واستطاع عمر بهذا كله أن يصل إلى ما يريد ، وإلى أكثر مما يريد .

والفضل فى ذلك يرجع إلى هذه الأمة السوداء ؟ ولولا ما كان لهذه الأمة

من ذكاء وفطنة وحسن تدبير ما أفلحت فى الوصول إلى ما تبغى ، ويبغى عمر .

كيف أثرت على خادم كلثم حتى أدخلتها عليها ؟

فى ذلك حيلة ، وحسن تدبير .

ثم كيف أثرت على كلثم نفسها حتى أصغت إلى قولها ، وقرأت كتاب عمر وكانت من قبل جامحة نافرة ، تؤذى الرسل ، وتكره ذكر عمر ؟

فى ذلك حيلة ، وأية حيلة !

خافت كلثم أن يكون شعر عمر فيها نوعاً من الملق والرياء لا يحمل قلباً خالصاً ، وحباً صافياً ، فعاد لها شيء من النفور والجموح ، بعد أن كاد يرق له القلب . ولكن هذه الأمة السوداء استطاعت أن تزيح عن كلثم هذا الخوف ، واستطاعت أن تزين أن تختبره ، وتمتحنه ، لعلها تظفر بخير من وراء هذا الامتحان .

وكيف تعرف الحبيبة أمر حبيبها ، وأنه جاء يسعى إليها ، طالباً ودها ووصالها .

كان لجميل[1] ابن عم أخذ يلومه على حب بثينة لوما عنيفاً ، ولما رأى ألاّ مناص من هيامه بها رقّ له وكان عونه فى رؤيتها فلجأ إلى رجل من رهط بثينة ، وأخبره الخبر واستعهده كتمانه ، وسأله مساعدته فيه .

فقال له : لقد جئتنى بإحدى العظائم . ويحك ! إن فى هذا معاداتى الحىّ جميعاً إن فطن به . فقال : أنا أتحرز فى أمره من أن يظهر . ثم أتياه وأقاما عنده ، وأرسل إلى بثينة بوليدة له بخاتم جميل ، فدفعه إليها فلما رأته عرفت وجاءته وتحدثا ليلتهما ، وفى ليال أخرى .

وفى مرة أخرى أرسل لها كثيراً يسألها موعداً ولقاء ، ولم يجعل العلامة بينه وبينها خاتما يدسه إليها بل أبياتا من الشعر تسمعها ثم يجيب على هذا السؤال ، وأبوها حاضر لا يعرف من الأمر شيئاً .

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ١٤٩

لقى جميل بثينة آخر مرة حيث كانت تغسل ثيابها فى مكان يقال له « وادى الدَّوم » فذكر هذه العلامة فى بضعة أبيات خاطب فيها عزة ، وكان الأولى أن يكون الخطاب إلى بثينة ، ولكن هى الحيلة حتى لايعرف أبوها وحتى لايفتضح الأمر . قال ينشد أباها و بثينة تسمع :

فقلت لها : ياعز أرسل صاحبى   إليك رسولا ، والموكَّل مرسَل
بأن تجعلى بينى و بينك موعداً   وأن تأمرينى ما الذى فيه أفعل
وآخرُ عهدى منك يوم لقيتِنى   بأسفل وادى الدوم والثوب يُغسل

قالوا : فضربت بثينة خدرها وقالت اخسأ اخسأ ! فقال لها أبوها مَهْيَم[1] يابثينة . فقالت : كلب يأتينا إذا نوّم الناس من وراء الرابية ، ثم قالت للجارية : ابغينا من الدومات حطباً لنذبح لكثير شاة ونشويها له ، ولكن كثيراً كان عجولا لأن صاحبه جميلا ينتظره فى شوق ولهفة ، وما كان كثير يريد قِرى ولكنه أراد موعداً لجميل . وقد ظفر بما أراد ، فليذهب إلى جميل ليزف إليه بشرى أن بثينة ستلقاه وأن موعدها الدومات. وفى هذا احتيال وذكاء . لا ينكر كثير نفسه إعجابه بهما . فيقول : مارأيت مثل علم أحدهما بضمير الآخر ! ما أدرى أيهما كان أفهم .

وكان أن تواعد عمر أبى ربيعة[2] مع بنت محمد بن الأشعث الكندية حتى يلقاها وجعل الآية بينه و بينها أن تسمع ناشداً ينشد — إن لم يمكنه أن يرسل رسولا يعلمها بمصيره إلى المكان الذى وعدها وذلك قوله :

وآية ذلك أن تسمعى   إذا جئتم ناشداً يَنشدُ

ولجأ إلى رجل اسمه بُدَيْح ليكون رسوله إليها فأبى . وقال :

مثلى لا يعين على مثل هذا .

ولكن عمر كان صاحب حيلة وفطنة ودهاء فغيب بغلته بعيداً ثم جاء بديحا

(١) كلمة يمانية معناها : ماذا بك ؟   (٢) الأغانى ج ١ ص ٨٨

نفسه ، وقال له : قد أضللت بغلتي فانشدها لي في زقاق الحاج ، وذهب بديح عن طيبة قلب فانشدها فخرجت بنت محمد بن الأشعث وقد فهمت الآية وأتت عمر لموعده وعرف بديح أن خدعه عمر ، وقال له : سحرتني وأنا رجل ! فكيف برقة النساء وضعف رأيهن وما آمنك بعدها ولو دخلت الطواف ظننت أنك دخلته لبلية !

فأنت ترى من هذا : ماذا فعل جميل حتى علمت حبيبته بحضوره ليراها ، إذ دس إليها طوراً خاتمه مع وليدة لا تكاد تبين ، وطوراً علامة ضمنها كثير بضعة أبيات من الشعر.

وماذا فعل عمر حتى علمت هواه بموعد اللقاء ، إذ دس لها من ينشد ضياع بغلته ، ولم يكن هناك فقد ولا ضياع ، بل كان موعد ولقاء !

وماذا نرى من حيل النساء ؟ وهن أصحاب فطنة وخداع وذكاء !

المرأة دائما ذات وسوسة وشك وأوهام . فهى أقرب فى حبها إلى القلق والحيرة والاضطراب . مهما أظهر الرجل من حبه وعطفه وهيامه . ومهما كان له من سقمه وصفرته ونحوله خير شاهد ودليل . فإن المرأة تتهمه بما ليس فيه ، تتهمه بكراهيتها والإعراض عنها ، وهو الذى يذوب قلبه فى سبيل حبها وتذبل زهرة شبابه كلفا بها ، وشوقا إليها .

وهل ترى مثل كثير فى حبه عزة ؟

وهل ترى مثل مجنون بنى عامر فى حبه ليلى ؟

إننا نضرب بهذا الحب أصدق الأمثال فى القوة والتماسك ووحدة البناء .

ومع ذلك لا نرى من عزة ولا نرى من ليلى قناعة ورضا ، ويذهب بهما ضعف هذا الرضا إلى اتهام صاحبيهما ، وإلى أن يحتالا حتى يعرفا مدى هذا الاتهام من خطأ أو صواب ، ومن كذب أو صدق .

وكيف السبيل ؟

أما عزة [١] فقد أغرت بثينة صاحبة جميل أن تتصدى لكثير وتطمعه فى نفسها

---

(١) الأغانى ج ٩ ص ٣٦

حتى تسمع ما يجيبها به . فأقبلت بثينة إلى كثير وعزة تمشى وراءها مختفية ، وعرضت عليه الوصل ، ولكن كثيرا كان أكثر وفاء لصاحبته وأكثر حباًلها ، فلم يحقق لبثينة سؤلها ، وأعرض عنها فى أدب ورفق وقال :

رمتنى على عمد بثينة بعد ما   تولّى شبابى وارجحنّ (١) شبابها

وقال :

ولكنما ترْمين نفساً مريضة   لعزة منها صفوُها ولبابُها

وليلى حيث كان الحب بينها و بين المجنون لا يزال غضاً حديث العهد . أرادت أن تحتال حتى تعرف مدى حبه لها وكلفه بها ، وأتاها المجنون ذات يوم وكانت تجلس بفناء بيتها وعندها جويريات يتحدثن معها ، فجعلت تُعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحدث غيره ، وزاد الطين بِلّة ، كما يقولون ، أنها أقبلت على فتى من الحىّ فحدثته فترة طويلة ، وسارّته طويلا ، وتظاهرت بمودته والاستئناس به .

فعلت ليلى هذا حتى تعرف حال المجنون ، ولم تكن حاله فى حاجة إلى معرفة و بيان ، ولكنها المرأة لا تكاد تصدق إلا بعد بحث واحتيال . أما المجنون فقد اكفهر وجهه ، وزاد وجيب قلبه ، وتطاير الشرر فى بريق عينيه ، ولم تمهله ليلى على هذه الحال طويلا شفقة عليه ، ورحمة به ، فأعلنت حبها له ، وأنشأت تقول :

كلانا مُظْهِرٌ للناس بغضاً   وكلٌ عند صاحبه مكين

تبلغنا العيونُ بما أردنا   وفى القلبين ثَمّ هوًى دفين

وتمكن الحب بين قلبيهما وأصبح لنا فى هذا الحب أصدق الأمثال .

وترى نوعاً آخر من حيل النساء لا تبلو به المرأة حبيبها ، ولكن تصونه من العدوان والأذى .

كان توبة بن الحُمَيِّر يحب ليلى الأخيلية ، وكان يلقاها حتى شهر أمره فعاتبه

---

(١) اهتز شبابها نضارة وحسنا .

أحوها وقومها فلم يُعْتِب[1]، وشكوه إلى قومه فلم يقلع، فتظلموا إلى السلطان فأهدر دمه إن أتاهم، وعلمت بذلك ليلى .

وكيف تخبره ليلى ؟ وكيف تحتال فى هذا الخبر ؟

إن زوجها كان غيوراً عليها، وحلف لئن لم تعلمه بمجيئه ليقتلنها، ولئن أنذرته بذلك ليقتلنها . وكان من عادتها أن تتبرقع حين تلقاه .

وخرج ذات مرة إليها وكان أهلها يرصدونه وخافت عليه السوء والأذى فخرجت وجلست فى طريقه، ولما اقترب منها ألقت البرقع عن رأسها، ففطن لما أرادت وعلم أن قومها يتربصون به، وكرّ راجعاً، وبذلك نجا من الموت .

وفى ذلك يقول :

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت ... فقد رابنى منها الغداةَ سُفُورُها

ولولا فطنة توبة، ولولا حيلة ليلى لكان البلاء العظيم .

ثم اقرأ هذه الأبيات لعمر بن أبى ربيعة :

لما وقفنا نُحيِّيهم وقد صرخت ... هواتفُ البين واستولت بهم أُصُلا[2]

صدّت بِعَاداً وقالت للتى معها ... بالله لوميه فى بعض الذى فعلا

وحدثيه بما حُدِّثْتِ واستمعى ... ماذا يقول ولا تَعْيَيْ به جَدَلا

حتى يرى أن ما قال الوشاة له ... فينا لديه إلينا كلُّه نُقِلا

وعرفيه به كالهزل واحتفظى ... فى بعض مَعْتَبَةٍ أن تُغضبى الرجلا

فإنّ عهدى به والله يحفظه ... وإن أتى الذنبَ ممن يكره العَذَلا

لو عندنا اغتيب أو نِيلت نقيصته ... ما آب مُغْتَابُه من عندنا جَذِلا

قلت اسمعى فلقد أبلغْتِ فى لَطَفٍ ... وليس يخفى على ذى اللُّب من هَزَلا

هذا أرادت به بُخلاً لِأعْذِرها ... وقد أرى أنها لن تَعْدَم العِلَلا

(١) أى لم يرضهم.

(٢) جمع أصيل وهو العشى.

ما سُمِّيَ القلب إلا من تقلّبه ... ولا الفؤاد فؤاداً غير أن عقلا

هذه الأبيات قالها عمر فى وداع الثريا ، حين انتقلت إلى الشام مع زوجها سُهَيل بن عبد العزيز .

إقرأ هذه الأبيات ، وتأمل هذه الألفاظ :

لا تَعْنِيَنْ به جدلا . وليس يخفى على ذى اللب من هزلا . أرادت به بخلا لأعذرها . لن تعدم العللا . ولا الفؤاد فؤاداً غير أن عقلا .

ألا تدل هذه العبارات على سعة الحيلة ، و يقظة العقل ؟

إذا وقعت خصومة بين المحبين فالغلبة لمن يتسلح لها بالحيلة والفطنة ،وفصاحة القول .

و إذا جرت بينهم أحوال فإن ذا اللب يستطيع أن يميز الخبث من الطيب ، وأن يعرف الجد من الهزل .

و إن المرأة فى كثير من شجون الحب تتلمس الأسباب ، حتى يكون لها العذر فى الصد والهجران .

و إن للمحبين عقولا ، وعقولا مرهفة ، تستطيع أن تدرك بها الأمور ، وأن تتبين الحق من الباطل .

ثم تأمل القضية التى تحدثنا عنها هذه الأبيات :

أو بعبارة أخرى كيف تكون المرأة واسعة الحيلة ، إذ تتهم الرجل ليكون لها العذر فى أن تجفوه ، وكيف يدفع الرجل عن نفسه هذه الآثام ؟

تقسو المرأة على حبيبها وتهجره تدللا منها وتجنياً ، وقد يتذلل لها الرجل و يتوسل ، فتمعن هى فى الجفوة والهجر ، حتى يزداد بها الرجل كلفاً كما قال الشاعر :

وزادنى شغفاً بالحب أن منعت ... أحبُّ شىء إلى الإنسان ما مُنعا

وكذلك حبيبة عمر تهجره ، ولا تجود له بالوصل ، ثم ترسل إليه رسولا تلومه وتعنفه وتزجره .

مادا فعل عمر حتى يلقى هذه العاصفة من اللوم والتقريع ؟

لم يفعل شيئاً .

ولكنها المرأة تمعن فى تعذيب الرجل ، وفى اتهامه بالسوء حتى يعود إليها أكثر ما يكون تذللا وتوسلا .

أرسلت إليه رسولها بعد أن أوحت إليها أن تكون فَطِنة حذِرة ، وأن تكون أمينّة رقيقة ، حتى لا تثير غضبه ، فإنه يكره العذل ، وأوصتها أن تبثه هذه الدعوى التى تتلخص فى أن الوشاة سبّوها لدى عمر وانتقصوها ، وأساءوا إليها واحتمل عمر هذه الإساءة ، كأنه يصدقها ، فلم يدفع عن الثريا هذه المنكرات ، وان هذا الكلام نقل إليها من صدوق أمين ، دون زيادة أو نقصان .

كيف يغضى عمر عن قول الوشاة ؟ إنه لظلوم .

وكيف لايفعل مثل فعلها، إذا جاءها واش ينتقصه ؟ فإنه لايعود إلا كئيباً حزيناً.

إنه إذن كاره ، جافى القلب ، يستحق منها البعد والصد ، والهجران .

هذه هى الدعوى وتلك هى المدّعية .

فماذا يرى المدّعى عليه ؟

يرى عمر أن ذلك كله حيلة ، لا تجوز فى شِرْعة العقلاء .

قلت : اسمعى فلقد أبلغت فى لطف ولبس يخفى على ذى اللب من هزلا

ويرى أن الثريا بهذه الحيلة تريد أن تبرر أمامه هجرها له وبعدها عنه ، حتى يكون لها العذر فيا فعلت ، وذلك شأنها تلجأ إلى الحيلة ، حين تضيق بها السبل .

هذا أرادت به بخلا لأعذرها وقد أرى أنها لن تعدم العللا

ويرى أن للرجل عقلا ينير له مسالك الحياة ، ويجنبه مواطن التلف والخطل .

وعقل عمر لا يصدق هذه الأحابيل ، ولا تجد إلى عقله سبيلا .

واقرأ ما يقول أبو نواس[1] :

لما جفاني الحبيب وامتنعتْ ... عني الرسالات منه والخبرُ
واشتد شوقي فكاد يقتلني ... ذكرُ حبيبي والهم والفِكرُ
دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له ... في خلوة والدموع تنحدر
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد ... أقْرح جَفْني البكاء والسَّهَر
إن أنت لم تُلْقِ لي المودة في ... صدر حبيبي وأنت مقتدر
لا قلتُ شِعراً ولا سمعتُ غِنًا ... ولا جرى في مفاصِلي السَّكَر
ولا أزالُ القرآنَ أدرسُه ... أرُوحُ في درسه وأبتكر
وألزَمُ الصومَ والصلاةَ ولا ... أزال دهري بالخير آتمر
فما مضت بعد ذاك ثالثةٌ ... حتى أتاني الحبيبُ يعتذر
ويطلب الودَّ والوصالَ على ... أفضل ما كان قبلَ يَهتَجِرُ[2]
فيا لها منّةً لقد عَظُمَتْ ... عندي لإبليس ما لها خَطَرُ

ألا تضحك معي حين تقرأ هذه الأبيات ؟ لأنها تدل على ظرف ودعابة حلوة .
ثم ألا تعجب معي حين تقرأ هذه الأبيات ؟ لأنها تدل على معنى دقيق ، وتصوير رقيق وخيال جميل .

ثم تدل على يقظة واحتيال ، وحسن تدبير .

أبو نواس هجره الحبيب فماذا يفعل ؟

يشتد به الشوق حتى كاد يقتله ، فهل يسلم نفسه إلى الرضا والخنوع ؟

ليس أبونواس بالرجل الخامل ، حتى يقنع بالذل والهوان ، وليس بالرجل الغافل الذي تعييه الحيلة ، وينقصه الرأي السديد .

لابد أن يحتال حتى ينعم برضا الحبيب .

---

(١) عصر المأمون ملحق ج ٣ ص ٢٣٣

(٢) يقال هجره واهتجره بمعنى جفاه .

فكيف الحيلة ؟

يعرف أن إبليس يغرى الإنسان و يغويه حتى ينساق إلى هواه .

فلم لا يتخذ من الشيطان رســوله للحبيب ، حتى يزين له الوصال بعد الجفوة ، والرضا بعد الصدود ؟

فكيف وصل أبو نواس إلى الشيطان ؟

دعاه فى خلوة ، وبكى بين يديه ، وكشف له عن آلامه وأســقامه ، لعله يرق ويرحم .

ثم بيّن أنه من أشياعه وأتباعه ، فهو يقول الشعر و يسمع الغناء ، ويحتسى الخمر ، ومن الحق على إبليس أن يساعد شيعته وتابعيه .

ثم أنذره إن لم يكن رسوله إلى حبيبه أن يتخلى عن نصرته وتأييده ، بل يجاهده و يغالبه ، فيقرأ القرآن ، و يلزم الصوم والصلاة ، و يفعل الخير .

رقّ إبليس لرقة حاله ، وخاف أن ينتقص واحداً من مريديه ، فأتى الحبيب ، وأخذ يوسوس له ، حتى جاء بعد قليل من الزمن ، يعتذر إلى أبى نواس ، وكان من قبل أبياً جموحاً .

ثم اقرأ مايقول بشار(١) :

يا مَنْظَراً حسناً رأيْتهُ ... مِن وَجهِ جارية فَدَيْتهُ

بعثت إلىّ تســومُنى ... ثوبَ الشَّباب وقدطويتهُ

واللهِ ربِّ محمــدٍ ... ماإن غدرت ولا نويتهُ

أَمْسَكْتُ عنكِ وربما ... عَرَضَ البلاءُ وَما ابْتَغيتهُ

إن الخليــفة قد أبى ... وإذا أبى شــيئاً أبيتهُ

(١) عصر المأمون ملحق ج٢ ص٢٦٥

ومُخَضَّبٍ[1] رَخص[2] البنا ... ن بكى علىّ وما بكيته
ويشوقنى بيتُ الحبيب ... إذا أُدّكرتُ وأين بيته
قام الخليفــةُ دونه ... فصبرت عنه وماقليته
ونهــانىَ الملك الهمام ... عن النساء وما عصيتهُ
لا بل وَفَيْتُ فلم أُضِعْ ... عهداً ولا رأياً رأيتــهُ

فإنا نرى بشاراً وقد منعه المهدى عن الغزل كيف يكدح الذهن ؟ وكيف يحتال حتى يقول هذا الشعر .

وفى هذا الشعر غزل .

فيه ذكر لجمال المرأة وأنه يفدى هذا الجمال بروحه .

وفيه ما يقع بين المحبين أول الأمر من سوم ، و إغراء ، ومناغاة .

وفيه شوق لبيت الحبيب وما فى هذا البيت من ذكريات وشجون .

أليس هذا كله غزلا ؟

بلى . . !

ولـكن بشاراً كان ماكراً خبيثاً فتظاهر بأنه أعرض عن هذا طاعة للخليفة و إذعاناً لأمره .

خاف بشار أن يناله من المهدى مكروه ، ومال إلى أن يشبع فى الغزل هوى نفسه ، فتلطف ، وتحايل، حتى كان منه غزل على هذه الصورة الرائعة الجميلة فلم يغضب الخليفة ولم يتعرض لأذاه .

ونرى فى شعر الغزل أمثلة كثيرة نقرأ فيها كلمات الحيلة والعقل ، والعلم ، والجهل ، بل نرى أن بعض الشعراء يضيق ذرعاً وينشد الناس أن يبتغوا له حيلة ، حتى يصل إلى حب المرأة ورضاها .

---

(١) خضب يده بالخضاب لونها .   (٢) رخص البنان : ناعم لين الملمس .

قال الشاعر [١]:

شكوتُ فقالت كلُّ هذا تبرُّمٌ ... بحبى أراح الله قلبكَ من حبى
فلما كتمتُ الحب قالت لَشَدّ ما ... صَبَرتَ وما هذا بفعل شجى القلب
وأدنو فتقصينى ، فأبعد طالباً ... رضاها فتعتد التباعد من ذنبى
فشكواى تؤذيها وصبرى يسوءها ... وتجزع من بعدى وتنفر من قربى
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها ... أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربى

وقال الأعمى التُّطيلى [٢]:

فانظر بعقلك إن العين كاذبة ... واسمع بقلبك إن السمع خوّان
ولا تقل كلُّ ذى عين له نظر ... إن الرعاة ترى ما لا ترى الضان

وقال العباس بن الأحنف [٣]:

لو كنتِ عاتبةً لسكّن رَوْعَتى ... أملى رضاك وزرتُ غير مُراقب
لكن مَلِلْتُ فلم تكن لى حيلةٌ ... صدُّ المَلول خلاف صدِّ العاتب

وقال إبراهيم الموصلى [٤]:

وعلمتنى كيف الهوى وجهلته ... وعلّمكم صبرى على ظلمكم ظلمى
وأعلم مالى عندكم فيردّنى ... هواى إلى جهلى فأرجع عن علمى

وقال قيس بن الملوح — المجنون — :

خليليَّ هل من حيلة تعلمانها ... يدنّى لنا تكليمَ ليلى احتيالُها
فإن أنتما لم تعلماها فلستما ... بأول باغٍ حاجةً لا ينالها

وقال عمر بن أبى ربيعة :

فقمن وقد أفهمن ذا اللُّب أنما ... أتين الذى يأتين من ذاك من أجلى

---

(١) تزيين الأسواق ص ١٠ (٢) بلاغة العرب ص ٦٩
(٣) الأغانى ج ٨ ص ٣٥٥ (٤) معجم الأدباء ج ١ ص ١٨٠

ولعل القارىء حين يدرك هذا كله يؤمن معى أن للعقل شأناً عظيما فى الغزل ، وأن المحب إذا لم يكن ذا فطنة ، وذكاء وحيلة ، وتدبير ، لم يكن أهلا لهـذا الغزل .

وقد قدمت لك أن من شئون الغزل ما يتطلب الفطنة وسعة الحيلة ، وأن فى لغة الغزل إشارات وحركات يتطلب فهمها فطنة وسعة حيلة ، وأن فى شعر الغزل ما يصف رجال الغزل ونساءه بالفطنة وسعة الحيلة . وفوق ذلك فالغفـلة صفة ذميمة لا يرضاها المحب فى حبيبته ولا الحبيبة فى محبوبها ، ومن شـأن المحبين أن يتجافوا كل ما هو ذميم سقيم .

وفى حياة الغزل سمو وفن وجمال ولا يحيا هذه الحيـاة ولا ينعم بظلالها الوارفة الـكريمة إلا الأذكياء النابهون .

قلنا إن من أثر الغزل العاطفة . ونقول هنا إن من أثره العقل أيضاً .

وقد يصح أن نتساءل :

كيف يجتمع القلب والعقل فى الغزل؟ وهما أمران قد يكون بينهما شىء من التباعد والتنافر . فذو العاطفة يصبح أسير عاطفته ، لا يبالى ما تأتى به صروف القدر ، لا يفكر فى شىء إلا فى أن يروى ظمأه ، و يشبع غليله ، وذو العقل يزن مسائل الحياة وزناً دقيقاً و يحسب لـكل شىء حسابه ، ولا يأبه فى كثير لمسائل القلب والروح .

لا شك فى هذا التباعد بين القلب والعقل ، ولـكنى لا أرى هذا التباعد بينهما فى حياة الغزل ؛ بل أرى أنهما يتساندان و يتعاونان لخير الرجل والمرأة ؛ ذلك أن القلب إذا غلبه الحب فإن العقل لا يعرقل هذا الحب ، ولا يقف فى سبيله ، بل يسعى جاهداً فى أن يغذى عاطفته ، و يحقق لها ما ترنو إليه وتصبو .

الفصل الثالث

الطموح

الطموح هو الرغبة فى الوصول إلى الأمل البعيد .

وفى سبيل تحقيق هذا الأمل لا بد أن يركب صاحبه الأخطار والأهوال .

فالجندى فى ساحة القتال حين يكون بعيد الأمل لا بد أن يجاهد و يناضل ولو أدى ذلك إلى حتفه وهلاكه . وحينئذ يكون له الفوز والنصر المبين . فإذا خاف الشدائد ، وتقاعس منه العزم وفترت الهمة أصابته الخيبة والإخفاق .

وكذلك المحب حين يهفو قلبه إلى الحبيب لابد أن يكون طموحاً حتى يظفر بتحقيق ما يريد .

فإن فى الحب آلاما . و إن فى الحب أهوالا . و إن فى الحب نضالا . فإذا لم يكن المحب طموحاً وقف عند أول صدمة يلقاها من الحبيب و بذلك يموت حبه قبل أن يولد وتنطفىء جذوته قبل أن تشتعل .

أما إذا كان طموحاً فإن عزمه لن ينثنى ، وإن قوته لا تضعف أمام غصص الحب ، مهما كانت مريرة المذاق ، فإن قوة عزمه تصهر الخطوب ، وإن نور أمله ليكشف له ظلام الطريق ، و يهديه سواء السبيل .

يلقى من الحبيب هجراً طويلا ، فيحتمل ، حتى تدنو ساعة الوصال .

يقف العواذل بينه و بين الحبيب سداً منيعاً ، فلا يقنط من رحمة الله ، بل يجاهدهم حتى يظفر باللقاء .

يقسو الأهل والأقرباء و يلومونه كما يلومونها ، و يقفون حجر عثرة فى سبيله كما

---

(١) مثيرة الأحزان .

يقفون فى سبيلها . ولكن الأمل يحدوها إلى تحطيم هذه الأحجار حتى تتلاقى القلوب .

يحولون بينه و بينها ، بالرحيل تارة و بالزواج طوراً ، وهم بذلك يحولون بين الأجسام أما الأرواح فهى تتآخى وتتناجى . حتى الأجسام لايحولون بينها . فإنه يرتحل إليها و يتحمل عناء السفر حتى يلقاها وتلقاه .

ما أكثر قيود الحب !

وما أكثر آلامه !

والرجل الطموح تهون أمامه عظائم الأمور . و بسمة الآمال يهون أمامها كل صعب جموح ، فما بالنا إذن نسخر من هؤلاء الأحباب ، ونرميهم تارة بالسفه ، وتارة بالخبل ، وتارة بالجنون ؟ .

ولم لا نقول : إن لهم فى الحياة رسالة عقدوا العزم على أدائها ، يسوقهم الأمل ، و يحدوهم الرجاء ؟

ولكنها رسالة شاقة عنيفة لأنها نتصل بالقلب ، تتصل بالروح ، تتصل بالمرأة وهى سر الحياة . صدمتهم فى هذه السبيل رياح عاصفة هوجاء ، فأبلوا فى كفاحها بلاء حسناً ، نشيد الآن بآثاره ، ونتحدث عن ذكراه .

و إنا لنرى فى الحب ضروبا من الطموح .

فالمحب لا يفتأ يطلب حبيبه ، ويجاهد فى سبيل طلبه ، ولا يجد اليأس سبيلا إلى قلبه حتى يظفر بلقائه .

يقول جميل العذرى :

أفق أيها القلب اللجوج عن الجهل   ودع عنك جُملا لاسبيل إلى جُمْل

فلو تركتْ عقلى معى ما طلبتها   ولكن طِلابيها[1] لما فات من عقلى

---

(١) طلبى إياها .

و يقول قيس بن ذريح :

خليلى إنى ميت أو مُكَلَّمٌ   لُبَيْنَى بسرّ فامضيا وذرانى

و يقول عمر بن أبى ربيعة :

أمْسَى بأسماء هذا القلب معموداً   إذا أقول صحا يعتاده عيداً

أجْرِى على موعد منها فتُخلِفُنى   فما أمل ولا تُوفى المواعيدا

و يقول أبو نواس :

ألم تر أننى أفنيت عمرى   بمطلبها ومطلبها عسير

فلما لم أجد سبباً إليها   يقربنى وأعيتنى الأمور

حَجَجْتُ وقلت قد حجّت جِنَانٌ   فيجمعنى وإيَّاها المَسير

فإن جميلا يأبى عليه طموحه إلا أن يطلبها ،وأن يسعى فى طلبها، ولوكانت عزيزة المنال . وكأنه شقى بهذا فيخاطب قلبه اللجوج بأن يرعوى عن حبه . ولكن هيهات! و يعلل طلبه إياها بأنها سلبته عقله ، والأمر ليس كذلك . إنما هو الطموح يدفعه إلى أن يراها ، ولو أباح الوالى قتله إن فعل .

وقيس — كما حدثنا الرواة — حين قال هذا البيت — يرتحل متعللا بالصيد ليرى لبنى ، فلما أعياه الجهد ،ولم يرها ، ولم يجد من يرسله ، قال له رفاقه : قد عرفنا ما أردت بإحراجنا معك . إنك لم ترد الصيد و إنما أردت لقاء لبنى . وقد تعذر عليك فانصرف الآن . ولكن طموحه أبى عليه أن يبرح المكان حتى يراها ، وقد تم له ما أراد .

وعمر لا يمل محبوبته مهما تجنت وأخلفت فهو لا يزال يطلب وصالها حتى يظفر به .

وأبو نواس أعيته الأمور فى طلبها ، ولكن أبى عليه طموحه إلا أن يجتمع بها فى الحج إلى بيت الله . والمحب يعيش بالأمل فى وصال الحبيب ، الذى يراه قريباً و إن رأوه بعيداً ، والذى لا يقنع فيه بالقليل ، والقليل منه جميل .

ويقول مُحْرز[١] العُكْلى :

كفى حَزَنا ألا يزال يعودنى على اليأس طيفٌ من خيالكِ يا نُعْمُ
وأنتِ مكان النجم منّا وهل لنا من النَّجْم إلا أنْ يُقابلنا النجم

ويقول ابن الرومى :

سَعِـدَت مقلتى بوجهكِ لولا أنهـا أعقبت بطـول السهاد
ليس فيما كسيت من حلل الحسن ولا فى هواى من مسـتزاد

ويقول عمر بن أبى ربيعة :

فَعِدِى نائلا وإن لم تنيـلى إنه ينفـع المحبّ الرجاء

ويقول كثير :

ولست براضٍ من خليل بنائل قليـلٍ ولا أرضى لـه بقليـل

ويقول جميـل :

وقد تلتقى الأشتات بعد تفرق ولا تُدْرَكُ الحاجات وهى بعيد

يرى محرز أن محبوبته منه بمكان النجم يقابله وينعم برؤياه .

وابن الرومى يرى أنها بالغة فى الحسن والجمال إلى حد أنه لا يقبل المزيد .

والمحب كما يقول عمر ينفعه الطموح ، ولذا يطلب من حبيبته أن تعده بالوصال ولو لم تجد به .

والمحب كما يقول كثير طموح لا يرضى فى هذا الوصال بالقليل .

وطموح المحب كما يقول جميل يحمل صاحبه على أن يرتقب اللقاء بعد طول افتراق ويدرك الحاجة ، ولو كانت بعيدة المنال .

والمحب طموح يترفع بحبيبته إلى مكان رفيع كريم ، فهى تسكن السماء ، وهى فائقة الحسن والجمال ، وهى سيدة الناس ، وهى أكرم من أن تباع وتشترى بالمال .

---

(١) الأمالى ج ٢ ص ٢٦

يقول العباس بن الأحنف :

هى الشمس مسكنها فى السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

و يقول عمر بن أبى ربيعة فى زينب بنت موسى يذكر نسوة معها :

قد وزن بالحسن والجمال معاً وفزن رِسْلاً بالدَّل والخَفَر

يُنصتن يوماً لها إذا نطقت كيما يُشرفنها على البشر

و يقول قيس بن الملوح — المجنون — فى حبيبته ليلى :

ألا إن ليلى كالمنيحة [1] أصبحت تَقَطَّعُ إلاَّ من ثَقِيفٍ حبالها

فقد حبسوها مَحْبَسَ البُدن وابتغى بها الربح أقوام تساحت [2] مالها

نرى أن العباس يسمو بحبيبته ، فيجعل لها فى السماء مسكناً.

و يريد بهذا أن يجعلها عزيزة المنال ، وأنه ليس بمستطيع أن يصعد إليها ، وليست بمستطيعة أن تنزل إليه ، ولا أظن العباس وهو الصب المتيم يقف حيال محبوبته هذه عاجزاً ، ولا بد أن سيسعى لها مهما طال به الجهد ، حتى يصل إلى عليائها و يناجيها وتناجيه .

ونرى عمر يصف مجلس نسوة ، وهن يتحدثن وبينهن محبوبته ، وإنه ليسمو بهذه المحبوبة حتى يجعلها سيدة الناس ، تتحدث فيصغى إليها النسوة كما يصغى المحكوم إلى الحاكم والرعية إلى الراعى .

أما قيس — المجنون — فإنه يسخر بالمال ويهزأ بهؤلاء الذين يعتبرون المرأة سلعة تباع وتشترى . فإنهم قد زوجوا ليلى إلى رجل من ثقيف دفع من المهر قدراً عالياً ، تزوجها وارتحل بها . ليلى حبيبة نفسه يحبسونها كما تحبس الناقة التى لا تملك من أمرها

(١) المنيحة : — بفتح الميم — الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلا يشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع اللبن ، وكثر استعمالها فى كل موهوب .
(٢) من السحت وهو المال الحرام .

حولا ولا قوة ، يحبسونها كارهة مرغمة لأنها أسلمت قلبها إلى قيس ، ولا ترضى سواه بديلا . من أجل قليل من المال يحبسون هذا القلب النقى الصافى بعيداً عن حبّه وهواه ألا بئس هذا المال !

لقد صدق قيس إنه يسمو بالحب فوق ما فى الدنيا من عَرَض ومال ، إنه لا يباع بثمن، ولا يعدله جزاء .

والحب طموح يرتفع بحبه إلى المثل الأعلى . فحبه لا يماثله حب ، ولا يبلى إذا طال به العهد . هو امتزاج بين روحين لا يفصم الموت عراه .

يقول وضاح اليمن فى حبيبته روضة .

نست ما كان قبلنا من هوى النا ... س فما قست حبها بمثـال
لم أجد حبها يشاكله الحب ... ولا وجدنا كوجد الرجال
كل حب إذا استطال سَيَبْلى ... وهوى روضة المنى غيرُ بالى
لم يزده تقادم العهد إلا ... جِدَّةً عندنا وحسن احتلال

ويقول قيس بن ذريح :

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ... ومن بعد ما كنا نطافاً وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً ... وليس إذا متنا بمنصرم العهد
ولكنه باق على كل حادث ... وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

نرى فى هذه الأبيات أن وضاحاً إذا قاس حبه فى روضة بحب من كان قبله من الناس لم يجد له مثيلا ، وأن حبه لها غير بال ، بل يزيده تقادم العهد جدة ونماء .

أما قيس فإنه قد جعل حبه امتزاجاً بين روحين ، قبل أن يخلقا وفى النطفة والمهد . ثم جعله باقياً خالداً لا تجوز عليه أحداث الزمن من زوال وفناء .

هذا و إن المحبوب ليتسامى فى جميع صفاته وأحواله حتى ينال رضا الحبيب فهو يكون دائماً مثال الأناقة فى هندامه ، مثال الرقة فى حديثه . مثال النبل فى سجاياه . يطلب العلا و يسعى إلى المجد حتى يرضى طموح نفسه، وحتى تحمد عند الحبيب معائله . وصدق كثير إذ يقول :

و يرتاح للمعروف فى طلب العلا   لتُحْمَدَ يوماً عند ليـــلى شمائله

الفصل الرابع

التضحية

كل شيء فى هذه الحياة يحتاج إلى طلب ، وكل طلب يحتاج إلى كد وعمل ، ويلقى الإنسان فى سبيل هـذا العمل كثيراً من الصعوبات والمشقات . فإذا احتملها ، وإذا ذللها ، وإذا غلبها فهو ذو العزم وهو ذو التضحية والقوة . وإذا لم يحتملها وناء بأعبائها الثقال فهو ضعيف النفس ، فاتر الهمة . وسيكون له هـذا الحظ المنكود من الخيبة والإخفاق .

وقد عرفت فيما سبق أن للمحبين طموحاً ، يدفعهم هذا الطموح إلى الكد والجهد والعمل، حتى يصلوا فى حبهم إلى تحقيق ما يريدون ، أو حتى ينالوا رضا الحبيبة ووصالها ودون هذا الرضا أحمال ثقال ، وأهوال جسام .

فى الحب لذة ومتعة ، تدفع بالأحباب أن يضحوا بالرخيص والغالى .

فى الحب صفاء ووفاء . يدفع بالمحبين أن يضحوا بما ملكت أيديهم ، ولو كانت أرواحهم ، وهى أغلى ما فى الوجود .

فى الحب أعمال تتطلب الجهاد العنيف ، والعزم القوى ، والتضحية البالغة ، والشجاعة النادرة .

فماذا يفعل المحبوب حين يفارقه الحبيب ؟

وماذا يفعل المحبوب حين يهجره الحبيب ؟

إنه يتوجع ويتألم ، ويشوقه الحنين إلى أن يذكره وأن يتصوره ، وقد يجره ذلك إلى أن يهجر النوم ، ويرعى النجوم ، وأن يرتحل وينتقل ، حتى يراها وتراه ، ويلقى فى رحيله ضروباً من المصاعب والآلام .

وكم فى هذا من أكدار يشقى بها الحبيب ! .

إنها ستنال من راحته فلا يطيب له عيش ، ولا يهدأ له بال .

إنها ستنال من جسمه فهو مصفر الوجه ، ناحل الجسم ، دامع العيون .

ولكن المحبوب يضحى فى سبيل الحبيب ، فيحتمل هذه الأكدار ، ويأسو هذه الجراح .

وماذا يفعل المحبوب حين يرقبه العواذل ، وحين يرصده الأهل والأقارب ؟

إنهم يضيقون عليه الخناق ، ويحيطونه بألوان من القلق والفزع ، والتهديد والوعيد.

إنهم يطلبون دمه ، ويجدون من الحاكم عوناً على إهدار هذا الدم البرىء ، فلن يكون منهم قصاص ، ولن ينالوا جزاء .

ولكن يضحى المحبوب فى سبيل الحبيب . فليحارب هؤلاء جميعاً ، وليغالب هؤلاء جميعاً . وكم يلقى فى هذه الحرب وفى هذا الغلاب ضروباً من المحنة والبلاء ؟

بل إنا لنقرأ فى سير الأحباب أن كثيراً منهم قد لقى حتفه فى سبيل الحب . ليس هناك دليل أبلغ فى التضحية من أن يجود المحبوب بنفسه ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

وإذا كان لنا أن نطرب لهذا الفتى الذى خرّ فى ميدان الوغى ، دفاعاً عن الوطن ، فلم لا نطرب لهؤلاء الذين خروا صراعاً فى ميدان الحب وفاء للحبيبة .

إن هؤلاء جميعاً كبار النفس ، عظام الآمال ، ذوو عزم وشجاعة .

فلم لا نطرب لهؤلاء الأحباب الذين ماتوا فى سبيل الحب ، ماتوا أطهاراً أبرارا ، ماتوا كراماً أحرارا . فلنترحم عليهم ، ولنقرأ فى صفحات حياتهم مثلا كريمة للتضحية فى البطولة والشجاعة .

وإن الحديث عن التضحية يتطلب الحديث عن الشجاعة . فالشجاعة تدفع المحب إلى أن يجاهد ويغالب ، إلى أن يناضل ويقاتل ، وفى ذلك مصائب وآلام ، فهو يضحى

باحتمالها وبما يلقى فى سبيلها . أما الجبـــان الرعديد فإنه يخاف هذه الآلام ومرارتهـا فى النفس ، ويدفعه هذا الخوف إلى أن يحجم ويستسلم ، إلى أن يقنع بالقليل ، وأن يرضى بالذل والهوان .

ولذلك نرى المحبوب يفخر بشجاعته ، وهو أهل لهذا الفخار ، وهذه الشجاعة هى الوســيلة التى تجعله يحتمل آلام الحب وصراع الهوى ، ولولا الشجاعة ما استطاع إلى حياة الحب سبيلا .

كيف يرضى المحبوب حبيبته إذا لم يكن شجاعاً ، يغالب آلام الهجر والفراق ، والتدلل والتمنع ؟

كيف يرضى المحبوب حبيبته إذا لم يكن شجاعاً يغالب آلام السفر ، وآلام السهر ، ويجاهد قسوة الرقباء من العواذل والأقرباء ؟ .

إنه لن يستطيع ذلك إلا إذا كان له من الشجاعة حظ كبير .

كم ينال المحبوب رضا حبيبته إذا عرفت أنه شجاع لا يخاف الردى ، ولا يهاب المنون ! ذلك لأن الحبيبـة يروقها أن يكون حبيبها سباقاً إلى كل حميد كريم ، ولن يكون ذلك إذا لم يكن شجاعا .

والحبيبة يروقها أن يتفانى الحبيب فى حبها ، وأن يجاهد فى هذه السبيل جهادا شاقاً عنيفاً . ولن يستطيع ذلك إذا لم يكن شجاعاً .

وكم كان لهذا أثره فى نفوس المحبين ، فهم يخاطرون لينالوا رضا الحبيب .

وهم يبالغون فى هذه المخاطرة حتى يكون لهم من هذا أوفى نصيب . بل كم دفع هذا الشعور إلى الغلبة والفوز ! .

***

ولعلك تقرأ فى أحوال المحبين وفى شعر الغزلين بعض هذه الألوان التى تحدثنا عنها فى معانى التضحية والشجاعة .

فالمجنون — قيس بن الملوح — فى سبيل لقاء حبيبته ليلى كان يغشى بيتها رغم أنهم كانوا يحولون بينه و بينها . ولم يكفهم ما كانوا يفعلون به من عنت وأذى فشكوه إلى الوالى فأهدر دمه ، ولما أخبروه لم يرعه ذلك ، وقال : الموت أروح لى فليتهم قتلونى ! .

وكان من أثر الحب فى نفسه أن أصابته لوثة فى عقله فترك الطعام والشراب . فذهبت أمه إلى ليلى . وقالت لها : إن قيساً قد ذهب حبك بعقله ، وترك الطعام والشراب فاو جئته وقتاً لرجوت أن يثوب إليه بعض عقله . فقالت ليلى : أما نهاراً فلا آمن قومى على نفسى ولكن ليلا . فأتته ليلا ، وتحدثا طويلا ، ونصحته أن يتقى الله ، وأن يبقى على نفسه . ولعله كان آخر لقاء بينهما .

وجميل العُذرى لقى حبيبته بثينة ذات يوم وأخذا يتحادثان أحاديث الهوى وكان الحديث طويلا ، لأنه كان بعد غيبة وفراق ، فطال غياب بثينة . ولما طال غياب بثينة عن بيتها بحث عنها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما حيث كانا يلتقيان . ولكن شجاعة المحب غلبت شجاعة الأخ والأب فوثب عليهما جميل ، وانتضى سيفه ، وشد عليهما فاتقياه بالهرب وأخذت بثينة تنشده أن ينصرف وتقول له : إن أقمت فضحتنى ، ولعل الحى أن يلحقوك ، ويأبى جميل الهرب ويقول لها : أنا مقيم وامضى أنت وليصنعوا ما أحبوا ، وما زالت تناشده وتتوسل إليه حتى انصرف .

وذهب فى يوم آخر ومعه صديق له ليرى بثينة وقد أجهدهما السفر وما أصابهما من جوع وعطش ولما كان اليوم الثالث من سفرهما ألقيا عصا التسيار وكان الرجال غُيّباً ، وأخذ جميل يتحدث إلى نسوة الحى ، ولكن الحديث لم يدم طويلا فأقبل جماعة من الرجال ، وكان الوالى قد أباح دمه إن وجد فى بلادهم ، فقالوا له : ويحك انج وتقدم ! فهزىء بهم وسخر منهم . وكان بينه و بينهم جهاد ونضال أبلى فيه بلاء حسناً ، ثم قفل راجعاً بعد أن ذاق من هذا النضال أهوالا ، و بعد أن سار ست ليال وستة أيام ما التفت إلى طعام .

وأراد الخروج إلى الشام فهجم ليلا على بثينة فقالت له :
أهلكتني والله ، وأهلكت نفسك ! ويحك أما تخاف ؟ فقال لها : هذا وجهى إلى الشام إنما جئتك مودعاً ، فحادثها طويلا ، ثم قال لها وهو يبكى :

ألا لا أبالى جفوة الناس ما بدا ... لنا منك رأى يابثين جميل
وما لم تطيعى كاشحاً أو تبدّلى ... بنا بدلا أو كان منك أهول

وقيس بن ذريح : حين حالوا بينه و بين حبيبته لبنى قد جد به الوجد ، و بلغت به الصبابة حتى مرض ، وأعياه المرض إلى أن كان يشرف على الموت . فقال له أبوه . يا بنى . اللهَ اللهَ فى نفسك ، فإنك ميت إن دمت على هذا . فقال :

وفى عروة[١] العُذرى إن مت أسوةٌ ... وعمرو بن عجلان[٢] الذى قتلت هند
وبى مثلُ ما ماتا به غير أننى ... إلى أجل لم يأتنى وقته بعد

ولكن قيساً لا يسلو لبنى ، فهو يسعى إلى رؤيتها رغم أنه طلقها . فشكا أبوها أمره إلى الحاكم فأباح دمه ، إن تعرض لها ولما بلغ أباه الخبر عاتبه وتجهمه ، وقال له : انتهى بك الأمر إلى أن يهدر الحاكم دمك : ولم يعبأ قيس بلوم أبيه ولا بإهدار دمه . وقال :

إن تك لبنى قد أتى دون قربها ... حجاب منيع ما إليه سبيل
فإن نسيم الجو يجمع بيننا ... ونُبصر قرن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل فى الحى تلتقى ... ونعلم أنّا بالنّهار نَقِيلُ
وتجمعنا الأرضُ القَرارُ وفوقنا ... سماء نرى فيها النجومَ تجول
إلى أن يعود الدهر سلْما وتنقضى ... تراتٌ بغاها عندنا وذُحُول[٣]

---

(١) هو عروة بن حزام شاعر إسلامى كان متيما فى بنت عمه عفراء .

(٢) هو عبد الله بن العجلان شاعر إسلامي كان متيما فى هند مات أسفاً على فراقها حين طلقها .

(٣) جمع ذحل : الحقد ويقال طلب بذحله أى بثأره .

إذ رق له يزيد بن معاوية ، وحقن له دمه ، وأباح له أن ينتقل إلى حيث يشاء وأن يرتحل إلى أى بلد ولو كان بلد لبنى .

وإنك لترى فى هذه الأبيات من الشعر بعض هذه النواحى التى تحدثنا فيها عن تضحية المحبين وعن شجاعتهم ، وعن المخاطرة بنفوسهم فى سبيل إرضاء الحبيب .

يقول قيس بن الملوح :

فوالله مافى القُرب لى منك راحة ولا البعد يسليني ولا أنا صابر
ووالله ما أدرى بأية حيلة وأى مرام أو خِطَارٍ أخاطر

ويقول :

وقد بتلى قوم ولا كبليتى ولامثل جدى[1] فى الشقاء بكم جَدُّ
غزتنى جنود الحب من كل جانب إذا حان من جند قفول[2] أتى جند

ويقول جميل :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأىّ جهاد غيرهن أريد
لكل حديث عندهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

ويقول :

ولست بناس أهلها حين أقبلوا وجالوا علينا بالسيوف وطوّفوا
وقالوا جميلٌ بات فى الحى عندها وقد جردوا أسيافهم ثم وقّفوا
وفى البيت لَيْثُ الغاب لولا مخافةٌ على نفس جُمْل والإله لأُرعفوا[3]
هممت وقد كادت مراراً تطلّعَتْ إلى حربهم نفسى وفى الكف مرهف
وما مرّ فى غير الذى كان منهم ومنى وقد جاءوا إلىّ وأوجفوا
فكم مرتج أمراً أتيح له الرّدى ومن خائف لم ينتقصه التخوّفُ

(١) حظى ونصيبى . (٢) رجوع بعد الغزو . (٣) يقال أرعفه أى أعجله .

ويقول :

لقد ظن هذا القلب أن ليس لاقياً سليمى ولا أم الجسيرْ لحين

فليت رجالا فيك قد نذروا دمى وهمّوا بقتلى يا بثين لقونى

ويقول كثير :

يقول العدا ياعز قد حال دونكم شجاع على ظهر الطريق مصمم

فقلت لها والله لو كان دونكم جهنم ما راعت فؤادى جهنم

وكيف يروعُ القلب ياعز رائع ووجهك فى الظلماء للسَّفْر معلم

وما ظلمتك النفسُ ياعز فى الهوى فلا تنقمى حبى فما فيه مَنقَم

ويقول وضاح اليمن :

قالت : ألا لاتَلِجَنْ دارنا إن أبانا رجل غائر

قلت : فإنى طالبٌ غِرةً منه وسيفى صارمٌ باتر

قالت : فإنّ القصر من دوننا قلت : فإنى فوقه ظاهر

قالت : فإن البحر من دوننا قلت : فإنى سابحٌ ماهر

قالت : فحولى إخوة سبعة قلت : فإنى غالب قاهر

قالت : فليث رابض بيننا قلت : فإنى أسدٌ عاقر

قالت : فإن الله من فوقنا قلت : فربى راحم غافر

قالت : لقد أعييتنا حجّةً فأت إذاما هَجَعَ السّامر (١)

فاسقُط علينا كسقوط النّدى ليلة لاناهٍ ولا زاجر

ويقول :

قد يكتُم المرء حبّه حِقَباً وهْو عميدٌ وقلبه كَمِد

ماذا تريدين من فتًى غزِلٍ قد شفه السُّقْمُ فيك والسَّهَد

---

(١) أى المتسامرون .

يهددونى كيما أخافهم هيهات أنى يُهدَّدُ الأسَدُ

ويقول امرؤ القيس :

وبيضة [١] خدر لا يرام خباؤها [٢] تمتعت من لهو بها غير مُعْجَل [٣]

تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا علىّ حِراصاً لو يُسِرّون مقتلى

فأنت ترى فى هذا أن المجنون يذكر أنه فى حبه معذب معنّى ، لا راحة فى القرب من حبيبته ولا صبر على فراقها ، وأنه لا يفتأ يحتال على لقائها ويخاطر فى سبيل اللقاء بألوان من المخاطرة فيها محنة وفيها شدة وفيها بلاء . ثم يذكر أن مصابه فى الحب لا يعدله مصاب ، وأن حظه مع الحبيب حظ عاثر جائر ، لا يجد فيه إلا المحن والآلام . ومع ذلك فإنه راض باسم لهذه الحادثات مهما أظلمت واكفهرت .

ويصور لنا فى البيت الأخير من أبياته ما يقع بينه وبين جنود الحب من غزو وقتال ، وما يلقى من هؤلاء الجنود من شدة البأس وقوة العزم ، وأنهم ذوو صبر وجلد ، لا يملون القتال ، ولا يتركون سبيلا للراحة والطمأنينة ، وإذا أصاب فريقاً منهم جهد وإعياء جاء فريق آخر أكثر ما يكون قوة ، وأكثر ما يكون مروءة .

وجميل يجعل حياته كلها جهاداً وغزواً ، وهو جهاد كريم شريف ، لأنه جهاد فى سبيل الحب ، وفى سبيل القلب ، وإذا مات فى هذا الجهاد فهو شهيد .

ثم يذكر لنا إحدى حادثاته وهو يطلب بثينة ، ويسعى إلى لقائها ، وماذا كان يقع بينه وبين أهلها من نزال ونضال ، وأنه كان لا يبالى فهو الليث الشجاع ، وهو ذو السيف المرهف الذى إن ضرب به أصاب مقتل الأعداء ، مهما كانوا من القوة والكثرة ، لا سيما إذا كان يضرب فى سبيل حبيبته ، وفى هذه السبيل ترخص النفوس .

ثم يتمنى فى البيتين الأخيرين أن يلتقى بخصومه الذين حالوا بينه وبين محبوبته

---

(١) المرأة شبهها بالبيضه لصفائها ورقتها . (٢) الخباء ما كان على عمودين أو ثلاثة ، والبيت ما كان على ستة أعمدة إلى تسعة والخيمة من الشعر . (٣) لم تعجلنى أحد عما أريده فيها .

يتمنى لقاءهم ، كى يكسر شوكتهم و يغلبهم على أمرهم ، و يذيقهم ألواناً من العذاب جزاء ما أذاقوه ، وجزاء ما نال منهم من عدوان وأذى .

وكثير يتحدث إلى حبيبته عزة فيترجم عن مخاطرته حين يطلب لقاءها ، فلا يحول بينه و بينها حائل ، ولو كان جهنم بما تحوى من سعير وشرور . وكيف يروع قلبه ظلمة الطريق ووحشة السفر ؟ إنه يتخذ من وجهها المشرق هاديا ودليلا . إنه يتخذ من ذكرها ما يبعث فى نفسه العزم ، وفى قلبه الهمة والإقدام .

أما وضاح اليمن فإنه يصور لنا حواراً قام بينه و بين حبيبته «روض» ، و يصور فى هذا الحوار أنه ذو تضحية وعزم .

خوفته بأبيها ، وهو ذو مِرّة و بأس ، فذكر سيفه الصارم البتار ، وأنه يغلب بهذا السيف من يعترضون سبيله مهما كان لهم من حول وقوة .

خوفته بإخوتها السبعة ، وأنهم أهل غلبة وقتال ، فذكر أنه حين يجد الجد ، يكون غالباً لهم قاهراً .

خوفته بأن هناك ليثاً رابضاً بينهما ، فذكر لها أنه أسد عاقر .

خوفته بالله فذكر أن الله و إن كان قوياً جباراً فهو غفور رحيم .

وكأن حبيبته رأت فيه العزم والبأس فأجابت سؤله فى أن يأتيها ، إذا هجع السامرون ، وفى أن يسقط عليها سقوط الندى حتى يبلل غصنها الرطيب ، فيهتز نشوان بفرحة اللقاء ، و بسمة الحياة .

وتتجه أبياته الثلاثة إلى مثل هذا المعنى .

ويذكر امرؤ القيس أن دار الحبيبة بعيدة المنال .

فهناك جماعة من الحفظة والأحراس يتربصون به الدوائر إذا اقترب من حماها ، ولكنه مع ذلك لا يبالى : فتراه يتجاوز هؤلاء الأحراس ، و يتخطى هذه الأهوال .

وقد قدمنا أنه يسر الحبيبة و يرضيها أن تعرف أن حبيبها فارس مغوار ، يخوض

معامع الحروب فيبلى فيها البلاء الحسن ، وفى ذلك يقول عنترة من معلقته .

هلاّ سألت الخيل يا ابنــة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

كما يسيئها أن تعرف شيئاً عن جبنه وخوفه . ومن هذا ما فعل يزيد بن الطّثرية وقد مر بأعداء له ، فأرادوا به كيداً ، فنزل عن راحلته وأخذ يسبقهم عدواً ، فأدركوا الراحلة ، وعقروها ولم يدركوه هو فنجا ، وكأن يزيد يرى فى هذا الهرب ما يجعل الغانيات لا يقبلن على مودته ، و يصرمن ما كان بينه و بينهن من حب ووصال . لأنهن يكرهن فى الحبيب هذه الصفة الذميمة من الجبن والخوف . فقال :

ألا هل أتى ليلى على نأى دارها بأن لم أقاتل يوم صَخْرٍ(١) مذوِّدا(٢)

وأنّى أسلمت الركاب فعُقّرت وقد كنت مِقداما بسيفى مُفردا

فهل تصرمن الغانيات مودتى إذا قيل قد هاب المنون معرّدا(٣)

وقد يكون قريباً من هذا ما رواه الرواة من أنه كان لفتى من قريش جارية جميلة ، فأصابته فاقة ، فابتاعها منه الحجاج . وقدم عليه فتى من أقاربه ، وكان وسيما جميلا . أخذت الفتاة تسارقه النظر . ففطن الحجاج ، ووهبها له ، فأخذها وانصرف و بانت معه ليلة ، وهربت قبل أن يطلع النهار .

عرف الحجاج ذلك ، فدعاها ، ليتبين أمرها ، فحدثته حديثاً طويلا . حدثته أن الفتى القرشى سمع ذات مرة زئير الأسد ، فوثب واخترط سيفه ، وحمل عليه ، وأتى برأسه ، أما الفتى الذى اخترته لى وهو ابن عمك فقد غشى عليه حين وقعت فأرة من السقف ، ومكث زماناً طويلا ، وأنا أرش عليه الماء وهو لا يفيق .

قالت الفتاة للحجاج : وقد خفت أن يموت فتتهمنى ، فهربت فزعا منك .

فضحك الحجاج كثيراً ، وخلى سبيلها .

---

(١) اليوم الذى قاتله فيه أعداؤه . (٢) ذائداً : أى مدافعاً . (٣) هرب وجبن .

كما قدمنا أن المحبوب إذ يرى حبيبته يكون جريئاً مقداماً يغالب خصمه مهما كان شديد البأس قوى الشكيمة .

ونرى فى هذين المثالين ما يؤيد ذلك :

كان توبة[١] قد خرج إلى الشام فمر ببنى عذرة فرأته بثينة فجعلت تنظر إليه فشق ذلك على جميل، ولم يكن قد أظهر حبه لها، وكان من أمرهما أن تصارعا فصرعه جميل، وأن تناضلا[٢] فنضله[٣] جميل، وأن تسابقا فسبقه جميل. فقال توبة لجميل: ياهذا إنما تفعل هذا بريح هذه الجالسة ولكن اهبط بنا الوادى، قالوا : فنزلا إلى الوادى فصرعه توبة، ونضله وسبقه .

وكان المجنون[٤] — قيس بن الملوح — يتحدث إلى جماعة من نساء الحى وطال معهن الحديث حتى أقبل غلام شاب حسن الوجه فجلس إليهن وأقبلن عليه فى الحديث وكأنه غاظه أن يرى المجنون يتحدث إليهن ، فقال له : هلم نتصارع أو نتناضل. فقال له المجنون: إن شئت ذلك فقم إلى حيث لا تراهن ولا يرينك ثم ما شئت فافعل .

وقال :

إذا ما انتضلنا فى الخلاء نَضَلْته   وإن يَرْم رشقاً عندها فهو ناضلى

ويفهم من سياق هذه الرواية أن المجنون لم يكن بعد قد علق قلبه حب ليلى ، ولم نكن قد عرفت فيه هذا الهوى ولوكان لتغير الوضع ، وأصبح المجنون لا يبالى ، وأصبح الفتى هو الذى يطلب النضال بعيداً عن هؤلاء النساء .

وتحدثنا كتب الأدب عن أمثلة لألوان أخرى من التعذيب ، أصابت فريقاً من رجال الحب وشعراء الغزل. ثم أمثلة لمن ماتوا صرعى الحب، واستشهدوا فى سبيله.

---

(١) الأغانى ج ١١ ص ٢٣٩
(٢) النضال : المباراة فى الرمى .
(٣) غلبه فى النضال .
(٤) الأغانى ح ٢ ص ٢٩

الفصل الخامس

الصــــبر

وتلك هى الصفة الغالبة فى كل عمل يتطلب طموحا وتضحية .

فالطموح يدعو المرء إلى أن يسعى جاهداً فى إدراك أوفى نصيب فى الحياة . ويلقى المرء فى هذا الجهاد صنوفا من المتاعب والآلام . فإذا احتملها وغالبها أصابه النجاح والتوفيق . وذلك هو الرجل الجلد الصبور . وإذا لم يحتملها أصابته الخيبة والإخفاق . وذلك هو الرجل الفزع الجزع .

إذن فالصبر من لوازم التضحية .

وقد بسطنا فيما مضى صفحات من طموح المحبين ، و بينا ألوان التضحية التى دفعهم إليها هذا الطموح .

وكل ما ذكرناه و بسطناه ينساق إلى أذهاننا حين نتحدث عن الصبر فى الحب . فأعمال الحب ومايجرى فيها من غصص وآلام . وأحوال المحبين وما نرى فيها من متاعب — إذا لم يتسلح لها الأحباب بسلاح قوى من الصبر انفرط العقد قبل أن يلتئم ، وانتثر الشمل قبل أن يجتمع ، ولم تصبح للحب هذه المنزلة الرفيعة ، ولا للأحباب هذا الشأن الكريم فإنا نكون أكثر إعجاباً بالحب وأكثر تكريما لأصحابه حين نرى فى صفحات تاريخهم ألوانا من الطموح والتضحية ، وألوانا من الصبر على المكاره واحتمال الأذى .

ونحن إذا طربنا لهذا التاريخ فلأننا نطرب لما فيه من معان كريمة وصفات طيبة . وقل لى بربك ماذا يكون فى الحب من جمال ؟ إذا لم تصهر الآلام قلوب المحبين. ماذا يكون فى الحب من خير ؟ إذا لم يكن فيه للأحباب محنة و بلاء .

وماذا يكون فى الحب من فضل ؟ إذا تجرد الأحباب من فضيلة الصبر .

بل ماذا يكون الحب إذا لم يكن الصبر ؟ .

عرف الأحباب ما للصبر من قيمة وأثر فتسلحوا به فى ميدان الحب ، حتى يذللوا صعابه و يحتملوا أساه . تراهم يتسلون به إذا حزّ بهم كرب، أو أصابهم مكروه. يتسلون به حين يفارقون الحبيب ، وحين يطول به النوى ، وحين يجفو فيقسو ، وحين تحيط بهم عيون الوشاة الكاشحين .

وترى شعراء الغزل يفيضون فى ذكر الصبر، ومناغاة النفس به ، حتى تحتمل الأذى .

و إليك بعض الأمثلة . وسنرى فى الكتاب الثالث حيث نتحدث عن شئون الغزل وشجونه ما يكفى و يغنى .

تراهم يذمون الجزع ، ويحثون نفوسهم على الصبر .

يقول المجنون :

أتبكى على ليلى ونفسكَ باعدتْ ... مزارك من ليلى وشعْبا كما معا
فما حسنٌ أن تأتى الأمر طائعاً ... وتجزعَ أن داعى الصبابة أسمعا

ويقول :

الله يعلم أن النفس هالكة ... باليأس منكِ ولكنى أعنِّيها (١)
منَّيْتك النفس حتى قد أضر بها ... واستيقنت خُلُفا مما أمنيها
وساعةٌ منك ألهوها و إن قصُرَت ... أشهى إلىَّ من الدنيا وما فيها

و يقول كثير :

فقلت لها يا عزُّ كلُّ مصيبة ... إذا وُطنت يوما لها النفس ذلَّتْ
أسيئي بنا أو أحسنى لا ملومة ... لدينا ولا مقليةٌ إن تقلَّت (٢)

---

(١) أعنيها : أكلفها مايشق عليها .
(٢) تبعصت .

ويقول قيس بن ذريح :

كأنى والهٌ بفـراق لبنى تهيم بفقد واحـدها ثـكُولُ
ألا يا قلب ويحك كن جليـداً فقد رحلت وفات بها الذميل(١)
فإنك لا تطيق رجـوع لبنى إذا رحلت وإن كثر العويل

ويقول العباس بن الأحنف :

تحمـل عظيم الذنب ممن تحبه وإن كنت مظلوما فقل أنا ظالم
فإنك إلا تغفر الذنب فى الهوى يفارقك من تهوى وأنفك راغم

ويقول جميل :

إنى عشيةَ رُحتُ وهى حزينة تشكو إلىَّ صبابةً لصبور
وتقول بت عندى فديتك ليلة أشـكو إليك فإن ذاك يسـير

ويقول أبو الفضل الميكالى :

إن كنت تأنس بالحبيب وقربه فاصـبر على حكم الرقيب وداره
إن الرقيب إذا صبرت لحـكمه بوّاك(٢) فى مثوى الحبيب وداره

فالمجنون : يرى أن جزع المحب قبيح ذميم .

وهو : يعنّى نفسه ، ويكلفها ما لا تطيق حتى تصبر فى سبيل الحب ، وتحتمل مصائبه وآلامه .

وكثير : يروض نفسه على احتمال المصائب حتى تذل وتهون .

وقيس بن ذريح : يعيب على نفسه الجزع فإنه لا يغنى من الأمر شيئاً .

والعباس بن الأحنف : يدعو إلى أن يحتمل أذى الحبيب ، وإلى أن يبرئه من الذنوب ولو كان ظالما جائراً ، ونتهم أنفسنا بها ولو كنا أطهاراً أبرياء .

وجميل : يصف نفسه بالصبر حين رآها ، وحين أخذت تشكو إليه صبابة الهوى .

---

(١) السير اللين. (٢) أى بوأك أى إسكنك.

وأبو الفضل الميكالى : يحث على مجاراة الرقيب فإن ذلك يلين قلبه ولعلنا نظفر من وراء هذا اللين بزيارة الحبيب .

وتراهم يذكرون فى أشعارهم أن الحب محنة وابتلاء لا يفوز فيه إلا من أوتوا حظاً كبيراً من الصبر والجلد فاحتملوا مرارته وآلامه .

أما هؤلاء الفزعون القانطون فإنهم لا ينعمون فى الحب بنصيب ، لأنهم يفرون من ميدانه ، حين تبدو لهم صعابه وأهواله .

يقول المجنون :

قضاها لغيرى وابتلانى بحبها ... فهلا بشىء غيرِ ليلى ابتلانيا

ويقول قيس بن ذريح :

وحدثتنى يا قلب أنك صابر ... على البين من لبنى فسوف تذوق

وقال ابن ماكولا :

علمتْنى بهجرها الصبرَ عنها ... فهى مشكورة على التقبيح

وأرادت بذاك قبح صنيع ... فعلته فكان عين المليح

الفصل السادس

الوفـــــاء

وما أجمل الحب . لأن فيه الوفاء !

بل ما أجمل الحياة . لأن فيها الوفاء !

فالوفاء خلق كريم . قلّ أن يكون إلا بين الأصفياء والخلصاء .

وكم فى الحياة من غدر ومكر ولؤم .

ما أجمل وفاء العربى ! حين يجود لأخيـه بما ملكت يداه ، وحين يصد عنه العدوان والأذى .

بل ما أجمل وفاءه ! حين يكون محباً مغرما .

وسنرى فيما نذكر أمثلة للوفاء بين المحبين .

تحل بهم ضروب من العذاب العنيف ولـكنهم مع ذلك يوفون بالعهد . وتقسو الحياة عليهم ، فتنكبهم بالرقباء والعيون والأعداء . ولـكنهم مع ذلك يوفون بالعهد .

يبذل الوشاة الجهود الجبارة تارة مع الحبيب ، وطوراً مع الحبيبة ، حتى يفصموا عرا هـذا الحب . ولـكن المحبين لا يبالون و يوفون بالعهد .

يجعل الحاكم دم الحبيب رخيصاً مبـاحا ، إذا تعرض للحبيبة ، ومع ذلك فإن قلبه لا يجور ولا يقسو .

و يزوجون المرأة ذا مال وجاه ، ولـكنها تميل حيث مال الهوى ولا تتحول .

فأكرم بهذا الوفاء !

وأكرم بهؤلاء الأحباب !

فما ذا نرى من وفاء المجنون ؟

كان يحب ليلى . وقد أعياه هذا الحب وأضناه ، حتى كان حديث الناس جميعاً . وهؤلاء نسوة جلسن إليه ، وأخذن يغرينه ، و يصورون مآله فى صورة كريهة أليمة . لعله ينأى عن حبها ، و ينفر منها . ولـكن هذا لم يزده إلا حُبًّا لها وسعياً إليها .

قالت النسوة : ما الذى دعاك إلى أن أحللت بنفسك ما ترى فى هوى ليـلى ، و إنما هى امرأة من النساء ! هل لك فى أن تصرف هواك عنها إلى إحدانا فنساعفك ونجزيك بهواك ، و يرجع إليك ما عَزَب من عقلك وجسمك !

قال المجنون : لو قَدَرت على صرف الهوى إليـكن ، لصرفته عنها ، وعن كل أحد بعدها .

وعشت فى الناس سوياً مستريحاً .

قالت النسوة : ما أعجبك منها ؟

قال المجنون : كل شىء رأيته وشاهدته وسمعته منها أعجبنى ، والله مارأيت شيئاً منها قط إلا كان فى عينى حسناً و بقلبى علقاً ، ولقد جهدت أن يقبح منها عندى شىء أو يسمج أو يعاب ، لأسلو عنها فلم أجده .

قال المجنون

بيضاء خالصة البياض كأنها قمر توسط جُنحَ ليل مُبرَدِ
موسومة بالحسن ذات حواسد إن الجمـال مظنّـة للحُسَّد

وهذا أبوه يلجأ إلى الحيلة حتى يوقع بينهما ، و يعكر حبه لها ، لعله ينفر منها ، و يعرض عنها ، ولـكن هيهات !

سأل رجلا من الطائف أن يمر بالمجنون و يخبره أنه لقى ليلى وجلس إليها وتحدث معها ، وجر الحديث إلى أنها أخذت تذكر المجنون بالسوء وأنه يكذب عليها ، و يشهرها بفعله ، وأنها ما اجتمعت به قط كما كان يقول .

وفعل الرجل ذلك وكان فطناً لبقاً فى التحدث إلى المجنون حتى استرعى سمعه ، وأثار

وعيه ، وأخذ يسرد له من صفاتها ماجعل المجنون يصدق قوله، ولما أخبره بأنها تنتقص سيرته ، وتهجن عمله ، نأى عنه جانباً وقال غير مكترث بما حكى :

إذا هبّت الريح الشمال فإنما ... جواى بما تُهدى إلى جنوبها
قريبةُ عهدٍ بالحبيب وإنما ... هوى كل نفس حيث كان حبيبها
وحَسْبُ الليالى أن طرحنك مَطْرَحاً ... بدار قِلًى تمسى وأنت غريبها
حلال لليلى شتمنا وانتقاصنا ... هنيئا ومغفور لليلى ذنوبها

وهل ترى بعد ذلك وفاء ؟

يبلى جسمه فى سبيل الحب ويهده المرض والإعياء وهو لا يبالى . ثم يأخذونه بالحيلة و بالوعد المعسول والوعيد المرير — فلا يصل هذا كله — وهو جد كثير — إلى قلبه ولا يثنى من عزمه ، بل يزداد كلفاً بحبيبة قلبه ، وهوى نفسه .

ومن وفاء جميل :

كان جميل يحب بثينة ويسعى لرؤيتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وذهب يوماً ليلقاها ولكن أهلها وقد علموا بقدومه منعوها أن تلقى جميلا . فانصرف حزيناً كئيبا ، وعلم نساء الحى بذلك فأخذن يلمنه ، ويقرعنه ، ويغرينه بأنفسهن ، وفيهن من هى أحسن منها فتنة وجمالا ، ولكن جميلا لا يأبه لهن ، لأن حبه بثينة يشغله عن أية فتاة أخرى ، مهما كان حظها من الحسن والجمال .

وضاقت الدنيا بوجه جميل ماذا يفعل ؟ وقد أهدر الوالى دمه .

كان يصعد بالليل على أكمة من رمل يتنسم الريح من حى بثينة ، لعل هذه الريح تحمل إليه نسمة منها ، فيعلل نفسه بها . وفى ذلك يقول :

أيا ريح الشمال أما تَرينى ... أهيم وأننى بادى النُّحول
هبى لى نسمة من ريح بَثْنٍ ... ومنى بالهبوب إلى جميل
وقولى يا بثينة حسبُ نفسى ... قليلك أو أقل من القليل

وهذا أبوه وقد شكا إليه أهل بثينة فعل جميل من زيارتها والشغف بها ، يلومه ويعنفه ويغريه ، ويزين له فراقها ، ولكن قلب جميل يهوى بثينة ، فلا يسلو عنها ولا يتحول .

قال أبوه : يا بنى حتى متى أنت عَمِهٌ فى ضلالك لا تأنف من أن تتعلق بذات بَعْل يخلو بها ويَنْكحها ، وأنت عنها بمعزل . ثم تقوم من تحته إليك فتغرك بخداعها ، وتريك الصفاء والمودة ، وهى مضمرة لبعلها ما تُضمره الحرة لمن ملكها فيكون قولها لك تعليلا وغرورا ، فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على حالتها المبتذلة . إن هذا لذلّ وضيم ! ما أعرف أخيب سهماً ، ولا أضيع عمراً منك ! فأنشدك الله إلا كففت وتأملت أمرك فإنك تعلم أن ما قلته حق ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها ولكن هذا أمر قد فات واستبدّ به من قدّر له . وفى النساء عوض .

قال جميل :

الرأى ما رأيت والقول كما قلت . فهل رأيت قبلى أحداً قدر أن يدفع عن قلبه هواه ، أو ملك أن يسلى نفسه ، أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه ؟ ! والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى، أو أزيل شخصها من عينى لفعلت، ولكن لاسبيل إلى ذلك .

قال ذلك جميل ، وأخذ يبكى ، فبكى أبوه ومن حضر ، جزعا لما رأوا منه .

وفى ذلك يقول جميل :

ألا من لقلب لا يمَل فيَذْهلُ	أَفِق فالتعزِّى عن بثينة أجمل
سلا كل ذى ودٍ علمتُ مكانه	وأنتَ بها حتى الممات مُوَكل
فما هكذا أحببتَ مَنْ كان قبلها	ولا هكذا فيما مضى كنتَ تفعل

وما أجمل وفاء قيس بن ذريح !

قالوا إنه تزوج لبنى ، وعاشا فى هذا الزواج سعيدين ، ناعمى البال ، ولكن عبوس الأيام أخذ يدنو من هذا العبش رويداً رويداً ، وكانت أم قيس سبيلا

إلى ذاك العبوس . إذ أنها أحست حين تزوج ولدها قيس أن تضاءل بره لها ، فلا بد أن تسعى للفرقة بينه و بين من كانت سبباً فى انقطاع بره ، وهى لبنى ، التى شغف بها حباً ، حتى شغلته عن أقرب الناس إليه ، وهى أمه التى حملته فى بطنها تسعة أشهر .

وكان أن مرض قيس ، فوجدت أمه أن الفرصة سانحة ، لو مات قيس فى مرضه هذا ، ولم يترك ولداً ، ماذا يكون الأمر فى هذا المال الذى سيرثه عن أبيه ، وهو جم كثير ؟ إذن من الخير أن يكون لقيس خلف ، يرث هذا المال . ويؤول إليه هذا التراث ، وأين هذا الخلف ؟ وهو متزوج من لبنى ، التى حرم منها الولد .

تلك هى الحيلة الدهياء التى تصل بها إلى الفرقة بين قيس ولبنى .

وتحدثت أم قيس إلى أبيه فى هذا الشأن ، وألحت عليه ، حتى إذا اجتمع قومه دعاه وقال له :

يا قيس إنك اعتللت هذه العلة فخفت عليك ولا ولد لك ، ولا لى سواك . وهذه المرأة ليست بولود فتزوج إحدى بنات عمك لعل الله أن يهب لك ولداً ، تقر به عينك وأعيننا .

فقال قيس :

لست متزوجا غيرها أبداً .

فقال له أبوه :

فإن فى مالى سعة فتسر بالإماء .

قال :

ولا أسوءها بشىء أبداً والله .

قال أبوه :

فإنى أقسم عليك إلا طلقتها .

فأبى ، وقال :

الموت والله عليّ أسهل من ذلك . ولكنني أخيرك خصلة من ثلاث خصال :

قال : وما هي ؟

قال : تتزوج أنت فلعل الله أن يرزقك ولداً غيري .

قال : فما فيّ فضلة لذلك .

قال : فدعني أرتحل عنك بأهلي ، واصنع ما كنت صانعاً لو مت في علتي هذه .

قال : ولا هذه .

قال : فأدع لبنى عندك وأرتحل عنك ، فلعلي أسلوها فإني ما أحب بعد أن تكون نفسي طيبة أنها في خيالي .

قال : لا أرضى أو تطلقها . وحلف لا يكنه سقف بيت أبداً حتى يطلق لبنى ، وقد هجره أبواه حتى يطلق لبنى ، ودام هذا الهجر طويلا ، وقيل إنه بلغ عشر سنين ، وكان أن طلق قيس لبنى مرغماً كارهاً .

ولما قيل له : هذه لبنى ترتحل الليلة أو غداً ، جزع جزعا شديداً ، وسقط مغشياً عليه ، لا يعقل ، ثم أفاق وهو يقول :

وإني لمفنٍ دمعَ عيني بالبكا ... حذار الذي قد كان أو هو كائن

وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلة ... فراق حبيب لم يبن وهو بائن

وما كنت أخشى أن تكون منيتي ... بكفيك إلا أن ما حان حائن

ويقول :

يقولون لبنى فتنةٌ كنتَ قبلها ... بخير فلا تندم عليها وطلّق

فطاوعت أعدائي وعاصيت ناصحي ... وأقررت عينَ الشامت المتخلق (١)

وددتُ وبيتِ الله أني عصيتهم ... وحُمِّلت في رضوانها كل مُوبِق (٢)

وكُلفت خوض البحر والبحر زاخر ... أبيت على أثباج موج مفرّق

(١) الذي يتكلف ما ليس في خلقه . (٢) مهلك .

كأنى أرى الناس المحبين بعدها   عصارة ماء الحنظل المتفلق

فتنكرُ عينى بعدها كلّ منظر   ويكره سمعى بعدها كلّ منطق

وكان يذكرها ، فتثير فى نفسه الذكرى الآلام والأسقام . وكان يأتى موضع خبائها ويتمرغ فيه ويبكى ويقول :

بتّ والهمّ يا لُبينى ضجيعى   وجَرَتْ منذ نأيتِ عنى دموعى

وتنفست إذ ذكرتك حتى   زالت اليوم عن فؤادى ضلوعى

أتناساك كى يُريعَ (١) فؤادى   ثم يشتد عند ذاك وَلُوعى

يا لبينى فدتك نفسى وأهلى   هل لدهر مضى لنا من رجوع

وكان قيس يلوم نفسه على إطاعة أبيه فى طلاق لبنى . ويقول :

وما كان علىّ لو اعتزلته وأقمت فى حيها أو فى بوادى العرب ، أو عصيته فلم أطعه . هذه جنايتى على نفسى فلا لوم على أحد . وهأنذا ميت مما فعلته . فمن يرد روحى إلى ؟ وهل لى سبيل إلى لبنى بعد الطلاق ؟

وهذه أم قيس ترسل إليه فتيات من قومه . لعلهن فاتنات فى الحسن والجمال . ويذهب إليه هؤلاء الفتيات ، يعرضن عليه ما وهبهن الله من فتنة وزينة ، ويتحدثن إليه حديث اللهو والدعابة والمرح ، ولكنه لا يلقى إليهن وعيه ، ولا يصغى إلى مواطن الظرف فى حديثهن وفى مظهرهن فهو واجم ، مطرق ، حزين ، كسير النفس . حتى إذا أعيتهن الحيلة ، ولم يظفرن منه بطائل ، أخذن يعبن لبنى ، ويسخرن من كلفه بها ، وهى لا تفوقهن فى الحسن والجمال . فلما أطلن أقبل عليهن وقال :

يُقَرُّ بعينى قربُها ويزيدنى   بها كَلَفاً من كان عندى يعيبها

وكم قائلٍ قد قال تُبْ فعصيتُه   وتلك لعمرى توبةٌ لا أتوبها

فيا نفسُ صبراً لستِ والله فاعلمى   بأولِ نفس غاب عنها حبيبها

---

(١) يجيء .

وكأن هؤلاء النسوة قرأن فى هذا الشعر لوناً من ألوان وفاء قيس ، وأنه لا ينفك عن حب لبنى مهما كانت المغريات ، فيئسن من هجره لها ، وذهبن إلى أمه يعرضن عليها ، أنهن أخفقن فى الرسالة التى تصدّين لها وهى القطيعة أو الفراق بين قيس ولبنى.

وانظر ماذا فعل الوفاء بين قيس ولبنى ؟ .

مرض قيس ، ولعله مرض الحب الذى أضناه ، وأعياه وأهلكه . وظن أبوه أن الفرصة سانحة لصرفه عن لبنى . فدس إليه فتيات الحى ، وكن جميلات بارعات فى الجمال ودخل إليه طبيب ليداويه ، وكان الفتيات يحادثنه ، ويطلن السؤال عن سبب علته . أما سبب العلة فقد أبان لهن ولنا فى هذه الأبيات :

عِيد قَيْسٌ من حبِّ لبنى ولبنى ... داء قيس والحب داء شديد
وإذا عادنى العوائد يوما ... قالت العين لا أرى من أريد
ليت لبنى تعودنى ثم أقضى ... إنها لا تعود فيمن يعود
وَيْحَ قيس لقد تضمّن منها ... داء خَبْل فالقلبُ منه عَمِيدُ

أعرفت أنه داء الحب ، والحب داء شديد ! ومن شأن المريض أن يجد فى عيادة العواد ما يخفف عنه الهم والحزن . ولكن عواد قيس لم يكونوا سبباً من أسباب التخفيف والترويح ، لأنه لا يرى فيهم أو فيهن من يريد . وليته وجد لبنى تعوده . إذن لخف عنه الألم ، وزال عنه المرض ، ليته يجدها ، ولو قضى نحبه بعد ذلك لقضاه وهو راض مطمئن ، لأنه رآها ، ولأنه أشبع بصره من محياها ، ولأنه روى قلبه من حديثها ونجواها . وهل تتحقق الآمال ؟ لا. فلا لبنى تعوده، ولا هو بناج مما يترتب على هجرها إياه من مصائب ونكبات .

وتدبر معى هذه الأبيات :

تقول ليلى الأخيلية :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها ... فليس إليها ما حييت سبيل

لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحبٌ وخليل

ويقول الصِّمَّةُ القشيرى :

إذا نأت لم تفارقنى علاقتها وإن دنت فَصُدُود العاتب الزّارى

فحال عينىَ من يوميك واحدة تبكى لفرط صدود أو نوى دار

ويقول داود بن سَلْم :

وكم لام فيها من أخ ذى نصيحة فقلت له أقصر فغير مصيب

أتأمر إنساناً بفرقة قلبه أتصلح أجسام بغير قلوب

ويقول بشار :

يا عبد حيى عن قريب ونأملى عين الرقيب

وارْعَىْ ودادى غائباً فاقد رعيتك فى المغيب

أشكو إليك وإنما يشكو المحب إلى الحبيب

عرضى إليكِ من الهوى غرض المريض إلى الطبيب

ويقول ابن الدمينة :

لكِ الله إنى واصل ما وصلتِنى بما أوليتنى ومثيب

فلا تتركى نفسى شعَاعاً فإنها من الوجد قد كادت عليك تذوب

وإنى لأستحييك حتى كأنما علىّ بظهر الغيب منك رقيب

ويقول سعد بن مُطَرِّف (وكان يهوى ابنة عم يقال لها سعاد) :

أغار على طرفى لها فكأننى إذا رام طرفى غيرها لست أبصر

وأحذر أن تصغى إذا بحت بالهوى فأكتمها جهدى هواى وأستر

وكان من سعاد أن كرهت أن ينتشر بين الناس خبر حبه لها ، فهجرته فكتب لها :

مِتُّ شوقاً وكدتُ أهْلِكُ وجدا حين أبْدَى الحبيب هجراً وصدّا

بأبى من إذا دنوت إليه زادنى فى القرب منه نأياً وبعدا

لا وحبيبه لا وحق هواه ... ما تناسيْتُه ولا خُنت عهدا
حاش لله أن أكون خليّا ... من هواه وقد تقطعت وجدا
كيف لا . كيف عن هواه سُلُوّى ... وهو شمس الضحى إذا ما تبدّى

ويقول ابن الأعرابى :

لقد عَلِمَتْ سَمْراء أنّ حديثها ... نجيع كما ماء السماء نجيع (١) .
إذا أمرتنى العاذلات بصرمها ... هفت كبد عما يقلن صديع
وكيف أطيع العاذلات وحبها ... يؤرقنى والعاذلات هجوع

ويقول الحسين بن مطير :

فيا عجباً للناس يَسْتَشْرِفوننى (٢) ... كأن لم يروا بعدى محباً ولا قبلى
يقولون لى أصرم يرجع العقلُ كلُّه ... وصَرْمُ حبيب النفس أذهب للعقل
ويا عجباً من حُبِّ من هو قاتلى ... كأنىَ أجزيه المودةَ مِن قتلى (٣)
ومن بيِّنات الحب أن كان أهلها ... أحبَّ إلى قلبى وعينىَّ من أهلى

ولعلك حين تتدبر هذه الأبيات تعرف فيها ألواناً من الوفاء ، يحدثك عنها الشعراء حديثاً شائقاً جذابا .

فليلى الأخيلية مثال الوفاء لمن تحب ، وتعلن فى صراحة أنه لا ينبغى أن تخون هذا الحبيب ، ولو سولت لإنسان نفسه أن يبغى بها حاجة ، فإنها لا تحقق له هوى نفسه ، فهى لا ترضى أن تخون حبيبها ، ولا ترضى لهذا الإنسان ، الذى تسول له نفسه السوء أن يخون حبيبته إذا هى حققت له ما يريد .

والصِّمّة القُشَيرى مثال الوفاء لمن يحب . فإذا نأت فإنه يذكرها ، ويرعى ودها ،

---

(١) يقال ماء نجيع : حلو مرىء . (٢) استشرفه : نظر إليه ببصره .
(٣) أى نعجب من حبى لمن يقتلنى كأن مودتى له جزاء اقتتاله لى .

ولا تفارقه علاقتها . و إن دنت فإنه يحتمل صدها ، وهجرها وتجنّيها عليه ، واتهامها له ، وذلك إخلاص منه ووفاء .

وداود بن سلم : لا يطيع فيها العواذل ، وهم يريدون أن تكون الفرقة بينهما ، وأن تقوم الخصومة بين الحبيب والحبيبة ، حتى لا يكون ود ، ولا يكون وصال . أما هو فيسخر من هؤلاء الناس ، ولا يصغى بقلبه إلى مايشتهون، وكيف له ذلك؟ وهو جسم والحبيبة قلبه ، ولن تصلح أجسام بغير قلوب .

و بشار : يحمله الوفاء على أن يرعاها فى المغيب ، كما يحمله على أن يطلب منها ذلك توكيداً لما بينهما من حب وهيام ، كما يدعوه الوفاء إلى أن يشكو إليها ما فى خبيئة نفسه ، و إنما يشكو المحب إلى الحبيب. ثم يختم هذه الأبيات بكثير من التذلل والتوسل فهو مريض بحبها ، وهو مُعنّى بأوصاب الحب وآلامه ، وحاجته إليها فى علاج ما به كحاجة المريض إلى الطبيب ، أو كحاجة من يشرف على الهلاك إلى من يأخذ بيده ، و يعيد إليه أمل الحياة ، و بسمة الوجود .

وابن الدمينة : وفىّ إلى حبيبته ، فهو يذكرها ، و يثنى عليها ، و يتمدح فعالها ، مهما تجنت وظلمت ، ثم هو يضرع إليها ، حتى ترد إليه شيئاً من الأمن والطمأنينة ، وترد إليه شيئاً من الهدوء والاستقرار . ثم يحدثنا عن نوع من الوفاء ، جميل محبوب ، ذلك هو الوفاء الذى لا يكون رياء ونفاقا ، بل يكون صادراً من القلب ، ومن القلب الحى البرىء ، وذلك هو الوفاء الذى يجعل المحب يرعى ود الحبيبة فى الغياب .

وهذا هو قوله :

و إنى لأستحييك حتى كأنما   علىّ بظهر الغيب منك رقيب

وما أجمل وفاء سعد بن مطرف !

هذا طَرْفه الذى يبصر به ويرى ، يريد أن يجعله خالصاً لمحبوبته ، يراها وحدها دون سائر الناس، أو يتمثلها وحدها فى كل مايرى ، حتى كأنه إذا رام النظر إلى غيرها

فإنه يفقد حاسة الرؤية والإبصار ، أليس ذلك وفاء ؟ بلى . ولبس مثله وفاء .

وفى الأبيات الأخرى يظهر مزيد حبه لها ، وكلفه بها ، و بقسم بحبها ، وهواها — وإنه لقسم لو تعلمون عظيم — أنه ما نسيها ، ولا خان عهدها . ثم هو بعد ذلك يعتبرها المثل الأعلى ، يعتبرها الشمس فى وقت إشراقها ولمعانها ، تضىء العالم ، وتنير ظلمات الوجود .

و يعلن ابن الأعرابى ، كما يعلن الحسين بن مطير أنهما لا يطيعان العواذل ، وهم يريدون الفرقة بين المحب والحبيب . و يصور ابن الأعرابى أن هذه الرغبة من العواذل لاتلقى تأييداً فحسب ، بل تكون سبباً فى المزيد من الوصال ، وفى المزيد من الشوق والحنين إليها .

كما يصور الحسين بن مطير أن تحقيق هذه الرغبة من العواذل يودى إلى الهلاك ، و يذهب بعقله وفؤاده ، ويزيد على ذلك أن حبيبته تقتله بصدها ودلالها ، وتجنيها ، ورغم ذلك فإنه يحبها ، وهو فى عجب من هذا ، كيف يحب من يقتله ، وكيف يكون جزاء القاتل مودة ، وحناناً ورحمة ؟ كما يزيد على ذلك أن وفاءه لها يجعله يحب أهلها ، وهم الرقباء عليها ، وهم العواذل بينه وبينها ! .

هذه صور من ألوان الشعر ، تحدثك عن وفاء الشعراء الغزلين ، وتريك فوق ذلك كثيراً من المعانى الجميلة ، التى تربط بين قلوب المحبين ، فيظهر فيها الحب الصافى والإخلاص الجميل .

***

هذا الذى قدمت من أمثلة عن سعة الحيلة ، ورقة الحس ، والتضحية والطموح والصبر ، والوفاء ، وما يتصل بهذه الصفات الطيبة — يعطينا صورة صادقة عن خلق العربى ، يحملها إلينا الشعر ، فى ضرب من ضروبه وهو الغزل .

وسواء كانت هذه الصفات من خلق أى عربى ، أو كانت من خلق العربى

المغرم المتيم . فمما لاشك فيه أن كثيراً من العرب يتحلون بكثير من هذه الصفات فقد عرف عن العربى فى الغالب أنه صبور ، وأنه وفى ، وأنه طموح .

ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن العربى المحب أكثر صبراً وأكثر وفاء ، وأكثر طموحاً ، وأكثر رقة فى الحس ، فوق ما يمتاز به من صفات أخرى كرقة الحس وسعة الحيلة ، وحلاوة الحديث . وبعبارة أدق فإن الشعر العربى حين يتحدث عن الغزلين وأحوالهم ، وحين نتلمس فى هذا الحديث صورة عن أخلاقهم ، فإننا لانعدو هذه الأمثلة التى بسطنا ذكرها من قبل .

وإذا كان الأمر كذلك فمن الواجب علينا نحن القارئين ، ونحن الناشئين أن نتدبر شعر الغزل ، وأن نتفهم فى معانيه ومراميه ، لاتلك الصورة الهازلة الماجنة ، التى يجرى وراءها البسطاء والغفلاء ، بل تلك الصورة الطيبة ، التى تشع علينا قبساً من الخلق الكريم ، ومن التهذيب الصحيح .

إن من الجهل والغفلة حقا أن يفهم بعض الناس أن الغزل عبث ولهو وتسلية ، ولو تدبروا الأمر قليلا لعرفوا أن الغزل أداة صالحة للتربية والتهذيب .

فعلينا إذن أن نقرأ هذه المواقف الرائعة من الغزل ، وعلينا إذن أن ندرس هذه المعانى الرقيقة فى شعر الغزل ، ونحن إن فعلنا ذلك عن صدق ومعرفة ، وطهارة قلب نكون بلا شك قد أفدنا عقولنا من طريق ماتوحى من معان ، وأفكار ، وآراء ترتفع بالعقل الإنسانى إلى درجات من الرقى ، والسعة ، والتوثب . ونكون بلا شك قد أفدنا نفوسنا من طريق ما توحى من مثل صالحة للخلق الكريم ، وما أحوجنا إلى هذه المثل الصالحة من تضحية ، وطموح ، وصبر ، ووفاء ! .

* * *

وجميل بالغزل أن يدفع الناس إلى التحلى بهذه الصفات .

فالطموح يدفع صاحبه إلى أن يتحلى بالفضائل ، ويتخلى عن الرذائل .

لا فى دائرة الغزل فحسب ، بل فى كل قول يقوله ، وفى كل عمل يعمله . لأن له نهجاً سليما ، يخشى إذا تجاوره . وتخطاه أن تنتقصه حبيبة قلبه وهواه . فهو دائما يتسامى فى أخلاقه وأعماله ، حتى يكون قريباً من وصالها ورضاها .

والعقل سلاح المرء فى الحياة . ينفذ به بين مسالكها إلى حيث تكون السلامة والعافية لأنه عرف كيف يقود نفسه فى ظلمات الحب ، ومعامع الهوى . وهى كثيرة الغيوم ، كثيرة الأشواك ، كثيرة الأخطار . عرف كيف يصل بثاقب رأيه ، ونافذ بصيرته إلى تحقيق ما يريد ويبغى .

والعاطفة الرقيقة تدفع صاحبها إلى أن يكون مثال العطف ، والشفقة ، والرحمة . لأنه عرف فى الغزل مرارة الحرمان ، وكره هذا النوع من البخل والهجر ، فأصبح لديه كل شىء يماثله كريها ذميما .

يحب الحرية لكل كائن حى . لأنه عرف نعمة الحرية فى الغزل .

يحب أن يكون عطوفا رءوفا ، شفيقاً محسنا . لأنه عرف لذة العطف فى الوصل واللقاء .

يحب أن يكون هادئا ، لينا ، وادعا ، حلو الحديث ، رقيق القول ، غردا ، طروبا . لأنه عرف كيف تصل الكلمة الطيبة إلى القلب الطيب . لأنه عرف بالرقة كيف ينال رضا الحبيب . ولأنه عرف كيف تكون اللذة ، ويكون الطرب حين الوصل ، وحين يزوره الطيف ، وحين النجوى .

والصبر يدفع صاحبه إلى احتمال صروف الزمن ، وما أكثر آلامها !

لأنه عرف فى الغزل صنوفا من المحن فاحتملها ، ولأنه تغلب على صعاب الحب ، واحتمل فى سبيل ذلك ألوانا من المشقة والعناء . ولأنه تجلد وصابر ، حتى وصل إلى تحقيق مبتغاه .

والوفاء يحمل صاحبه إلى أن يكون وفياً إلى أسرته، و إلى وطنه، و إلى المجتمع الإنسانى .

لأنه عرف فى الغزل كيف يكون الوفاء جميلا ، وكيف يكون الغـدر ذميما فحرى به أن يتبع كل ماهو حسن جميل ، وأن يطرح كل ماهو بغيض ذميم .

وتلك هى الصفات الكريمة التى إذا تحلى بها الإنسان كان مثال الكمال والسمو .

وتلك هى الصفات التى عرفناها فى الغزل بين رجاله ، وفى شعره .

فلم لا نتحلى بها ؟ ولا نهتدى بهديها ؟

أو بعبارة أخرى :

لم لا نقرأ شعر الغزل؟ولم لا نتدارسه ؟ حتى نظفر منه بهذه الحلية ، وبهذا الهدى.

إننا حين نقرأ الغزل ، وحين نستخلص منه هذا الهَدْى الكريم،من الطموح ، والتضحية ، والعقل ، والعاطفة ، والصبر والوفاء نكون قد جنينا أطيب الثمرات .

وذلك هو أثر الغزل .

الباب الخامس

تطوّر الغـزل

الغزل لون من ألوان الحيـاة ، كأى فن من الفنون ، ينشأ و ينمو ، و يترعرع ، ويتأثر بما حوله من أسباب الحياة ، فيقوى أو يضعف ، و يزدهر أو يذبل .

فإذا أصابه من أسباب الحياة ، ما كان عوناً له نما وانتشر ، وصال فيـه الشاعر وجال ، وعذبت ألفاظه ، ورقت معانيه ، وتناوله كثير من الشعراء ، واكتفى به بعضهم دون أبواب الشعر الأخرى . فجودوا فيه وتفننوا ، وأبدعوا وأتقنوا ، وجازاهم الملوك والحكام بألوان من البذل والعطاء ، وجعلوا من قصورهم ومن مجالسهم محـافل سمر ، وأدب ، يتناشدون فيها ماتجود به قرائح الشعراء ، وكان من جمهرة الناس إعجاب بهم ، ودراسة لشعرهم ، و إشادة بما يحمله هذا الشعر من وصف الجمال ،وأحاديث الهوى .

و إذا فقد هذه الأسباب ذبل واضمحل ، ورغب عنه الشعراء .

تطور الغزل فى نواح كثيرة :

تطور من حيث النوع :

إذ وجد بجانب الغزل بالمرأة نوع آخر هو الغزل بالمذكر .

وتطور من حيث الأقسام :

إذ وجد بجانب الغزل الصناعى الغرل العذرى ، والغزل الماجن .

وتطور من حيث القـلة والكثرة ، كما تطور من حيث المعنى والأسـاوب .

وذلك ما أبينه فى الفصول الآتية :

أما الأسباب التى دعت إلى هذا التطورفهى دواعى الغزل التى أشرنا إليهامن قبل.

الفصل الأول

الغزل بالمذكر

والغزل كما قدمنا يتصل بالمرأة ، يصف الشعر حسنها ، ويتحدث عن جمالها . ويذكر حال المحب نحوها ، من شغف بها ، وتودد إليها .

هذا هو الغزل فى معناه العام الذى جرى به العرف من قديم الزمن ولكن أصابه فى هذه الناحية تطور ، سواء كان هذا التطور حسناً أو قبيحاً ، كريماً أو غير كريم ، ذلك هو الغزل بالمذكر ، وفى طائفة من الشعر العربى تقرأ هذا النوع من الغزل . يصف الشاعر جمال الفتى ، كما يصف الشاعر الآخر جمال الفتاة . ويصف شغفه به ، وميله إليه كما يصف الشاعر الآخر شغفه بالمرأة وميله إليها .

نشأ هذا الحب من الغزل أيام الحكم العباسى حين خالط العرب الفرس ، ونفذت الحضارة الفارسية إلى حياة العرب ، فبعثت فيها ألواناً من اللهو والمجون ، ووصل بهم السرف فى هذه النواحى إلى هذا التطور من الغزل بالمذكر ، فأصبح غير بغيض إلى طائفة من الشعراء أن يكون غزلهم بالمذكر ، وأصبح غير بغيض إلى جمهرة من الناس أن يصغوا إلى هذا الشعر ، وأن يتذوقوا ما فيه من روعة وجمال .

وهذه أمثلة من غزل الشعراء بالمذكر :

يقول أبو نواس فى غلام اسمه رَحْمة :

أحببت من شعر بشار لحبكم ... بيتاً كلفت به من شعر بشار
يارحمة الله حلى فى منازلنا ... وجاور ينافدتك النفس من جارِ
إذا ابتهلت سألت الله رحمته ... كنيت عنك ومايعدوك إضمارى

ويقول البحترى فى غلام اسمه « نسيم » :

دعا عبرتى تجرى على الجور والقصد ... أظن نسيما فارق الهم من بعدى
خلا ناظرى من طيفه بعد شخصه ... ويا عجباً للدهر فَقْدٌ على فقد

ويقول حماد عَجْرَد فى غلام اسمه « بشر » :

أخى كف عن لومى فإنك لا تدرى ... بما فعل الحب المبرح فى صدرى
أخى إن تلحانى وقلبك فارغ ... وقلبى مشغول الجوانح بالفكر
أخى إن دائى ليس عندى دواؤه ... ولكن دوائى عند قلب أبى بشر
دوائى ودائى عند من لو رأيته ... يقلّب عينيه لأقصرت عن زجرى
فأقسم لو أصبحت فى لوعة الهوى ... لأقصرت عن لومى وأطنبت فى عذرى
ولكن بلائى منك أنك ناصح ... وأنك لا تدرى بأنك لا تدرى

ويقول عبد الله بن المعتز فى غلام اسمه « نشوان » يترضاه بعد هجر وجفوة :

بأبى أنت قد تما ... ديتَ فى الهجر والغَضَبْ
واصطبارى على صدو ... دك يوماً من العَجَبْ
ليس لى إن فقدت وجـ ... ـهك فى العيش من أربْ
رحم الله مَنْ أعا ... ن على الصلح واحتسب

ويقول الحسين بن الضحاك فى غلام اسمه « يُسر » :

سائل بطيفك عن ليلى وعن سَهَرى ... وعن تتابع أنفاسى وعن فِكَرى
لم يخل قلبى من ذكراكَ إذ نظرت ... عينى إليكَ على صحوى ولا سكرى
سَقْياً ليوم سروى إذ تنازعنى ... صفوَ المدامة بين الأنس والخَفر
وفضلُ كأسك يأتينى فأشربه ... جهراً وتشرب كأسى غيرَ مستتر
وكيف أشمله لثمى وألزمه ... نحرى وترفعه كفى إلى بصرى

فليت مدةَ يومى إذ مضى سَلفاً ... كانت ومدة أيامى على قَـدَرِ

حتى إذا ما انطوت عنا بشاشـته ... صرنا جميعاً كذا جارين فى الحُفَر

و يقول الفتح بن خاقان بن احمد فى غلام اسمه « شاهك » :

أشاهك ليلى مذ هجرت طويل ... وعينى دما بعد الدموع تسيل

و بى منك والرحمن مالا أطيقه ... وليس إلى شكوى إليك سبيل

أشاهك لو يجزى المحب بوده ... جزيت ولـكن الوفاء قليل

و يقول[1] أمية بن عبد العزيز بن أبى الصّلت فى صبى مليح رآه فى أحـد متنزهات مصر :

منفرد بالحسن والظرف ... بحت لديه بالذى أخفى

لهفى شكوت وهو من تيهه ... فى غفلة عنى وعن لهفى

قد أزهر الورد على خده ... لـكنه ممتنع القطف

كأنما الخال به نقطة قـــــد قطرت من كحَل الطرف

و يقول[2] اسماعيل بن اسحق الأزدى فى غلام اسمه « ابن البَرِّى » :

ألحاظه ترجمان منطقه ... ووجهه نزهة لعـاشقه

هذبه الظرف والكمال فما ... يمر عيب على طرائقه

قد كثرت قالة العباد فما ... تسمع إلا سبحان خالقه

و يقول[3] الحسن بن وهب فى غلام اسمه « شفيع » خادم المتوكل — وقد أصابه ما جعله يحتجم :—

ليت شعرى يا أملح الناس عندى ... هل تعـالجت بالحِجامة بعـدى

قد كتمت الهوى بمبلغ جهـدى ... ففشا منه بعض ما كنت أبدى

وخلعت العـــذار فليعلم النا ... سُ بأنى إليـك أصْفِى بِوُدى

---

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ٦٧ (٢) معجم الأدباء ج ٦ ص ١٣٧ (٣) العقد الفريد ج ٨ ص ١١٣

من عَذيرى من مقلتيك ومن إشـ ـراق وجـه من حول حمرة خـد

ويقول محمد بن أحمد الكاتب فى غلام يكنى « أبا سعد » : —

حار بتنى الأيام فيك أبا سـ ـعد بسيف الهوى وسهم البعاد

ليس لى مفزع سوى عبرات من جفون مكحولة بالسهاد

فى سهادى لطول أنسى بذكرا ك اعتياض من الكرى والرقاد

وكان ابن داود يهوى غلاما اسمه « محمد بن جامع » هوى أفضى به إلى التلف . فدخل عليه أحد رفاقه ، وقال له : يا سيدى ما بك ؟ فقال : حب من تعلم أورثنى ما ترى . فقلت : ما يمنعك من الاستمتاع به مع القدّرة عليه . فقال : الاستمتاع نوعان : محظور ومباح ، أما المحظور فمعاذ الله منه ، وأما المباح فهو الذى صيرنى إلى ما ترى .

* * *

ولعلك ترى أن هذا الغزل بالمذكر لا يختلف عن الغزل العام ، فى كثير من ألفاظه ومعانيه .

فالمحبوب كلف بحبيبه ، مُعَنّى بحبه ، يتوجع من حرقة الهوى ، ولوعة الفراق . ويبتلى بألوان من الصد والهجر ، كما يبتلى بالعواذل والرقباء .

وذلك كله تراه فى كثير من هذه الأبيات .

وللحبيب طيف يزور الحبيب لماما ، فينعم بأنسه ويناجيه ، ويتحدث إليه ، ويبثه مكنون غرامه وهيامه ، وقد يغيب عنه هذا الطيف فيصيبه الهم والحزن ، كما يصيبه الأرق والسهر .

وترى هذا فى شعر الحسين بن الضحاك وغيره ممن تغزلوا فى المذكر .

وفى شعر الغزل العام تقرأ كثيراً من معانى الصبر والفزع ، والوفاء والغدر ، والرحمة والجور .

الفزع من هول ما يجرى بين المحبين ، تتذرع لها بالصبر تارة ، وقد يفلت منه الصبر ، فتنتابه الهموم والآلام .

والغدر وكثيراً ما يقع بين المحبين . نتيجة صروف الأيام . أو صروف الهوى ، أو صروف الأهل والأقارب .

والوفاء وهو الوجه الباسم ، الذى يقابل الغدر الكريه العابس .

والجور الذى يكون من الحبيبة ، فتزهو ، وتقسو ، وتتجنى ، وتظلم ، والحبيب لا جريمة له ولا ذنب ، يتوسل ، ويترحم ، ويتوب ، وينوب ، وقد يكون غفران ، وقد يكون انسياق فى التجنى والهجران .

وترى مثل هذا فى شعر أبى نواس ، وحماد ، وابن المعتز ، وابن الضحاك ، وغيرهم ممن تغزلوا فى المذكر .

وفى شعر الغزل بالمرأة تقرأ وصفاً لجمال المرأة : جمال البدن من وجه ، وخد ، وقوام ، وعيون ، وأرداف ، وجمال الحديث ، وجمال الدلال .

وفى الغزل بالمذكر تقرأ شيئاً من هذا :

فأمية بن عبد العزيز يصف انفراده بالحسن ، وانفراده بالظرف ، كما يصف خده .

وإسماعيل الأزدى يصف ألحاظه ، ووجهه .

والحسن بن وهب يصف المقلتين ، وإشراق الوجه .

فى حب الفتى طهارة وعفة كما فى حب الفتاة . وهذا ما عناه ابن داود . وفى شعر الغزل بالمذكر طهارة وعفة كما فى شعر الغزل بالمرأة . كما أن فيهما سفهاً وفحشاً وإقذاعا . نمسك القلم عن ذكر شيء من هذا كله .

ويكاد يخيل إلىّ أنك لو قرأت ما قيل فى المذكر دون أن تعرف المناسبة التى قيل فيها ، ودون أن تعرف ما يصح أن يكون فارقاً بين المذكر والأنثى من الضمائر ، كأن يكون الخطاب بالضمير أنت فلا تعرف التاء مفتوحة أو مكسورة ، أو يكون بالكاف فلا تعرفها مفتوحة أو مكسورة — لم تستطع أن تجزم بأن هذا غزل فى مذكر أو مؤنث .

الفصل الثانى

أقسام الغزل

١ — الغزل الصناعى :

قد يتجه الشاعر إلى الغزل بوحى من الصناعة ، الصناعة الشعرية . التى تدفعه إلى هذا اللون من الشعر . فيأتى باللفظ العذب . والمعنى الرائع ، دون أن يملأ الحب قلبه ، ودون أن يقصد بقوله هـذا امرأة بعينها . شغف بها حباً ، وملكت عاطفته ، وشعوره . والشاعر إذ يتحدث عن هذه النـاحية ، ويصفها كأنه يريد أن يستوعب أبواب الشعر . وهو إذ يحدثنا هذا الحديث يصور المعـانى العامة . التى تجرى بين المحبين . أما حالات المحبين الدقيقة . وأما ما يجرى بينهم من حوادث خاصـة فهو لا يصفها ، ولا يصورها ، لأنه لم يرها بعين نفسه .

وكأن الشاعر بغزله الصناعى يريد أن يشبع عواطف الناس . لما يعرفه من ميلهم لشعر الغزل ، وأنه قريب إلى نفوسهم.لأنه حديث عن المرأة ، أو بعبارة أدق عن حسن المرأة وجمالها . وتلك مظاهر تغرى بالإعجاب والقبول ولأنه رقيق اللفظ ، رائع المعنى . ولا يخفى أن لهذا أثره فى الإغراء والإعجاب .

وفى ظنى أن الشاعر العربى فى الجـاهلية رأى المرأة ، وراقه حسنها وجمالهـا ، فكلف بها ، وتغزل فيها ، وتحدث فى شعره عن حسنها وجمالها . ولـكن هذا الشاعر شغلته أحداث كثيرة ، هى الأحداث التى كانت تشغل العرب فى العصر الجـاهلى . فلم يتسع وقته ، ولم يتسع أفق حياته ، ومظاهر عيشه عن أن يجرى فى هـذا المجال ، ويتفرغ له ، ويجعل عاطفته وحاسته طوع هواه . ولهذا ابتعد فى شعره عن الغزل الذى

يصور فيه امرأة بعينها ، و يتحدث عن حاله معها ، وهى كثيرة الشئون والشجون ، ابتعد عن هذا قليلا إلى المعانى العامة فى الغزل . أو بعبارة أخرى ابتعد عن هذا إلى الغزل الصناعى .

والغزل على هذه الصورة لا يمثل حباً خاصا . ولا لذة خاصة . ولكنه يصور كثيراً من المعانى العامة التى تجرى بين المحبين . والمقصود بهذا التصوير الفن فى ذاته ، والخيال فى ذاته ، والتشويق فى ذاته ، لا يتجاوزه إلى ما عداه من عاطفة حارة صادقة أو متعة عابرة سافرة .

وقد يطعن فى هذا القدر من الشعر أن صاحبه غير مدفوع بحرارة الحب ، ونار الهوى ، فتصويره المعانى ضعيف فاتر ، كمن يصف معركة ، لم ير أهوالها ، ولا أحداثها ، فهو يتخيل ، و يصور هذا الخيال .

وربما يدفع هذا الطعن أن تصوير المعانى ، و إن كان فاتراً ضعيفاً ، ولكنه يثير حساسية القارىء أو السامع ببضعة أبيات من الغزل ، فيعجب و يطرب . وحينذاك وقد تفتح قلبه، وتفتق ذهنه ، يصغى إلى سائر القصيدة فى وعى ، و يقظة ، وحسن قبول.

ولعل القارىء يحتاج إلى بعض الأمثلة لبسط ما نقول :

فى العصر الجاهلى :

يقول امرؤ القيس فى معلقته :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقْط اللِّوى بين الدَّخُول فحَوْمَلِ[1]

و يقول النابغة الذبيانى :

عُوجُوا فحيُّوا النُّعْم دِمْنَةَ[2] الدّار ... ماذا تُحيّون من نُؤْيٍ[3] وأحجار

---

(١) الدخول وحومل : مكانان بين البصرة وجبل بنجد. (٢) الدمنة : ما اجتمع من آثار الديار . (٣) النؤى : الحفير يكون حول الخباء يمنع المطر .

ويقول عنترة :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّم (١) أم هل عرفْتَ الدار بعد تَوَهُّم (٢)

يا دار عَبْلَة بالجواء تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

ويقول طرفة بن العبد :

لخولة (٣) أطلال ببُرْقَةِ (٤) ثَهْمَدِ (٥) تلوحُ كباقى الوَشْم (٦) فى ظاهر اليد

ويقول عبيد بن الأبرص :

طاف الخيال علينا ليلة الوادى من أم عمرو ولم يُلْمِم بميعاد

فى العصر الإسلامى :

يقول جرير .

ما للمنازل لا يُجبن حزينا أَصممن أم قدُم المدى فبلينا ؟

ويقول الفرزدق من قصيدة يمدح بنى شيبان :

أَلمّا على أطلال سعدى تسلم دوارس لما اسْتُنْطِقَتْ لم تكلم

وقوفاً بها صحبى علىّ وإنما عرفت رسوم الدار بعد التوهم

يقولان لاتهلِكْ أسًي ولقد بدت لهم عبرات المُسْتَهام المُتَيَّم

فقلت لهم لا تَعْذُلونى فإنها مَنازلُ كانت من نُوارَ بِمَعْلَم

ويقول القطامى :

إنا محيّوك فأسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطيل

ليس الجديد به تبقى بشاشته إلا قليلا ولا ذو خلّة يصل

---

(١) تردم الرحل ثوبه : رقعه . (٢) التوهم : التفرس . معنى البيت : لم يترك الشعراء لى شيئاً أصلحه . ثم سائل نفسه : هل عرفت دار محبوبتك بعد شدة البحث عنها .

(٣) اسم محبوبته . (٤) البرقة : مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصى.

(٥) موضع فى ديار بنى عامر . (٦) النقش على اليد ، وهو المسمى (بالدق)

والعيش إلا عيش ما تقــرّ به عين ولا حال إلا سوف تنتقل

ويقول[١] يزيد بن ضبة فى مطالع قصيدة :

أرى سلمى تصُدّ وما صددنا وغيرَ صدودها كنا أردنا
لقـد بَخِلَتْ بنائلها علينـا ولو جادت بنائلهـا حَمِـدنا
وقد ضنت بما وعدت وأمست تغيّر عهـدها عمـا عَهِدنا
ولو عَلِمَتْ بمـا لاقيتُ سلمى فتخبرنى وتعـلم ما وجدنا
تُلِمّ على تنـائى الدار منـا فيُسهرنا الخيـال إذا رقدنا

فى العصر العباسى :

يقول[٢] البحترى فى مطلع قصيدة يمدح المتوكل :

ردى على المشتاق بعض رقاده أو فاشرَكيه فى اتصال سهاده
أسهرته حتى إذا هجر الكرى خليت عنه ونمت عن إسعاده
وقسا فؤادك أن يلين للوعة باتت تقلقل فى صميم فؤاده
ولقد عذرت فهان طوعاً للهوى وجنبته فرأيت ذل قيـاده
مَن منصفى من ظالم ملّكته ودى ولم أملك عزيز وداده
إن كنت أملك غير سالف وده فبليت بعد صدوده ببعاده

ويقول من مطلع قصيدة يمدح أحمد بن اسماعيل :

عرجوا فالدموع إن أبك فى الربـــع دموعى والاكتئاب اكتئابى
وكمثل الأحباب لو يعلم العـــا ذل عندى منازل الأحبـــاب

ويقول[٣] المتنبى فى مطلع قصيدة يمدح أبا المنتصر شجاع بن محمد :

أرقٌ على أرق ومثلى يأرق وجوى[٤] يزيد وعبْرَةٌ تترقرق

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٩٥
(٢) ديوان البحترى ج ٢ ص ١٢٩
(٣) ديوان المتنبى ج ١ ص ٤٧٧
(٤) الجوى : الحرقة من حزن أو عشق .

جهد الصبابة أن تكون كما أرى ... عين مسهّدة وقلب يخفق

ما لاح برق أو ترنم طائر ... إلا انثنيت ولى فؤاد شيّق[١]

جربت من نار الهوى ما تنطفى ... نار الغضى[٢] وتكلّ عما تُحرق

وعذلت أهل العشق حتى ذقته ... فعجبت كيف يموت من لا يعشق

وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني ... عيّرتهم فلقيت فيه ما لقوا

ويقول[٣] بشار فى مطلع قصيدة يمدح سليمان بن هشام بن عبد الله :

نأتك على طول التجاوُر زينب ... وما شعرت أن الهوى سوف تَشعب

يرى الناس ما تلقى بزينب إذ نأت ... عجيبا وما تُخفى بزينب أعجب

وقائلة لى حين جد رحيلنا ... وأجفان عينيها تجود ونسكُب

ويقول[٤] أبو نواس فى مطلع قصيدة يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر :

غرد الديك الصدوح ... فاسقنى طاب الصّبوح[٥]

اسقنى حتى ترانى ... حسنا عندى القبيح

قهوة تذكر نوحا ... حين شاد الفلكَ نوح

نحن نخفيها ويأبى ... طيبُ عَرف فيفوح[٦]

ويقول[٧] :

عاج الشّقِيُّ على رسمٍ يسائلُهُ ... وعُجْت أسألُ عن خمّارة البَلدِ

يبكى على طلل الماضين من أسد ... لا درّ درُّكَ قل لى مَن بنو أسَدِ ؟

ومن تَميمُ ؟ ومَن قيسٌ ولَفُّهُمَا ... ليس الأعاريبُ عند الله من أحَدِ

لا جَفَّ دَمْع الذى يبكى على حَجَرٍ ... ولا صَفَا قَلبُ من يَصْبُو إلى وَتَدِ

(١) الشيق : المشتاق (٢) الغضى شجر معروف يستوقد به وتكون ناره أبقى . يريد أن يقول: إن نار الهوى أشد إحراقاً من نار الغضى . (٣) عصر المأمون ج ٢ ص ٢٧٣

(٤) عصر المأمون ج ٣ ص ٢٤٠ (٥) الصبوح : ما أكل أو شرب صباحا .

(٦) العرف: الرائحة مطلقا ، ويكثر استعماله فى الرائحة الطيبة . (٧) حدث الأربعاء ج٢ ص ١٢٠

كم بين ناعت خمرٍ فى دَسَاكِرِها ... وبين باكٍ على نُؤى ومُنتضَد[١]

دع ذا عَدِمْتُكَ وأشربها معتّقة ... صفراء تفرِقُ بين الرّوحِ والجَسَد

و يقول[٢] ابن هانىء الأندلسى فى قصيدة مدح :

فتكات طرفك أم سيوفُ أبيك ... وكؤوس خمر أم مراشفُ فيك

أجِلادُ مرهفة وفتك محاجر ... ما أنتِ راحمةٌ ولا أهلوك

يا بنت ذى البرد الطويل نجاده ... أكذا يجور الحكم فى ناديك

قد كان يدعونى خيالك طارقاً ... حتى دعانى بالقنا داعيك

عيناك أم مغناك موعدُنا وفى ... وادى الكرى ألقاك أم واديك

و يقول[٣] ابن عمار فى مطلع قصيدة يمدح المعتضد :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السرى

والصبح قد أهدى لنا كافوره ... لما استرد الليل منا العنبرا

والروض كالحسنا كساه زهره ... وَشْياً وقلده نداه جوهرا

فى العصر الحديث :

يقول[٤] حافظ إبراهيم فى مطلع قصيدة يمدح محمود سامى البارودى :

تعمدت قتلى فى الهوى وتعمدا ... فما أثمت عينى ولا لحظه اعتدى[٥]

كلانا له عذر فعذرى شبيبتى ... وعذرك أنى هِجت سيفاً مجردا

هوينا فما هُنّا كما هانَ غيرُنا ... ولكننا زدنا مع الحب سُؤدُدَا

و يقول[٦] أحمد شوقى :

أنادى الرّسْمَ لو مَلَكَ الجوابا ... وأَجْزيه بدمْعِىَ لو أثابا

---

(١) الدسكرة : بيت يكون فيه الشراب والملاهى ، ويقال انتضد القوم بمكان كذا : أى اجتمعوا وأقاموا . (٢) بلاغة العرب ص ١٧٤ (٣) بلاغة العرب ص ١١٧

(٤) ديوان حافظ ج ١ ص ٤٠ (٥) المعنى فى هذا البيت والذى بعده أنى تعمدت قتل نفسى بتعرضى لهواك ، وتعمدته أنت أيضاً بنظرتك إلى ولكن لا ذنب لى لأنى معذور بشبيبتى ، ولا أنت معتد لأنك معذور بتعرضى لك . (٦) ديوان شوقى ج ١ ص ٥٤

وقلّ لحقه العبراتُ تجرى … وإن كانت سوادَ القلب ذابا
سَبَقْنَ مُقَبِّلات التُّرْبِ عنى … وأدّيْن التحيــةَ والخطابا
نثرن الدمع فى الدِّمَنِ البوالى … كنظمى فى كواعبها الشبابا[1]
وقفتُ بها كما شاءت وشاءوا … وقوفاً علّم الصبرَ الذَّهابا

ويقول محمد عبد المطلب فى مطلع قصيدة :

خليلىَّ قلبى بسلْمى عميــدُ … ووجدى بها كلَّ يوم يزيدُ
يُذَكِّرُنيها إذا جُنَّ ليــلِى … شَمالٌ تهُبُّ وغصنٌ يميد
وبرق يلوح وطـيرٌ ينوح … وحادٍ له فى المطايا نشــيد
فأما الشمال فتُهْدى شذاها … وكالغصن ذاك القوامُ الميُود[2]
ونَوْحُ الحمام نشيد الغرام … يشنِّفُ سمعىَ منــه القصيد

* * *

هذه الأمثلة التى ذكرناها تشهد أن هذه القصائد ، وقد قيلت فى أغراض مختلفة بدئت بمثل ماقرأت من أبيات الغزل .

ولم يعرف عن هؤلاء الشعراء أو عن كثير منهم أنهم أحبوا ، ولم تكن قصائدهم الشعرية قيلت فى الغزل وحده ، إنما هى بضعة أبيات قد تزيد ، وقد تنقص يقصد منها بدء القصيدة بالغزل .

وصدق المتنبى إذ يقول فى هذا المعنى :

إذا كان مدح فالنسيب المقدّم … أَكُلُّ فصيح قال شعراً متيم

والمتنبى يعنى أن الشعراء أو كثيراً منهم حين بدءوا شعرهم بالنسيب لم يكونوا محبين ، ذوى تيَّم وغرام ، بل أرادوا تصوير معانى الغزل .

---

(١) الكواعب : ناهدات الثدى والمراد بها هنا الديار قبل أن تستحيل إلى دمن .
(٢) ماد : تثنى وتمايل .

وهذا هو الغزل الصناعى .

ولعلك نلحظ أن فى معظم هذه الأبيات تصويراً لكثير من المعانى العامة للغزل ، وهى لاتعدو :

دار الحبيبة ، والطيف ، وغصص الهوى ، وجمال المرأة .

فالدار عزيزة على الحبيب ، لأن فيها مثوى الحبيبة ، وكل أثر من آثارها حبيب إلى النفس ، يشوقها ، وتحنو إليه .

و إن ما عرف عن العرب من نُقلة ، جعلهم يظعنون و يرتحلون ، فيخلفون وراءهم ديارهم ، فيفعل بها الزمن ، و يفعل بها الريح ، و يقتضى هذا التغيير أن تصير أطلالا بالية ، يمر الشاعر بها ، أو يتخيل أنه يمر بها ، فيدعوه الوفاء ، والحنين إلى الحبيب أن يعرّج ، وأن يسائل صحبه أن يوقفوا المطىّ ، وهنا تطوف فى ذهنه الذكريات فيحيي هذه الدار ، ويحيي ساكنيها ، و يتأسى على فراقهم وهنا يسائل الربع : كيف غيّره البلى ؟ وأين ارتحل سكانه ؟ يسائله لعله يتحدث عما كان ، وما كان حلو لذيذ ، ولكن الربع لاينطق ولايجيب . ومع ذلك فهو لا ينقم عليه ، بل يدعو الله أن يسقيه الغيث ، وأن يعود إليه الأهل والأحباب .

وطيف الحبيب نوع من الذكرى ، فإذا غاب شخص الحبيب كان خياله صورة منه ، ينظر إليه ، ويحدثه و يناجيه ، و يلومه على هجره وتجنيه ، وفى غصص الهوى يحدثك الشاعر عن الفراق ، ومايترك فى النفس من مرارة وألم ، فهو منهوك القوة ، ضعيف البدن ، لا يصيبه النوم إلا لماما ، ويحدثك عن جور الحبيبة ، فهى لا ترق ولا ترحم ، وهى لاتأسو علته بوصال ، بل تزيد فى نكرها ، فتهجره وتجفوه ، وترميه باللوم والعدوان .

وفى بعض البدايات يحدثك الشاعر عن جمال المرأة ، يحدثك عن ملاحة وجهها واعتدال قوامها ، وسحر ألحاظها ، ومراشف فيها .

وهذه المعانى و إن وجدت فى جميع العصور ، إلا أنها تختلف بعض الاختلاف :
ففى العصر الجاهلى نرى بكاء الأطلال غالبا .

ذلك لكثرة رحيلهم ، ولأن الوصف كان غالبا فى شعرهم ، و بكاء الاطلال لا يعدو أن يكون وصفا ، ولم يخالف هذا النحو فيما ذكرنا من أمثلة إلا عبيد بن الأبرص حيث تحدث عن الطيف. كما أن أصحاب المعلقات لم يخالفوا هذا النحو أيضاً إلا عمرو ابن كلثوم حيث قال فى مطلع معلقته :

ألاهبى بصحنك[1] فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا[2]

و بقى بكاء الأطلال فى كل العصور .

ولكنا فى العصر الإسلامى نرى « يزيد بن ضبة » يذكر فى مطلع قصيدته صد الحبيب ، وخيال الحبيب .

وفى العصر العباسى غلب بكاء الأطلال نوع آخر هو الحديث عن غصص الهوى . و إن كان بكاء الأطلال لايزال قائما .

والسر فى ذلك أن العرب فى هذا العصر بعدوا عن حياة البدو ، وما تدعو إليه من نقلة ورحيل ، و بعدوا فى وصفهم عن الأطلال إلى ما تقضى به مظاهر الحضارة فى هذا العصر من وصف القصور ومجالس اللهو وضروب الترف . ثم كان للعرب من شعراء العهد الأموى تراث من الغزل العذرى . و يغلب على هذا النوع من الغزل تباريح الهوى . وكم لها من هموم وآلام ! . فكان من الطبعى أن يتأثر الشعر ببعض ما غلب عليه فى العهد الأموى .

وشىء آخر كان له الأثر الفعال . هو أن حضارة الفرس طبعت العرب بطابع خاص فيه ثورة على القديم . وفيه حرب على ما ألف العرب . وحمل لواء هذه الثورة الشعراء الذين نشئوا من أصل فارسى ، وزعيم هؤلاء أبو نواس .

---

(١) الصحن القدح العظيم . (٢) قريه بالشام.

عاب أبو نواس بكاء الأطلال ، ودعا إلى البدء في وصف الخمر ، وكان صارما عنيفا فى تصوير هذا العيب ، كما كان ملحًّا فى قبول دعوته الجديدة ، وذلك ما تراه فيما ذكرنا من أمثلة .

كما أن بيئة الأندلس أوحت إلى بعض الشعراء أن يبدءوا بعض قصائدهم بوصف الطبيعة ، وجمالها ، كما فعل ابن عمار .

وفى العصر الحديث ترى من يذكر فى مطلع القصيدة الديار ، كأحمد شوقى ومن يذكر تباريح الهوى ، كحافظ إبراهيم ، ومحمد عبد المطلب .

٢ — الغزل العذرى :

وهذا النوع من الغزل يختلف عن سابقه كل الاختلاف . فهو حديث عن القلب . القلب الذى أحب ، واكتوى بنار الحب . يتحدث عن هذا الحب ، وهذه النار . وهو حب صادق برىء ، لأنه يصدر عن وفاء و إخلاص . يصدر عن ود متبادل ، لا تشوبه شائبة من اللهو والمجون ، والعبث والفجور ، لا تراه وصفاً ماجناً أو حديثاً خليعاً ، أو قولا ساخراً .

شاعر الغزل العذرى يتحدث عن حبيبة نفسه ، وهى واحدة بعينها ، يذكرها فى غدوه ورواحه ، وفى حله وترحاله ، وفى نومه و يقظته ، وفى رخائه وشدته ، وحين تجود بوصاله أو تجفوه . وحين يلتئم الشمل ، أو تفرق بينهما الأيام . وهو فى هذا كله يصفها ويصورها ، يصفها وكأن كل شىء فيها فاتن جميل ، و يصورها وكأن كل أحوالها — مهما كانت — لذة ومتعة .

وما أجمل هذا الوصف !

وما أروع تلك الصورة !

لأن الحديث فيهما صادر من القلب . وما خرج من القلب حل فى القلب .

ولأن الحديث فيهما تمثيل للوفاء والإخلاص ، والتضحية والمروءة .

وأجمل بهذه المعانى !

وشاعر الغزل من هذا النوع يكون أكثر رقة فى اللفظ ، وجودة فى المعنى ، وعمقاً فى دقة التصوير ، وحسن الخيال ، لأنه يصدر فى ذلك عن حس مرهف ، ومن قلب حى ، و يتحدث بألفاظه ومعانيه وأخيلته عن مثله الأعلى ، وتمثل كل شىء فيها وهذا يدعوه لأن يتقن و يبدع ، أو يدعوه لأن يرسل نفسه على فطرتها ، فيكون ما توحيه حلواً جميلا ، لأنها فطرة بريئة طاهرة ، والبلد الطيب لا يخرج إلا النبات الطيب .

وهؤلاء الشعراء يمثلون لك فى شعرهم الغزل الصادق ، والغزل الحى ، والغزل فى كل صورة ، وفى كل شئون وشجونه . يرى الشاعر ذلك كله فى حياة الحب ، بينه و بين هواه[1] ، فيحمله إلينا شعره ، فنعجب به ونطرب ، ونطلب منه المزيد ، لأنه قوى ، ولأنه رائع جميل .

وهذا النوع من الغزل ضرب من المثل العليا ، وهذا الضرب لا تجده إلا فى قلة وندرة ، لاتجده فى شاعر إلا إذا أوتى طهارة القلب ، وصفاء الحس ، وأوتى التوفيق فى حبه ، فكانت له المرأة التى توليه من قلبها كما أولاها من قلبه ، وكانا صادقين فى هذا الولاء ، وكانا كريمين فى هذا الحب .

حينذاك يوجد الغزل العذرى ، وحينذاك يوجد شاعر الغزل العذرى ، وليس بكثير أن يجود الزمن بشاعر تتمثل فيه هذه الصفات ، ولذلك لم يكن بكثير أن نقرأ أمثلة لهذا النوع من الغزل فى بعض العصور ، وعند بعض الشعراء .

وهذا النوع من الغزل ينشأ حيث يتوافر للشاعر هذا التوفيق الذى ذكرنا أسبابه وعوامله .

---

(١) من يحبه ويهواه .

وفى يقينى أن الغزل العذرى لم ينشأ فى العصر الجاهلى .

لأن شعراء هذا العصر و إن كان قد أثر عن بعضهم أنهم تغزلوا فى امرأة بعينها ، ولكن غزلهم لم يكن فناً قائماً بذاته ، ولم يكن معروفاً فى ذلك الوقت أن شاعراً ما ، كان شعره قاصراً على الغزل ، وعلى الغزل بامرأة يحبها وتحبه ، فأودع شعره كل ما قاله فيها .

ولم ينشأ فى العصر الإسلامى .

لأنه كانت أحداث أخرى : أحداث الدين الجديد ، ونشره ، وفتح الفتوحات ، ورفع راية الإسلام ، ومن شأن هذا أن يغلب الناس على كل شىء .

وفى العصر الأموى حيث استتب الملك ، وأصبح الناس فى ظله الوارف ، وفى ضروب من الدعة ، والراحة ، والطمأنينة ، والرخاء ، وأصبح فريق منهم يسكنون بادية الحجاز لم يكن لهم حظ من هذا الترف . بل كان بؤس وحرمان جرّهم إلى حال من اليأس ، و إلى حال من الزهد و إلى حال من صفاء الروح . يتجرد عن المادة إلى حياة خالصة طاهرة ، جعلتهم يجنحون إلى الطموح والمثل العليا ، وحداهم هذا الطموح إلى أن يكون لهم تفكير جديد فى الأدب .

وكأنهم بهذا ثاروا على الأوضاع العابثة ، التى كانت فى مدن الحجاز ، ونشأ عنها الغزل الماجن ، الذى سنحدثك عنه .

ولعلك تعلم أن العصر الأموى كان عصر بناء وعمران .

لأنه جاء بعد جهاد عنيف ، وجاء بعد ثورة دامية ، حاربت الظلم والطغيان وحاربت دولا وعروشاً ، كانت لها نظم وأساليب تخالف ما جاء به دين الإسلام .

فكان لزاماً وقد سكنت النفوس واستقرت أن تبحث لها عن تقاليد جديدة فى الحياة ، ومن هذه التقاليد ما تعرف من مظاهر الملك .

ومنها أن وجدت جماعات وأحزاب يتنازعون الملك والسلطان .

ومنها أن اتجه كثير من رجال الرأى والفكر إلى ألوان من الإصلاح والاجتماع .

فلم لا يوجد نوع جديد من الغزل ؟ يساير هذا البعث الجديد ، أو هذه الحياة الجديدة . والأدب وحى الحياة ، ومرآة الوجود .

بلى . وجد الأدب الجديد ، ومنه الغزل العذرى .

فى مثل هذه البيئة ينشأ شاعر الغزل العذرى ، الذى يصور فى شعره عاطفته الحارة ، وقلبه الثائر ، الذى هام حباً بامرأة ، عذبته ، وأضنته ، ومع ذلك فهو مغرم بها متيم ، وهو يجد فى هذا العذاب لذته ومتعته .

إذن فى العصر الأموى نشأ الغزل العذرى ، فوجدنا جماعة من هؤلاء الشعراء ، وعلى رأسهم جميل بن معمر العذرى الذى أحب بثينة ، وسار على دربه جماعة من بعده . ويحدثنا كتاب الأغانى عن هذا الشاعر . ونقرأ فى شعره صوراً كريمة لهذا الغزل العذرى .

ويحسن قبل أن ندخل فى الحديث عن حياة هذا الشاعر ، وتحليل شعره ، ووصف ما جرى بينه وبين حبيبة نفسه أن نرسم صورة عن المثل العليا التى يصح أن تجرى فى حياة المحبين .

فما هى تلك المثل ؟

من هذه المثل :

أن يكون المحب كلفاً بحبيبته ، وأن يهواها بعين قلبه ، لا بعين هواه ، قلبه الطاهر البرىء ، لا هواه العابث الساخر ، هوًى تزيده الجفوة قوة ، ويزيده البعاد قرباً .

وأن يكون مغرماً مدنفاً ، متيماً ، ترى ذلك فى جسمه الناحل المهدود ، وفى قوله الذى تتلمس فيه صبابة الهوى ، وحرقة الغرام .

وأن يكون مجاهداً بما تحوى كلمة الجهاد من عزم وصبر ، فهو يجاهد هوى النفس حتى يكون بريئاً خالصاً ، وهو يجاهد غصص الحب ، وما أكثرها من هجر وصد ،

ووشاة ، وعواذل ، يجاهد هؤلاء جميعاً، حتى يغلبهم على أمرهم ، وحتى يصل إلى حبيبة نفسه ، يلقاها ، وتلقاه ، وتتقابل هزات القلوب ، ميكون الصفاء ، ويكون النعيم .

وأن يكون وفياً أميناً ، لايخون العهد ، ولاينقض الميثاق ، يحبها وحدها دون سائر الناس ، ويتغنى بهذا الحب فى كل زمان ومكان ، ويزهو به ولو آذوه وعذبوه .

هذا هو الحب العذرى .

وذلك هو جميل بن معمر العذرى .

أحب جميل بثينة وتغزل بها فى شعره ، ولم نعرف أنه تغزل بامرأة أخرى ،إلا أم الجُسير ــ وهى أخت بثينة ــ فى بضعة أبيات .

ملكت عليه قلبه ، ولم يفتُر حبه لها .

هجرته . وارتحلت عنه : فوصلها ، وسافر إليها .

لامه أهله فى سبيل حبها ، وأرادوا أن ينحّوه عنها : فازداد كلفا بها .

طارده أهلها ، وتربصوا به ، وأرادوا به كيداً : فاحتمل صنوف السوء والأذى .

قال الوشاة ، وأكثروا من القول : لم يصدق ، ولم يسمع ما يقولون ، بل غاظهم ، وزاد فى نقمتهم .

أهدر السلطان دمه إن سعى إلى رؤيتها ، أو ألمّ بواديها : وكان دمه الغالى رخيصاً إذا قدم قرباناً فى سبيل الحبيب !

والآنَ أترك الشعر ، يترجم عن جميل :

أبُثَينَ إنّكِ قدمَلَكْتِ فأَسْجِحِى[1] ... وخذِى بحظك من كريمٍ واصلِ

فأجبتها فى القول بعد تَسَتُّرٍ ... حُبّى بثينةَ عن وصالكِ شاغِلى

فلربَّ عارضةٍ علينا وصلها ... بالجِد تخلِطه بقول الهازل

(١) ارفقى وتلطفى .

لو كان فى صدرى كقدر قُلامة[١] فضلا وصلتكِ أو أتتك رسائلى

* * *

ويقلن إنكَ قد رضيتِ بباطل منها فهل لك فى اجتناب الباطل

ولباطِلٌ مما أُحِبّ حديثه أشْهى إلىّ من البغيض الباذل

لِيُزِلْنَ عنكِ هـوايَ ثم يصلننى وإذا هَوِيتُ فما هوايَ بزائل

* * *

صادتْ فؤادى يا بثينَ حبالكم يوم الحجُون وأخطأتكِ حبائلى

منيتنِى فَلَوَيْتِ ما منيتنى وجعلتِ عاجلَ ما وعدتِ كآجل

وتثاقلتْ لما رأت كلَفى بها أحبِبْ إلىّ بذاك من متثاقل

وأطعتِ فىّ عواذلا فهجرتنى وعصيتُ فيكِ وقد جَهَدن عواذلى

حاولننى لِابُتَّ[٢] حبل وصالكم منِّى ولست وإن جَهَدن بفاعل

فرددتهن وقد سعين بهجركم لما سَعَيْنَ له بأفْوق[٣] ناصِلِ[٤]

يَعْضَضْنَ من غيظٍ علىّ أناملا وَوَدِدْتُ لو يَعْضَضنَ صُمَّ جَنادل

ويقلن إنكِ يا بثينَ بخيلةٌ نفسى فداؤكِ من ضنينٍ باخل

ماذا يعنى أن يقول جميل ؟

فى المجموعة الأولى :

يحدثنا عن كلفه ببثينة ، وأنه شغل بها كل قلبه ، ولم يبق منه شىء خال ، حتى قدر القُلاَمة ، وأنه وفىٌّ لها ، لا يتخلى عنها إلى غيرها من النساء ، مهما كانت جميلة ، فاتنة الجمال ، ومهما أغرته بضروب من الإغراء .

وفى المجموعة الثانية :

يحدثنا عن العواذل . وكان جميل قد أتى بثينة لوعدها ، وعرف أهلها ذلك ،

---

(١) القلامة : ما سقط من الشىء المقلوم ، ويقصد بالقلامة هنا القدر القليل اليسير .

(٢) بت حبل وصله : جفاه وقطعه (٣) السهم الأفوق : السهم الذى به انكسار فى أحد حرفيه . (٤) ناصل : لا نصل له .

يحرسوها ، ويمنعوها أن تذهب للقائه ، وطال بجميل الانتظار حتى أسفر الصبح .
فعاد كئيبا ، سيء الظن بها ، وكانت الفرصة سانحة للعاذلات من نساء الحى . أخذن يلمنه ويقرّعنه ، ويكرّهن إليه بثينة ويصوّرن ما حدث من إخلافها الوعد فى صورة قاتمة سوداء ، فهى كذوب غادر ، وهى مشغولة بحب سواه .

يقول له نساء الحى هذا القول ، ويغرينه باطّراح هواها ، ويقدمن إليه من هى أكثر حسناً ، وأكثر روعة ، وأكثر جمالا .

ولكن هذا القول ثقيل إلى جميل ، فهو يعرف أنهن يردن إزالة هواه عن بثينة ، ويصدهن صداً عنيفاً ، لا أمل بعده ، فهو إذا هوى لا يزول هواه .

وفى المجموعة الثالثة :

يحدثنا عما يلقى من حبيبته بثينة . وكيف جازاها على ذلك بالوفاء لها والتفانى فى حبها .

لقى جميل من بثينة أن منّته فأخلفت الأمانى ، وأن تثاقلت حين رأت كلفه بها ، وأنها أطاعت العواذل فهجرته ، وجفته .

أما جميل فقد رضى بتثاقلها . وعصى العواذل فى هجرها ، وغاظهن ذلك ، وود أن يعضض الأحجار الصلدة ، لا الأنامل ، ويدفعه الوفاء فوق ذلك إلى أن يدفع عنها أنها بخيلة ، وأنه يرضى بهذا البخل ، ويهدى صاحبته بنفسه ، وهى أعز شيء إليه .
ويقول[1] :

خليلىّ عُوجا اليوم حتى تُسلِّما	على عذبةِ الأنياب طيّبة النَّشْر[2]
أَلِمّا بها ثم اشفَعا لى وسلِّما	عليها سقاها الله من سائغ القطر
وبُوحا بذكرى عند بَثْنة وانظرا	أترتاح يوماً أم تَهَشّ إلى ذكرى
فإن لم تكن تقطَعْ قُوى الود بيننا	ولم تنسَ ما أسلفتُ فى سالف الدهر

(١) الأغانى ج ٨ ص ١٥٠ (٢) النشر : الرائحة الطيبة .

فسوف يُرى منها اشتياقٌ ولوعة ... ببَيْنٍ وغَربٌ من مدامعها يجرى

وإن تكُ قد حالت عن العهد بعدنا ... وأصْغَتْ إلى قول المؤنِّب والمُزْرى

فسوف يُرى منها صدودٌ ولم تكن ... بنفسىَ من أهل الخيانة والغَدْر

أعوذُ بك اللّهم أن تَشْحَطَ النّوى ... ببَثْنة فى أدنى حياتى ولا حَشْرى

وجاوِرْ إذا ما متُّ بينى و بينها ... فياحَبَّذا موتى إذا جاوَرَتْ قبرى .

عدمتُكَ من حبٍّ أمَا منك راحةٌ ... وما بك عنّى من توانٍ ولا فَـتْرِ

ألا أيها الحبُّ المـبرِّح هـل ترى ... أخا كَلَفٍ يُغْرى بحبٍّ كما أُغْرِى

أجِـدَّك لا تَبْلَى وقد بَلِىَ الهوى ... ولا يَنتهى حُـبِّى بُثَيْنة للزَّجْرِ

فى هذه الأبيات يحدثنا جميل عن بَثّه وهواه .

فارقته بثينة ، وفراقها عزيز على نفسه . فهو يرسل لها الرسل . يحيونها ، و يسلمون عليها . تحية جميل ، وهى صادقة حارة . وسلام جميل ، وهو حلو كريم . ثم يستشفعون له ، و يتوسلون إليها ، لعلها ترق وترحم ، ولعلها تصله بعد جفوة ، وترضى عنه بعد هجران .

وجميل حين يتشفع و يتوسل لا يُبقى على حيلة أو وسيلة ، يكسب بها رضا بثينة . و يعرف مدى حظه من هذا الرضا .

يطلب جميل من الرسولين أن يبوحا لها بذكره ، وفى ذكره لوعة ، وحنين ، واشتياق . وأن يتحدثا عن سالف وده ، وكله صبابة ، ووجد ، وغرام .

ولينظر بعد ذلك قسمات وجهها ، ففيها الجواب الحاسم .

فإن كانت ترتاح إلى ذكره ففى ذلك خير لا يعدله خير .

وانظر كيف أنه يرضى منها بالقليل . لا يطلب أن تبثه الغرام والهوى كما بثها . ولا يطلب أن تقابل الأنين بالأنين ، واللوعة باللوعة . وهيهات أن تقوم المساواة بين الرجل والمرأة فى هذا الشأن !

ثم انظر كيف أنه يرضى منها بالجواب السلبى لا الإيجابى . فكل ما يصبو إليه

ألا تقطع الود بينه وبينها ، أما الوصال الكامل ، فهذه غاية لا يدركها المحبّ المتيم .

ثم انظر كيف تعلقت به الآمال . فرتّب على هذا القدر القليل أن سيكون لها في المستقبل لوعة واشتياق . والمحبّ يعيش دوما في ظلال الأمل .

وتأمل ماذا قال بعد ذلك ؟ .

صوّر لنا الوجه العابس . الذى تصغى فيه الحبيبة إلى من يلوم و يعذل ، فتصد وتجفو . وذلك غدر ليس من شيمتها . فالمحب الصادق لا يرمى حبيبته بتهمة أو سوء لأنه يرتفع بها عما يعيب و يشين . وهو يدعو الله ألا يكون فراق بينهما دوم الحياة . وأن يكون ــ حين الموت ــ قبراهما متجاورين ، متلازمين . و بهذا يكون الموت حلوا جميلا . لأنه عاش الحياة قريبا منها ، ولأنه مات ، ولم يفقد هذا القرب ، وذاك النعيم فلم يحزن على الموت ؟ إنما يحزن الناس لأن خيراً فاتهم . أما جميل فخيره لا يزال بجانبه تتناجى أرواحهما فى الموت ، كما كانت تتناجى فى الحياة ، لا فرق فى ذلك ولا نقصان .

ثم أخذ يحدثنا عن حبه ، وما يلقى فى سبيله من عناء وشقاء ، وأنه مع ذلك كله يحب ، و يتفانى فى هذا الحب ، ولا يرضى عنه بديلا .

وماذا نرجو من محب صادق . ومن قلب كريم أن يقول غير ماقال جميل . وأن يحدّثنا غير هذا الحديث ؟

ذلك هو الغزل العذرى .

الذى يترجم عن القلب . والذى يصور لك حياة المحبين هـذه الصورة الجميلة ، التى رأيتها والتى يحسن بك أن تتذوقها حين تقرأ ما ذكرنا من شـعر جميل . وأن تردد هذه القراءة ، وأن تجعل من قلبك ما يناسب هذا الصفاء ، وهذا الطهر ، وهذا الجمال .

ذلك هو جميل ، وتلك هى بثينة ، يحدثنا الشعر عن حبهما الصادق هذا الحديث .

يحدثنا أيوب بن عَباية قال :

سمعت أَمَةٌ لبثينة بها إلى أبيها وأخيها أن جميلا عندها الليلة فأتياها مشتملين على سيفين. فرأياه يحدثها ويشكو إليها بثّه، ثم قال لها يا بثينة: أرأيت ودى إياك وشغفى بك ألا تجزينيه! قالت بماذا؟ قال: بما يكون بين المتحابين. فقالت له: يا جميل. أهذا تبغى! والله لقد كنت عندى بعيداً منه. ولئن عاودت تعريضاً بريبة لا رأيت وجهى أبداً. فضحك، وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه. ولو علمت أنك تجيبيننى إليه لعلمت أنك تجيبين غيرى، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفى هذا ما استمسك فى يدى. ولو أطاعتنى نفسى لهجرتك هجرة الأبد، أو ما سمعت قولى:

وإنى لأرضى من بثينة بالذى	لو أبصره الواشى لقرّت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى	وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنّظرة العَجلى وبالحول تنقضى	أواخره لا نلتقى وأوائله

وهذا هو الحب الصادق البرىء الذى عناه جميل بقوله:

أفى الناس أمثالى أحبَّ فحالهم	كحالى أم أحببت من بينهم وحدى
وهل هكذا يلقى المحبون مثل ما	لقيت بها أم لم يجد أحدٌ وجدى

٣ — الغزل الماجن الحسى:

وهذا النوع — كما يفهم من اسمه يميل إلى وصف المرأة، وإلى المبالغة فى الوصف وإلى مجاوزته إلى ذكر أمور أخرى فى المرأة، تثير اللذة، والشهوة.

وينشأ هذا النوع حيث يوجد الترف. بل حيث يوجد السرف فيه، عند قوم لا همّ لهم فى الحياة إلا أن ينعموا، وأن ينعموا بوسائل النعمة كلها، ما خبث منها وما طاب، وما جمل وما قبح.

وفى العصر الأموى كانت حياة العرب فى العراق والشام قد شغلتهم أحداث

السياسة ، وغلبتهم مظاهر الملك . هؤلاء يؤيدون . وأولئك يعارضون وكلٌّ يسلك لذلك شتى الوسائل .

وفى الحجاز جمهرة من أبناء المهاجرين والأنصار . وقد شغلوا عن ذلك بلون جديد فى الحياة . هم مغلوبون على أمرهم . لأن ملوك بنى أمية يضيقون الخناق عليهم ، حتى لا تقوى كلمتهم ، وكانوا يغرونهم فى ذلك بالمال والعطاء . وكان جماعتهم الذين يسكنون الحضر أهل ثروة وغنى . فجنحوا إلى الراحة ، ثم اجتناء ثمار الترف والسرف ، فكان اللهو ، وكان العبث ، وكان المجون .

وجعلوا من المرأة أداة هذا العبث ، وحمل الشعر إلينا صوراً من الغزل بالمرأة ، وكان غزلا ماجناً سافرا ، يرضى هؤلاء المترفين .

وزعيم هذا الغزل الماجن عمر بن أبى ربيعة .

نشأ عمر بن أبى ربيعة من أسرة قرشية ذات حظ من المجد والشرف ، وذات حظ من الثروة والغنى ، كسبته من التجارة بين الحجاز واليمن .

عاش عمر فى مكة بعيداً عن السياسة والحزبية ، فى بيئة كلها سرف وترف . فنعم ولهاً ، وجرى وراء المرأة يجد فيها لهوه ونعيمه .

تحدث عمر عن المرأة ، فعرض لجمالها ، وعرض لحسنها ، وعرض لزينتها ، وعرض لمواضع دلّها ، وفتنتها ، و إغرائها ، وأغرق فى ذلك إغراقا ، ولم يتحرج أن يكون وصفه دقيقاً حساسا .

وكأنَّ عمر فى شعره ، وفى غزله كان كالمصور الماهر ، ينشد كل ماهو حسن جميل ، و يجرى وراء ما هو فاتن جذاب ، ليشبع هوى نفسه ، ويمتع دقيق حسه ، وكما أن المصور يرسم لنا صورة من هذا الحسن والجمال ، لنستمتع بها فترة من الزمن ، وتستمتع بها الأجيال المتعاقبة . فكذلك عمر كان ينشد الجمال فى الأنثى أو فى الذكر ،

ينشد الجمال فى كل مكان ، وكثيراً ما كان فى موسم الحج حيث يتجه الناس إلى بارئهم ، يهفو إليه القلوب ، وتصغى إليه الأرواح .

قالوا[١] :

كان عمر بن ربيعة يساير عروة بن الزبير ويحادثه . فقال له : وأين زين المواكب ؟ يعنى ابنه محمد بن عروة ، وكان يسمى بذلك لجماله . فقال له عروة : هو أمامك . فركض يطلبه . فقال له عروة : يا أبا الخطاب أولسنا أكفاء كراما لمحادثتك ومسايرتك ؟ فقال: بلى. بأبى أنت وأمى. ولكنى مغرى بهذا الجمال أتبعه حيث كان . ثم التفت إليه وقال :

إنى امرؤ مُولَعٌ بالحسن أتْبَعُهُ … لا حظّ لى فيه إلا لذّة النظَر

إذن كان عمر ينشد هذا الجمال . يتحين له الفرصة ، و يسعى إليها ، و يبحث وراءها ، فإذا صادف غنيا وقف عنده طو يلا ، وتأمله ، واقترب منه . وغلب عليه ، حتى كأنه مغرم متيم . ويظل فى تيمه وغرامه ما بقى مقيما بالمرأة ، مزهواً بالجلوس إليها ، والحديث معها . فإذا فارقها أو فارقته لم يكن يشغل نفسه بها . وبالتالى لم تنطبع فى قلبه صورة منها ، يحن إليها ، و يئن على فراقها ، و يسعى ليراها ، و يستوحى طيفها وخيالها . ولو فعل عمر ذلك ، وفعله طوعا لقلبه الصّب ، لا إشباعا للذته ومتعته ، لكان محباً حقاً ، وكان حبه عذريا وغزله عذريا ، كما كان حب جميل ، وغزل جميل .

ولعل هذا ما كرهته بثينة ، إذ زارها عمر بن ربيعة يوما ، ليكلمها فى شأن جميل وقد أهدر الوالى دمه إن وجد عندها . أتاها عمر ووقف على بابها ، وقال لجاريتها : يا جارية : أنا عمر بن أبى ربيعة فأعْلمى بثينة مكانى . فخرجت إليه بثينة فى مباذلها . وقالت : والله يا عمر لا أكون من نسائك اللائى يزعُمن أن قتلهن الوجد بك . فانكسر عمر .

---

(١) الأغانى ج ١ ص ١٤٦

كرهت سكينة أن تكون واحدة من هؤلاء النساء ، اللائى يتحدث عمر عنهن ، فهى لا تعرف أحاديث اللذة ، ولكنها تعرف حديث القلب ، القلب الذى عرفها وحدها ، وتحدث إليها وحدها ، وهام بها وحدها ، وهو قلب جميل .

ومَنْ هؤلاء النساء ؟

تغزل عمر بعائشة بنت طلحة حفيدة أبى بكر الصديق من جهة أمها ، وزوجة مصعب بن الزبير .

كان عمر يطوف بالبيت ، ورأى عائشة ، وكانت من أجمل أهل دهرها . فبهت لما رآها ، وعلمت عائشة أنها قد وقعت فى نفسه ، فبعثت إليه بجارية لها ، وقالت : قولى له : اتق الله ولا تقل هجرا . فإن هذا مقام لا بد فيه مما رأيت . فقال للجارية : اقرئيها السلام ، وقولى لها : ابن عمك لا يقول إلا خيراً . ولم يزل عمر ينسب بعائشة أيام الحج ، ويطوف حولها ، ويتعرض لها ، وكان يلقاها وهى تسير بمكة على بغلة ، ويقول لها : قفى حتى أسمعك ما قلت فيك ، فتقف ، وينشدها .

وتغزل بسكينة بنت الحسين .

كانت سكينة مع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف ، وتذاكرن عمر وشعره وظرفه وحسن حديثه ، فأرسلن إليه ، وأخذ يحدثهن إلى أن أضاء الفجر .

وتغزل بأم محمد بنت مروان بن الحكم ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان .

أما أم محمد فكانت تحج ، ولما قضت نسكها أتت عمر بن أبى ربيعة ، وحدثها مليا ، وقالت له : نَشَدْتُكَ الله أن تشهرَنى بشعرك ! . وبعثت إليه بألف دينار .

وكذلك كان أمره مع فاطمة إذ رآها فى الحج ، وأخذ يحدثها ، وأخذت تحدثه وتنشده من شعره . وقال فيها الشعر دون أن يذكر اسمها فرَقا من عبد الملك بن مروان ومن الحجاج .

وتغزل عمر بليلى بنت الحارث البكرية .

كانت تجلس فى المسجد الحرام ، فرأت عمر ، فوجهت إليه رسولا ، فقالت له : يا ابن أبى ربيعة حتى متى لا تزال سادرا[1] فى حرم الله تشبب بالنساء ، وتشيد بذكرهن . أما تخاف الله ؟ . قال دعينى من ذاك واسمعى ما قلت فيك وأنشدها من قوله فيها .

وتغزل عمر بهند بنت الحارث المرية .

كانت تجلس مع نسوة ، وأتاهن عمر ، فأخذ يحدثهن ، ويقول فى ذلك شعراً .

وتغزل بلبابة بنت عبد الله بن العباس امرأة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، كانت تطوف بالبيت ، فرآها عمر ، فكاد عقله يذهب ، وقال فيها الشعر .

وتغزل بالثريّا بنت على بن عبد الله زوج عبد العزيز بن مروان .

وكانت أكثر النساء قرباً إلى عمر ، وكان كثير الحديث عنها ، والكلف بها .

وتغزل بزينب بنت موسى الجُمَحيّة .

ذكرها ابن أبى عتيق عند عمر يوماً ، وأطراها ، ووصف من خلقها ، وأدبها ، وجمالها ما شغل قلب عمر وأماله إليها . فقال فيها الشعر ، وشبّب بها ، وبلغ ذلك ابن أبى عتيق فلامه فيها ، وقال له : أتنطق الشعر فى ابنة عمى ؟ فقال عمر :

لا تلمنى عَتِيقُ حسبى الذى بى ... إنّ بى يا عتيقُ ما قد كفانى

لا تلمنى وأنت زيّنتها لى ... أنت مثل الشيطان للإنسان

إن بى داخلا من الحب قد أبـ ... ـلى عظامى مكنونُه وبرانى

وتغزل بالنَّوار .

رآها بالمزدلفة ، ففتن بها ، وشغلت قلبه ، وتبعها حتى نزلت بمنى فى مِضْرَب[2] قد ضرب لها ، فنزل إلى جنبه ، ولم يزل يتلطف حتى جلس معها . وحادثها ، وقال فيها الشعر .

---

(١) السادر : لا يبالى ما صنع . (٢) فسطاط للاقامة فيه .

وتغزل برملة بنت عبد الله بن خلف .

كانت تحج ، وتعرض لها عمر ، وأعجب بها . وقال فيها شعراً . كان سبباً في أن هجرته الثريا لما علمت أمره .

وتغزل بكَلْثم بنت سعد المخزومية .

رآها عمر ، وأرسل لها الرسل ، وأخذ يحتال عليها ، حتى لقيته : وأقام عندها شهراً ثم استأذنها في الخروج ، فقالت له : بعد أن فضحتني ! لا والله لا تخرج إلا بعد أن تتزوجني ! ففعل وتزوجها . وولدت منه ابنين .

كما تغزل عمر بأخريات كثيرات ، منهن هند وأسماء ، ومنهن جاريته نَعوم ، وحُمَيْدة جارية ابن تفاحة .

تغزل عمر بهؤلاء النساء . وفيهن المحصنات المترفات . اللائى على حظ عظيم من الجاه والسلطان . عرض لهن عمر في غزله ، وهو الفتى الفارع الوسيم ، ذو النعمة ، والترف ، والثراء . وقد وصفه بعض من رآه بين فتيان بنى مخزوم ، فقال : « قد فرعهم طولا ، وجهرهم جمالا ، وبهرهم شارة ، وعارضة وبياناً » .

ولعله بان لك فيما تقدم أن عمر كان كما قلت كالمصور الماهر يعرضَ للجمال . فيتحدث عنه ، ويصفه ، ويصوره ، ويأخذ منه لذته لوقته ، ثم يطوى صفحة ، وينشر صفحة أخرى ، فيها حديث ، وفيها وصف ، وفيها تصوير ، وفيها لذة ومتعة ، ولو لم يكن عمر كذلك ما تغزل بهذه الكثرة من النساء ، وما تغزل بمن لم نذكر من نساء أخريات .

وأين هذا مما كان يفعله الشعراء العذريون ؟

كان الشاعر العذرى يقصر حبه وغزله على واحدة بعينها . يرى من الوفاء أن يكون الحديث عنها وحدها . ويرى من الوفاء ألا يكون الحسن إلا لها ، وألا يكون القلب إلا لها ، وألا يكون الأنين إلا لفراقها ، وألا يكون الخير إلا فى لقائها ، وأنه

يحيا من أجلها وحدها ، ويكره الموت لأنه سيفرق بينه و بينها ، فإذا جمع الموت بينهما بأن حواها قبر واحد ، أو كان قبراهما متجاورين فالموت حلو جميل !

كما بان لك أن موسم الحــج كان الفرصة السانحة لعمر . إذ كان يقف فى طريق الحاج ، يرتقب الحسان ، وهن قادمات من الشام والعراق واليمن ، وكان يتعرض لهن وهن يؤدين معالم الحج . ولا يبالى أن يلقى منهن إعراضاً أو زجراً . فلا يزال يلاين ويلاطف . حتى يكون الرضا والقبول .

وفى ذلك يقول عمر :

فلم أر كالتجمير[1] منظر ناظر ولا كليالى الحج يفتنّ ذا الهوى

و بعض هؤلاء النساء كن يخفن التشهير ، والفضيحة ، إذا تغزل فيهن عمر ، وذكر أسماءهن . و بعضهن يغرينه ، و يرسلن له الرسل ، ويهيئن له مجلساً معهن ، ليحدثهن يوماً أو بعض يوم ، وليقول الشعر فيهن لاهياً متغزلا .

ومن النوع الأول ـ كما ذكرنا ـ عائشة ، وليلى بنت الحارث ، والنَّوار ، وفاطمة ، والثريا ، وَرمْلَة ، وكلثم .

ومن النوع الثانى : سكينة بنت الحسين ، وأم محمد بنت مروان بن الحكم ، وهند بنت الحارث .

أمّا ما كان من عمر من تعرضه للنساء الجميلات ، ومن جريه وراءهن ، ومن جهده معهن . فذلك ما بيّنا سببه وباعثه . وأما أن بعض النساء كن يغرينه ، ويرسلن له الرسل ليحدثهن ، وينشدهن ، و يشبب بهن ، وفيهن المحصنات ، فذلك ما يحتاج إلى بعض البيان .

كان للغزل سوق رائجة فى هذه الفترة من الزمن . وكان النساء على جانب

---

(١) رمى الجمرات فى مناسك الحج .

من المعرفة والعلم ، معرفة بالشعر ، وعلم بأصوله وفصوله ، وأخباره ونوادره . وكن مترفات ، فاتنات فى الحسن والجمال . وكن يعرفن من عمر غزله ، ولهوه ، وسمره ، فلم لا يكون لهن من عمر نصيب ؟

وماذا يمنع لو استمعن إليه . وتحدث إليهن ، وسمرن معه فترة من الزمن ؟ وماذا يمنع لو صور جمالهن وحسنهن ، وحمل إلينا شعره صورة من هذا الجمال والحسن ؟ والمرأة هى المرأة تدل بحسنها وجمالها ، وتود لو أن الناس جميعاً تحدثوا عن حسنها وجمالها ، ولكن فيهن محصنات لا يردن أن يشهر بأسمائهن ، فليَكْنِ عنهن عمر ، وليقل بعد ذلك مايشاء .

ولعل ذلك يفسر لنا أن عمر بن أبى ربيعة كان معروفاً لدى جمهرة هؤلاء النساء ، عرفنه من شعره ، وعرفنه من حوادثه ، وعرفنه من أحواله . وحدت هذه المعرفة كثيراً منهن إلى أن يلاطفنه ، ويحادثنه ، وأن يصغين إلى شعره وخاصة ماقيل فيهن ، بل حدت كثيراً منهن إلى أن يحتلن عليه فى اللقاء . وأن يسلكن فى احتيالهن شتى الوسائل .

لم يكتف عمر بهذا كله ، وفى هذا غناء كثير . بل راح يتغزل متأثراً بما سمع . وقد مر بنا أنه تغزل بزينب بنت موسى الجمحية . لأنّ ابن أبى عتيق وصفها له ، وأطراها . فشغل بها قلب عمر . وشبب بها ، ونرى أن عمر يقول فى زينب هذه :

إن بى داخلا من الحب قد أبـــــلى عظامى مكنونُه وبرانى
وحب من أبلى عظامه وهدّ قُواه ؟

هل حب زينب ، وهو لم يرها ، وهى لم تره ؟

لو كان الأمر كذلك لكان عمر مُفْرِطاً فى قوله ، مبالغاً فى حديثه . أو يقصد ذات الحب ، أهاجه فى نفسه ذكر زينب ، ووصف زينب ، فثارت عاطفته ، وجالت به ذكريات مريرة ، أبلته ، وأضنته .

* * *

وظاهرة أخرى يحدثنا عنها غزل عمر .

إن عمر كان أكثر غزله فى موسم الحج ، وفى نساء يفدن من الشام والعراق واليمن ، فإذا قضين الحج ومناسكه عُدْن إلى بلادهن وأوطانهن . فى هذه الفترة كان عمر يتغزل . وهى فترة قصيرة ، لا يلبثن بعدها إلى عودة ، و إلى رحيل . وكذلك كان عمر لا يكاد يرمى شباكه ، و يعقد الود بينه و بين امرأة ، و يتغزل فيها ، حتى ترتحل عنه ، فيودعها ، و يأسى على فراقها .

ولهذا نجد فى كثير من شعره وصفاً للفراق . ولوعته .

يقول عمر فى رَملة بنت عبد الله بن خلف :

أصبح القلب فى الحبال رهينا — مُقْصَداً يوم فارق الظاعنينا

وفى فاطمة بنت عبد الله بن مروان :

كدت يوم الرحيل أقضى حياتى — ليتنى متّ قبل يوم الرحيل

لا أطيق الكلام من شدة الخو — ف ودمعى يسيل كل مسيل

ذَرَفَت عينُها وفاضت دموعى — وكلانا يلقى بلب أصيل

وفى لُبَابَةَ بنت عبد الله بن العباس :

ودِّع لُبَابَةَ قبل أن تترحلا — واسأل فإن قُلالَه[1] أن تسألا

إلْبَثْ بعَمْرِك ساعةً وتأنّها — فلعل ما بخلت به أن يُبذلا

و يقول فى عائشة بنت طلحة :

من لقلب أمسى رهيناً معنّى — مستكيناً قد شفّه ما أجنّا

إثر شخص نفسى فدتْ ذاك شخصا — نازح الدار بالمدينة عنّا

ليت حظى كطَرْفة العين منها — وكثيرٌ منها القليل المُهنّا

---

(١) قليله .

، فى الثريا :

بأن البين بعد غد ... فالقلب مما أزمعوا يجف[1]
وأشكو ما أجد[2] بنا ... كل لوشك البين[3] يعترف[4]

* * *

سة أخرى تراها فى شعر عمر ، دعا إليها غزله فى هذه الكثرة

نساء .

أنه لا يكاد يرى المرأة الجميلة ، حتى يجهد نفسه ، فى الوصول إلى حبها

و يسلك شتى الوسائل ، حتى يظفر بما يريد .

ـ ترى صورة من جهد عمر فى هذه الأبيات التى قالها فى كلثم بنت سعد

وقد أبت له وصلا :

من عاشق صب يسر الهوى ... قد شفه الوجد إلى كلثم
رأتك عينى فدعانى الهوى ... إليك للحين ولم أعلم
قتلتنا يا حبذا أنتم ... فى غير ما جرم ولا مأثم
والله قد أنزل فى وحيه ... مبيناً فى آية المحكم
من يقتل النفس كذا ظالماً ... ولم يقدها[5] نفسه يظلم
وأنت ثأرى فتلافى دمى ... ثم اجعليه نعمة تنعمى
وحكمى عدلا يكن بيننا ... أو أنت فيما بيننا فاحكمى
وجالسينى مجلساً واحداً ... من غير ما عار ولا محرم[6]
وخبرينى ما الذى عندكم ... بالله فى قتل امرىء مسلم

وجف القلب : خفق واضطرب .

(٢) ما أجهدنا .

قرب الفراق .

(٤) يصبر .

يقال أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

(٦) المحرم : الحرام .

تأمل هذه الأبيات ، ترى كيف جهد عمر ، وكيف طلب رضاها ، وكيف ألحف وتوسل ، حتى وصل إلى ما أراد .

ذكر عمر أنه رآها . ولم يرها كسائر الناس . نظرة عابرة . لا تترك فى النفس أثراً . بل رآها وتركت فى نفسه الهوى .

ثم ذكر أثر الهوى . وأنه هُلْك ، وموت ، وعذاب .

ذكر أنها قتلته ولم يرتكب جرماً و إثماً . قتلته ومن شأن القاتل أن يكون بغيضاً إلى الناس جميعاً ، لأنه قتل نفساً حرم الله قتلها . ولن يسكتوا عنه حتى يأخذوا بالثأر منه جزاء ما فعلت يداه . أما القاتل هنا فليس بغيضاً إلى أحد ، بل هو محبوب من القتيل ، وأهل القتيل .

ثم أخذ يستثير عاطفتها الدينية ، التى تحرم قتل النفس . لعلها تتلافى دمه ، وهى بذلك تكون ذات خير ونعمة ، و إحسان ، ألم ترد إليه روحه ؟ ، بعد أن كان مقضياً عليه بالزوال والفناء ! .

هذه قضية .

فيها جان ، ومجنىٌّ عليه .

وكل قضية لا بد لها من قاض ، يقضى بالحق والإنصاف .

وفى هذه القضية يريدها حكماً ، فهو يرضى قضاءها ، وهو يعرف فيها صفات القاضى النزيه الكريم .

وما أعرف قضية يحلو أن يكون فيها الجانى قاضياً إلا مثل هذه القضية . حيث لا يقدر إنسان ـ أيًّا كان ـ أن يسيطر على قلب الحبيب فيجعله يرضى ، ويصل ، ويصفح .

لا يقدر إنسان — أيًّا كان — أن يسيطر على قلب الحبيب إلا الحبيب . فهو الذى يمنع . وهو الذى يستطيع أن يمنح . وهو الذى يقسو ، و يستطيع أن يلين .

هو وحده الذى نطلب منه البذل والعطاء . فإن لم يعط ، ولم يبذل فلا بذل ولا عطاء .

وقضية عمر هذه يراد أن يكون لها نتيجة طيبة كريمة، هي أن تجالسه كلثم مجلساً واحداً، لا إثم فيه ولا فجور. و يرمى عمر بهذا المجلس الواحد، لأنه يكفل ما بعد ذلك. يكفل أن يخلق بينه و بين كلثم آصرة قوية. تجعل بينهما رباطاً وثيقاً. فهو الرجل السامر، الظريف، المحبوب، وهو الرجل الساحر فى حديثه، وفى شعره.

وقالوا[1] فى ذلك: إن لشعر عمر بن أبى ربيعة لموقعاً فى القلب، ومخالطة للنفس ليس لغيره، ولو كان شعر يسحر لكان شعره سحراً.

وقال له بُدَيح: قد سحرتنى وأنا رجل! ، فكيف برقة قلوب النساء وضعف رأيهن؟

و بهذا الشعر استطاع عمر أن يستهوى قلوب النساء، واستطاع أن يظفر بإعجابهن ورضاهن، إذا اجتمع بهن، واجتمعن به. وهذا ما يطالبه عمر أول الأمر، و بعد ذلك يكون ما يريد. وفعلا كان ما أراد. فقد جذبها إلى نفسه، وطال مكثه عندها أكثر من مجلس ومجلس.

قالـوا:

فمكث عندها شهراً لا يدرى أهله أين هو.

وهذا الذى قاله عمر فى كلثم قاله فى الثريا. قال[2]:

فيم بالله تقتلين مُحبّـا ... لكِ بالوصل مُخلصاً بذّالا
ولعمرى لئن هممتِ بقتلى ... لَبِما قد قتلتِ قبلى الرجالا
حدثينى عن هجركم ووصالى ... أحراماً ترينَـه أم حلالا
فاحكمى بيننا وقولى بعدلٍ ... هل جزاء المحب إلاّ الوصالا

☆ ☆ ☆

وظاهرة أخرى تراها فى شعر عمر.

ذلك أنه كان كثير الوصف لما كان بينه و بين النساء من مجالس اللهو والسمر.

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ١٠٧ (٢) ديوان عمر — طبعة بيروت ص ٢٢٣

وكثرة هؤلاء النساء ، وتعدد المجالس والأماكن التى كان يلقاهن فيها . كل ذلك حداه إلى أن يقول الشىء الكثير .

يقول عمر فى زينب بنت موسى :

ولست بناس ليلة الدار مجلساً لزينب حتى يعْلو الرأس رامس [١]

خَلاءً بدت قَمْراؤهُ وتكشَّفت دُجُنَّتُه وغاب من هو حارِسُ

ويقول [٢] فى امرأة كانت إلفاً له :

أبْصَرْتُها ليلةً ونِسْوَتَها يمشين بين المقام والحجر

بيضاً حساناً نواعماً قُطُفاً يمشين هوناً كمشْيَةِ البقر

قالت لِتِرْبٍ لها تُلاطفها لنُفْسِدَنَّ الطواف فى عُمَرِ

قومى تَصَدَّىْ له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أختِ فى خَفَرَ

قالت لها قد غمزتُه فأبى ثم اسبطرَّتْ [٣] تشتدفى أثرى

بل يا خليلىّ عادنى ذِكَرى بل اعترتنى الهمومُ بالسَّهَر

ويقول [٤] فى فاطمة بنت عبد الملك بن مروان:

يا خليلىِ شفَّنى الذِّكَرُ وحُمُولُ الحى إذْ صَدَرُوا

ضربوا حُمْرَ القِباب لها وأديرتْ حولها الحُجَرُ

سلكوا شِعْبَ [٥] النِّقاب بها زُمَراً تَحْتَثُّها زُمَر

وطرقت الحى مكتتماً ومعى عَضْبٌ [٦] به أثَرُ [٧]

وأخٌ لم أخش نَبوته بنواحى أمرهم خَبِرُ

فإذا ريمٌ على فُرُش فى حِجَالِ [٨] الخزِّ مُخْتَدِرِ

---

(١) الدافن فى الرمس وهو القبر . (٢) الأغانى ج ١ ص ١٧٠

(٣) أى أسرعت . (٤) الأغانى ج ١ ص ١٩٦

(٥) موضع بالمدينة . (٦) العضب : السيف القاطع .

(٧) أثر السيف : فرنده . (٨) الحجال : جمع حجلة وهى قبة تزين بالستور والثياب .

حوله الأحراسُ ترقبه   نُوَّمٌ من طول ما سهِروا
شبهُ القتلى وما قُتلوا   ذاكَ إلا أنهم سَمَروا
فدعَتْ بالويل ثم دعت   حُرَّةً من شأنها الخفر
ثم قالت للتى معها   وَيْحَ نفسى قد أتى عمر
ما له قد جاء يطرقُنا   ويرى الأعداء قد حضروا
لِشقائى كان عُلِّقَنا   ولِحَيْنى ساقه القدر

ماذا وصف عمر فى هذه الأبيات ؟

أما مجلسه مع زينب بنت موسى :

فيكفى أن تعرف ماذا كان فى هذا المجلس إذا عرفت أن عمر لا ينساه أبداً ، ما دام على قيد الحياة ، وإذا عرفت أنه كان فى خلاء ، وأن الليلة مقمرة ، وأن غاب الحراس والعواذل .

وأما وصف إلفه التى زعموا أنه مرّ بها ، وجاس يتحدث إليها ، فذكر أيامه معها ، وذكر شعره الذى قاله فيها .

وماذا قال ؟

وصف جمالها ، وجمال النساء اللائى كن معها ، وهن يمشين بين المقام والحجر . وصف الجمال الحسى : من البياض ، والحسن ، والنعومة ، والنهود الكواعب . ثم وصف مشيهن ، ووصف غمزهن ، وشراكهن فى صيد الرجال .

وأما وصف فاطمة :

فقد حدثنا عن رحيلها ، وعن ركبها ، وكيف ضربوا لها حمر القباب .

حدثنا كيف زارها ، وأنه أخفى أمر زيارته حتى لا تذاع بين الناس ، واحتمل معه سيفه ، عدّة له من كل أذى ، ومكروه ، واتخذ صاحباً له ، يكون له فى هذا السفر مؤنساً ودليلا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم أخـذ يصف حفلهن . وما حوله من سهر ، وسمر ، وما حوله من خدم وحشم .

و إذا كان الأحراس فى حال كأنهم نُوّم من طول ما سهروا .

و إذا كانوا كأنهم قتلى من طول ما سمروا .

فما بالك بالمحروسات ؟

لا شك أنهن كن أكثر سهراً ، وأكثر سمراً .

ثم حدثنا عمر كيف كان وقع زيارته ؟

لا شك أن زيارة عمر هؤلاء النساء كانت حبيبة إلى نفوسهن ، يجدن فيها لذة ومتعة . فهو الشاعر الظريف الأنيس ، وهو الشاعر الفاتن ، الشائق . الفاتن بحلاوة حديثه ، الشائق بأدبه وأخباره ونوادره .

وكيف يكون هذا الشاعر بغيضاً إلى أى قلب ؟ وخاصة إذا كان قلب امرأة عربية ، تتذوق الأدب ، وتتذوق الشعر ، وتتذوق الغزل .

لكن للقوم حرمة ، وهذه سليلة الملك ، تخاف أن يحمل الشعر إلى الناس نبأها ، فيقولوا ، ويقولوا . وقد يكون فى هذا القول ما يعكر عليها سيرتها ، أو سيرة الملك ، الذى تستظل بظله .

لهذا قالت : ويح نفسى ! ولهذا عجبت من زيارته ؟ ولهذا جعلت علاقته بها شقاء ، وقدومه إليها حَيْناً ساقه القدر .

تغزل عمر فى نساء كثيرات كما رأيت . وكان فى غزله لاهياً . عابثاً ، يقصد منه المتعة واللذة ، وفى ذلك يقول :

يفرح القلب إن رآكِ وتستعـــبر عينى إذا أردت احتمالا

ولئن كان ينفع القرب ما از داد فيما أراكِ إلا خَبالا

غير أنى ما دمتِ جالسة عنــــدى سألهو مالم تريدى زَيالا

فإذا ما انصرفتِ لم أر للعيـــش التذاذاً ولا لشىء جمالا

كان عمر فى غزله لاهياً ماجنا ، ولـكن لم يصل إلى لهو ومجون العصر العباسى ، إذ لم يبلغ من الهذر والأسفاف ما وصل إليه غزل أبى نواس و بشار .

ذلك أن العصر الأموى كان يجنح إلى التمسك بالتقاليد العربيـة . وأن ملوك بني أمية كانوا يرقبون أبناء المهاجرين والأنصار فى كثير من الحذر ، لأنهم لا يدينون لهم بالخضوع والطاعة . وأن هؤلاء الشعراء الذين ينتسبون إلى بيوت قريش لم تكن تسمح لهم تقاليدهم بالخروج فى اللهو إلى حد الفجور والاستهتار ، ولعل ذلك ما جعل شعر عمر مقبولا من الملوك والخلفاء ، لم يُنكروه كما أنكروا غيره ، ولم يرتبوا عليه زجراً أو عقوبة ، كما فعلوا مع آخرين .

الفصل الثالث

شعراء الغزل

لا نستطيع فى هذا الفصل أن نتحدث عن شعراء الغزل فى إسهاب و إطناب وفى دراسة وتحليل ، ولو فعلنا ذلك لطال المدى واتسع المجال . ولكننا نريد أن نلم إلمامة عاجلة أو موجزة بهؤلاء الشعراء فى عصور الأدب ولعلنا فى هذه الالمامة نتبين ناحية من نواحى تطور الغزل من حيث شعراؤه ، ومن حيث قلتهم أو كثرتهم ، ومن حيث النهج الذى ساروا عليه ، ومن حيث الغاية التى اتجهوا إليها .

فى العصر الجاهلى :

العرب فى العصر الجاهلى أهل رحلة وأسفار . يجرون وراء عيشهم حيث يكون الكلأ والماء ، وهم أهل حرب وقتال .

لهذا كان شعرهم مرآة هذه الحياة التى يحيونها .

فهو شعر حماسة وفخر . يذكرون فيه شجاعتهم و بأسهم . و يشيدون فيه بمفاخرهم .

وهو شعر رثاء . يذكرون فيه أكثر ما يذكرون قتلاهم فى هذه الحروب ، وفى تلك الوقائع .

وهو شعر مدح . يمدحون فيه رجالهم . وما أوتوا من بأس ، وجود ، ومروءة ، ونجدة .

وهو شعر وصف . يصفون فيه ما رأوا وما شاهدوا فى نقلهم وأسفارهم .

ولكنهم بجانب ذلك كله يرون المرأة ، حيث ترعى الغنم ، وحيث المحافل والأسواق الأدبية أو غير الأدبية . وهم مرهفو الحس ، أصفياء النفس ، مرتاحو البال . يغنون و يجرون وراء الإبل . وتصفو لهم السماء . وتلمع الرمال .

فكان ذلك - كما قدمنا — يدعوهم إلى الغزل بالمرأة .

ولكنه غزل مبعثر ، لا يمتد باعهم فيه طويلا ، لأن حياة عيشهم ، وحياة بيئتهم غلبتهم على ألوان أخرى من الشعر .

وقد وجد فى هذا العصر الغزل الصناعى ، الذى يبدءون به قصائدهم ، وهو غالب كثير . وقد تحدثنا عن هذا النوع فيما مضى .

وغزل آخر قريب من الغزل العذرى . يذكر فيه الشاعر حبيبة نفسه ، ويجرى وراء حبه لها ، وهيامه بها .

ولكن شاعرنا فى هذا العصر لا يخلو من أحداث أخرى ، وأحوال أخرى تسيطر عليه ، وتملى عليه أن يقول شعراً فى هذه الأحداث ، وفى تلك الأحوال . وشاعرنا فى هذا العصر لا يمتد به النفس طويلا . فيجول ويصول مع حبيبته ، فيخرج لنا هذه الصور الرائعة ، من قصائد الغزل ، التى تكاد تكون قصصاً فيها خيال ، وفيها جمال .

ومن هذا النوع :

١ — ما كان من امرىء القيس حيث أحب ابنة عمه ـ عنيزة بنت شرحبيل ـ ، وتغزل فيها ، ووصف محاسنها ، وتحدث عن حاله معها ، وذلك فى معلقته المشهورة :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل — بسقط اللوى بين الدَّخول فحَوْمل

تقرأ هذه المعلقة ، فترى فيها تصويراً دقيقاً ، ووصفاً رائعاً ، وتحليلا لما يقع بين المحبين .

كان امرؤ القيس يحب عنيزة . وكان أن حالوا بينه وبينها . ولكنه أخذ يُعمل الحيلة حتى وصل إلى أمنية طيبة إلى نفسه . وكان أن ظعن الحىّ . فاغتنم امرؤ القيس الفرصة ، ومن عادة العرب أن يظعن الرجال أولا ، ثم النساء . تخلف امرؤ القيس عن الرجال ، وسبق النساء إلى طريق ظعنهن وفى هذا الطريق غدير بنجد يسمى « دارة جلجل » . اختبأ امرؤ القيس قريباً من هذا الغدير ، وترقب مجىء النساء ،

وفيهن حبيبة قلبه عنيزة . وما ان جاء النساء حتى نزعن ثيابهن ونزلن فى الماء ، يتبردن من حرارة الشمس. وجد امرؤ القيس الفرصة سانحة ، فبرز من مخبئه ، وجمع الثياب ، وخرج النساء جميعاً ، وأخذت كل واحدة ثيابها . وأفلح تدبيره إذ اجتمع النساء حوله ، وفيهن عنيزة . وكان مجلس حلو جميل ، جمع إلى شراب الخمــر حلاوة الحديث ، وأكرمهن امرؤ القيس بأن عقر لهن ناقته ، وأخذن يشوين لحمها حتى شبعن . ولما حان الرحيل . وركب النساء رواحلهن ، بقى امرؤ القيس دون مركب . وكان من أحب شىء إلى نفسه أن يركب مع عنيزة ، وعرف النسوة ذلك ، فساعدنه ، وأغرين عنيزة به ، حتى حملته معها ، وكان الرحيل حلواً جميلا . لأنه بجانب حبيبته ، يراها ، وتراه ، ويتحدث إليها فتصغى إليه .

أليس ذلك غزلا جميلا . يكاد يكون قصة جميلة .

بــــلى .

٢ — وعنترة وقد أحب عبلة بنت عمه . يذكرها فى كثير من أشعاره ، ويتحدث إليها حديث الحب والهوى . ويقولون(١) إن أول معلقته :

يا دار عبــلة بالجواء تكلمى   وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

أما امرؤ القيس فلم يقل فى حبيبته — عنيزة — قصيدة كاملة إلا المعلقة ، وكانت له فى أبواب الشعر الأخرى جولات صادقة ، من حماسة ووصف .

وعنترة فى معلقته لم يكن لحبيبته — عبلة — حظ إلا فى أولها ، حيث ذكر ، وخاطب ديارها ، وشكا ألم البعاد ، وحرقة الهوى . وخلص من ذلك كله إلى الفخر والحماسة .

٣ — والمرقش الأكبر ، وقد أحب أسماء ابنة عمه ، وطلب أن تكون زوجة له ، وطلبها من أبيها ، فقال له : لا أزوجك حتى تعرف بالبأس ، وفى سبيل هذا البأس

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ١١٨

ارتحل المرقش ، وفى أثناء رحيله أتى عمّه رجل ، أغراه بالمال فزوجه أسماء ، وقال المرقش فى ذلك شعراً ، ومن ذلك قوله فى مطلع قصيدة فى الحماسة :

أمن آل أسماء الطلول الدوارس تخطط فيها الطير قفر بسابس (١)

هؤلاء الشعراء الأربعة ،ومن على شاكلتهم قالوا شعراً. قالوه فى امرأة شغفوا بها حباً، ولعلك تلحظ أن هذه المرأة ابنة عم لهذا الشاعر ، كان يهيم بها ، وكان يريدها زوجة له.

وهذا الشعر من الغزل قريب من الغزل العذرى .

وقلنا إنه قريب لأن هؤلاء الشعراء لم ينفردوا فى شعرهم بالغزل وحده، بل غلبتهم أحداث أخرى قالوا فيها الشعر ، وجوّدوا ، ولم يُفردوا القصيدة كلها التى يذكرون الحبيبة - بالغزل وحده .

وهو قريب من الغزل العذرىّ لأنا لانرى فيه القلب الخالى إلا من حب هواه ، ولانرى فيه الحرارة التى تعبر عن العاطفة الملتهبة ، التى تحس وأنت تقرأ شعرها كأنك مدفوع بقوة قاهرة ، هى قوة الإخلاص والوفاء .

فى صدر الإسلام وفى العصر الأموى :

إن شيئاً واحداً غلب هذا العصر ، وطبعه بطابعه ، ذلك هو الدين الجديد :

كتابه القرآن . ورسوله محمد الأمين .

شغل العرب بهذه الدعوة ، وبهذا الدين .

شغلوا بها ، إما مؤيدين ، وإما معارضين ، واتجهوا أو اتجه كثير منهم إلى القرآن يدرسونه ، ويفهمونه ، ويشرحونه ، كما اتجه كثير منهم إلى الخطابة يرتقون منابرها .

شغلوا بما تتطلبه هذه الدعوة من جهود ، وجهاد ، ومن فتح القلوب والبلاد .

حتى يكون الدين كله لله .

---

(١) جمع بسبس وهو القفر .

ضعف جانب الشعر ، وبالتالى ضعف جانب الغزل فيه ، بل كان الغزل أكثر ضعفاً ، لأن الشعر فى بعض أغراضه الأخرى لايزال قائماً ، وإن لم يكن بالكثرة التى وجدت من قبل ، ذلك أن الإسلام يصون المرأة من العبث ، ويحمى المحصنات من أن تلوك سيرتهن الرجال .

ولعلك تعرف أن الغزل لايقوم إلا حيث تكون الدعة والراحة والطمأنينة ، وإلا حيث تكون الرغبة من جمهرة القارئين أو السامعين ، وحيث يكون رضا الحاكم وتشجيعه . وهذه العوامل لم تكن قائمة فى العصر الإسلامى الأول .

ولهذا لم يخلص إلينا من شعر الغزل فى هذه الفترة ما يصح أن نتحدث عنه .

وإذا قرأنا شيئاً منه ، وإن كان قليلا فهو من الغزل الصناعى ، لايعدوه ، إلى ماذكرنا من أنواع أخرى .

أما فى العصر الأموى فقد استقر الدين ، ودخل الناس فيه أفواجاً ، فاتسع سلطان العرب ، واتسعت دولتهم ، فلم يكن بد من الراحة والاستجمام ، يجنون ثمار الفتوحات ، ويستظلون فى ظلال الملك .

نعم وجد صراع . ووجدت جماعات وأحزاب . كانت تحترب فى سبيل الغلبة : الغلبة على الملك . والغلبة على الحياة .

قام هذا الصراع فى الشام والعراق . أما الحجاز فكان بعيداً عن هذا الصراع ، وأدى هذا إلى نشوء نوعين من الغزل : الغزل العذرى ، والغزل الماجن . وقد بسطنا ذلك من قبل . ووجد بجانب الغزل العذرى ، والغزل الماجن — الغزل الفنى .

وجد الغزل بأنواعه الثلاثة فى هذا العصر . وغنى الغزل فى هذا العصر بثروة فى الشعراء ، وثروة فى الشعر ، وثروة فى الألفاظ والمعانى .

وكان للشعر فى العصر الأموى طابعان :

طابع الشعر السياسى ، دعت إليه طبيعة الملك ، وما يتصل به من احتراب واختلاف ، ووجود شيع وأحزاب . وتبع هذا الشعر السياسى : المدح . والهجاء . مدح الأنصار والأشياع . وهجاء الخصوم والأعداء .

وطابع الغزل . دعا إليه ما بسطنا من عوامل وأسباب .

ولا ضرورة للإفاضة فى غير شعراء الغزل . فليس هذا مكانه الآن . أما شعراء الغزل فيربى عددهم على العشرين .

ذكرنا من شعراء الغزل فى شىء من البسط والبيان جميل بن معمر العذرى ، وهو زعيم الغزل العذرى . وعمر بن أبى ربيعة ، وهو زعيم الغزل الماجن . وللآخرين نهج فى الغزل قد يكون مثل نهج جميل ، أو نهج عمر ، أو يختلف عنهما بعض الاختلاف.

ومن هؤلاء الشعراء :

١ - قيسُ بن الملوّح . ويدعى بمجنون ليلى ، نسبة إلى ليلى التى اشتهر بحبه لها . ولم يعرف أنه تغزل فى غيرها . وسواء كانت سيرة قيس ، وما حاطها من شعر وقصة من نسيج الحقيقة والخيال . فإن ما نسب إليه من شعر كان قائماً ، يمثل العصر الذى نتحدث عنه . ولا يكاد يختلف فى كثير عن أترابه .

ويقول فى ليلى هذه :

أعُدّ الليالى ليلة بعد ليلة	وقد عشت دهراً لا أعُد اللياليا
أرانى إذا صليت يمّمت نحوها	بوجهى وإن كان المصلى ورائيا
وما بىَ إشراك ولكن حبها	كعود الشّجا أعيا الطبيب المداويا
أحب من الأسماء ما وافق اسمها	وأشْبَهه أو كان منه مدانيا

٢ — قيس بن ذريح ، وصاحبته لبنى . التى أحبها ، وأخلص لها فى الحب ، وأصابه فى سبيل حبها عذاب وسقم وهلاك . وحب قيس لبنى قصة رائعة ، تتمثل فيها ألواناً من الوفاء ، ومن الإخلاص .

يقول قيس :

بت والهمّ يا لبينى نجيىي وجرت مذ نأيت عنى دموعى
وتنفست إذ ذكرتك حتى زالت اليوم عن فؤادى ضلوعى
أتناساك كى يريغ فؤادى ثم يشتد عند ذاك ولوعى
يا لُبَيْنَى فَدَتْكِ نفسى وأهلى هل لدهر مضى لنا من رجوع

ويقول :

يقرّ بعينى قربها ويزيدنى بها كلفاً من كان عندى يعيبها
وكم قائل قد قال : تب فعصيته وتلك لعمرى توبة لا أتوبها
فيا نفس صبراً لست والله فاعلمى بأول نفس غاب عنها حبيبها

٣ — وعُرْوَة بن حزام العُذرى . أحب عفراء بنت عمه . ويكاد يكون شعره مقولا فيها وحدها . وقد أصابه من الحب سهام أضنته ، حتى بدا عليه الضعف والهزال . وقد رآه عرّاف اليمامة فسأله عما به ، فقال له عروة : هل لك علم بالأوجاع ؟ قال : نعم . وفى ذلك يقول عروة(١) :

ما بى من خبل ولا بى جنة ولكن عمى يا أخىّ كذوب
أقولُ لعرّافِ اليمامة : داونى فإنك إن داويتنى لطبيب
فوا كبدا أمست رفاتاً كأنما يلذّعها بالموقدات طبيب

٤ — توبة بن الحُمَيِّر . أحب ليلى الأخيلية . ومات فى سبيل حبها .

وفيها يقول :

وهل تبكيَنْ ليلى إذا مُتُّ قبلها وقام على قبرى النساء النوائح
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها وجاد لها دمع من العين سافح
وأُغْبَطُ من ليلى بما لا أناله بلى ، كلّ ما قرت به العين طائح

(١) آداب اللغة العربية ج ١ ص ١٤٢

ولو أنّ ليلى الأخيليـة سلّمت علىّ ودونى جندلٌ[١] وصفائح[٢]
لسلّمت تسليم البشاشة أو زَقَا[٣] إليها صدًى من جانب القبر صائح

٥ — كُثَيِّرُ بن عبد الرحمن ، يعرف بكثير عزة ، نسبة إلى عشيقته عزة ، بنت حميد بن وقاص .

وفيها يقول :

خليليّ هذا رَسْمُ عزَّةَ فاعقلا قَلوصيكما ثم ابكيا حيث حلّت
وما كنت أدرى قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولّت

* * *

فقلت لهـــا يا عز كل مصيبة إذا وُطِّنت يوماً لها النفس ذلت
أسيئى بنا أو أحسنى ، لا ملومةٌ لدينـــا ولا مقليّةٌ إن تقلّت
هنيئاً مريئاً غير داء مُخَـــامِرٍ لعزَّةَ من أعراضنا ما استحلت

٦ — يزيد بن الطَّثْرِية . أحب امرأة من جَرْمٍ يقال لها وَحْشِيّة .

وفى ذلك يقول :

بنفسىَ مَن لو مرَّ بَرْدُ بنانـه على كَبِدى كانت شفاء أناملُه
ومن هابنى فى كل أمر وهِبْتُه فلا هو يعطينى ولا أنا سائله

وزار بيوتاً لبنى جعفر ، ورأى هناك أسماء الجعفرية ، وقال فيها متغزلا :

فإن تمنعوا أسمـاء أويك نفعها لكم ، أو تَدِبّوا بيننا بالغوائل
فلن تمنعونى أن أُعَلّل صُحبتى على كل شىء من مدى العين قابل

ويقول :

هبينى امرؤاً إما بريئاً ظلمته وإما مسيئاً تاب منه وأعتبا
وكنت كذى داء تبغّى لدائه طبيباً فلمـــا لم يجده تطببـــا

---

(١) الجندل : الصخر العظم . (٢) الصفائح : الأحجار العريضة . (٣) رقا الطائر : صاح.

٧ — الأحوص . وقد تغزل فى نساء كثيرات . تغزل فى أم جعفر وهى ا
من الأنصار وفيها يقول :

هبينى امرءاً إما بريئاً ظلمته	وإما مسيئاً مذنباً يتوب
فلا تتركى نفسى شعاعاً فإنها	من الحزن قد كادت عليك تذوب
لك الله ، إنى واصل ما وصلتنى	ومثن بما أوليتنى ومثيب
وآخذ ما أعطيت عفواً وإننى	لأزور عما تكرهين هيوب

وتغزل فى سلامة القس المغنية :

أسلام ، إنك قد ملكت فأسجحى	قد يملك الحر الكريم فيسجح
منى على عان أطلت عناءه	فى الغل عندك والعناة تسرح
إنى لأنصحكم وأعلم أنه	سيان عندك من يغش وينصح
وإذا شكوت إلى سلامة حبها	قالت : أجد منك ذا أم تمزح

كما تغزل بالدلفاء :

٨ — عبدالله بن قيس الرقيات ، وكان من شعراء السياسة ، ومن أنصار عبد
ابن الزبير ، ومن المعارضين لبنى أمية . وكان غزلا رقيقاً ، وكان غزله أداة لإش
هواه السياسى . ذلك أنه كان يذكر نساء خصومه السياسيين . ويتخذ من ذكر
وسيلة إلى حرب هؤلاء الخصوم . خاصم بنى أمية وتغزل فى أم البنين امرأة الو
ابن عبد الملك وبنت عبد العزيز بن مروان . ونرى فى شعره أنه كان يحب النساء جم
ونرى فى روح هذا الشعر أنه كان ينزع فى هذا إلى مثله العليا فى الجمال . وتغزل أ
فى رقية بنت عبد الواحد ، وفى كثيرة ، وثريا ، وسعدة ، وسلامة .

يقول ابن قيس الرقيات فى كثيرة :

عاد له من كثيرة الطرب	فعينه بالدموع تنسكب
كوفية نازح محلتها	لا أمم دارها ولا صقب

والله ما إن صَبَتْ إلىَّ ولا إنْ كان بيني وبينها سبب
إلا الذى أورَثَتْ كَثِيرَةُ فى القلـ ب وللحُبِّ سَوْرَةٌ عجب

ويقول فى رُقَيَّـة :

رُقَىَّ بعيشكم لا تهجرينـــا ومنينا المنى ثم امطلينا
عدينا فى غير ما شئت إنا نحب وإن مَطَلْتِ الواعدينا
فإمَّا تنجزى عِـدتى وإمَّا نعيش بما نؤمل منك حينا

٩ — العرجى .

من شعراء قريش الذين شهروا بالغزل . نحا فى ذلك نحو عمر بن أبى ربيعة ، وكان مشغوفاً باللهو والصيد . شبَّب بجيداء ـ أم محمد بن هشام بن اسماعيل المخزومى ـ وكان ينسب بها هجاء لابنها ـ محمد بن هشام خال هشام بن عبد الملك ـ وكان والياً على مكة .

وفيها يقول :

عوجى علينا ربةَ الهَوْدَجِ إنك إن لا تفعلى تحْرَجِى
إنّى أتيحت لى يمانيةٌ إحدى بنى الحارث من مَذْحَجِ
نلبثُ حولا كاملا كلـه ما نلتقى إلا على مَنْهجِ
فى الحج إن حَجَّت ، وماذا مِنًى وأهلهُ إن هِيَ لم تَحْجُجِ
أيْسَرُ ما نال مُحِبٌّ لدى بيْنِ حبيب قولهُ عرِّجِ
نَقْضِ إليكم حاجةً أو نقُلْ هل لِىَ مِمَّا بِيَ من مَخْرَجِ

كما شبَّب بزوجه — جَبْرة — وفيها يقول :

عوجى علىَّ فسلمى جَـبْرُ فِيمَ الصدودُ وأنتمُ سَفْرُ

وتغزل العرجى فى أم الأوقص — محمد بن عبد الرحمن المخزومى — وفى عائكة زوجـة طُرَيْح بن إسماعيل الثقفى . كما تغزل فى كُلَابَة مولاة لثقيف ، كانت عند عبد الله بن قاسم الأموى .

وفيها يقول :

قالت كَلَابَة : من هـذا فقلت لهـا	أنا الذى أنت من أعـدائه زعموا
وأنا امرؤ جـد بى حب فأحرضنى	حتى بَليت وحتى شـفنى السقَم
لا تشكينى إلى قـوم لو انهـم	من بغضـنا أُطعموا لحمى ، إذاً طعِموا
وأنْعمى نِعمةً تُجزَىْ بأحسنها	فطالما مسّـنى من أهلك النقـم
سَتْرُ المحبِّين فى الدنيـا لعلّهمُ	أنْ يُحدثوا توبةً فيهـا إذا أثموا
هـذى يَمِـينٌ رهْنٌ بالوفاء لكم	فارْضَىْ بها ولِأنفِ الكاشِحِ الرَّغَم (١)

١٠ — النُّمَيرى .

من شعراء الغزل فى الدولة الأموية . كان يهوى زينب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج بن يوسف . وفيها يقول :

فوالله ما أنساكِ زينبُ ما دعت	مطوّقـةٌ ورقاء شجْواً على غُصْن
فإن احتمال الحى يوم تحمّـلوا	عَنَاكَ وهل يعنيك إلا الذى يعنى
ومُرْسلةٌ فى السِّر : أن قد فضحتنى	وصَرّحْتَ باسمى فى النسيب فما تكْنى
وأشمتّ بى أهلى وجُلّ عشيرتى	ليهنئك ما تهواه ، إن كان ذا يَهْنى
وقدْ لامنى فيهـا ابن عَمّى ناصحاً	فقلت له : خُذْ لى فؤَادىَ أوْدعْنى

١١ — ابن ميادة :

كان ينسب بأم جَحْدَر — بنت حسان المرّية إحدى نساء بنى جَذيمة — وله فيها شعر كثير ، وغزل كثير ، وشئون كثيرة . وفيها يقول :

ألا ليت شعرى هل إلى أمِّ جَحْدر	سبيل ؟ فأما الصبر عنها فلا صبرا
فإن يك نَذْرٌ راجعاً أمّ جحدر	علىّ لقد أوْذَمْتُ (٢) فى عُنُقى نذرا

(١) مثلثة الراء مع سكون الغين ، وحركت لضرورة الشعر . والرغم : الذل . وأصله من أن يلتصق أنفه بالرغام وهو التراب .

(٢) أوذم على نفسه كذا : أوجب .

وإنى لأستنشى[1] الحديث من أجلها ... لِأسمع منها وهى نازحةٌ ذِكرا
وإنى لأستحيي من الله أن أرى ... إذا غدر الخُلّانُ أنْوى لها غدرا

وشبب ابن ميادة بزينب بنت مالك. كما تغزل فى امرأة من بنى حرام يقال لها: أم الوليد، رآها وأعجب بها. وقال فيها:

ألا حبذا أمُّ الوليدِ ومَرْبَعٌ ... لنا ولهـا نشتو به ونصيفُ

وهناك من شعراء الغزل عدا من ذكرنا كثيرون:

الحارث بن خالد المخزومى : يهوى عائشة بنت طلحة

أبو دَهْبل الجُمَحِيّ : يهوى امرأة من قومه اسمها «عمرة»

المخبّل القيسى : يهوى ابنة عمه مَيْلاَء

ذو الرُّمة : وصاحبته ميّة

هذه طائفة من شعراء الغزل فى هذا العصر، وهم من الكثرة إلى حد كبير.

ولعل هذه الكثرة تعطيك صورة صادقة عن الغزل فى هذا العصر، من حيث إقبال الشعراء عليه، ومن حيث استماع العرب إلى وحى الشعراء، ومن حيث البيئة التى طبعت هؤلاء بحب الغزل، ونفذت إلى أولئك فجودوا ووقعوا على مزاهر شعرهم هذا النغم الحلو الجميل، وهذا الوحى لما تجيش به صدور المحبين.

كثير من هؤلاء الشعراء آثروا شعر الغزل؛ على ما عداه من سائر أبواب الشعر فلم يقولوا فى مدح أو هجاء، أو وصف أو رثاء، أو حماسة وزهد، وبعض هؤلاء الشعراء قالوا فى أبواب أخرى ولكنهم لم يجودوا، ولم يكثروا إلا فى شعر الغزل.

وهناك شعراء آخرون غنى بهم هذا العصر:

فالأخطل، وجرير، والفرزدق من فحول شعرائه.

وقد غلب على شعر هؤلاء المدح والفخر والهجاء.

(١) استنشى الحديث: تعرفه وبحث عنه.

ولكن جريراً كان مجوداً فى الغزل كما كان مجوداً فى المدح والهجاء
الأخطل فال فى النسب و إن لم يكن قوله كثيراً .

وهناك جمهرة من شعراء السياسة يحسن أن نشير إلى أن طائفة منهم قالوا
ومن هؤلاء :

ابن مُفرِّغ الحِميْرى ، والراعى ، وأبو صخر الهذلى . و يونس الجرمى ،
ابن يسار .

وهل عرفت بعد هذا ماذا أسدى عصر بنى أمية إلى شعر الغزل ؟

وكيف كان الغزل فى هـذا العصر أكثر نمواً وأكثر ازدهاراً فى
سابق أو لاحق ؟

فقد نشأت فى هذا العصر ألوان من الغزل لم تكن قائمة ، ونال بعض
الألوان حظ من الانتشار والازدهار لم تنله إلى وقتنا الحاضر .

كما غنى هذا العصر بطائفة من شعراء الغزل أضفوا على الشعر ثروة
من الألفاظ العذبة والمعانى الرائعة والأخيلة الشائقة الجذابة .

كم نحن مدينون لهذا العصر فى شعر الغزل بالشىء الكثير !

وقد رأيت شيئاً من ذلك فيما قدمنا من بسط و بيان ، وسترى ذلك
حين نتحدث عن سائر كتب الغزل .

فى العصر العباسى :

عرفت فيما سبق كيف أن الشعر نما فى العصر العباسى نحواً آخر يخالف
فى العصر الأموى .

فقد أصبح العرب فى حال من الترف والغنى والثروة ، فليجنوا هذه الثمار ،
لهذا الجنى أثر فى معاشهم ، وفى أدبهم الذى هو ترجمان هذا المعاش .

وأصبح العرب فى حال من الملك والسياسة ، و فى حال من اختلاط بالأعاجم

من سيطرة لهؤلاء الأعاجم على مظاهر الحكم ، ومظاهر العيش ، ومظاهر الأدب .

تأثر الشعر بكل هذا ، فنما الغزل الماجن ، وضرب فيه الشعراء بسهم وافر .

فقد ابتعد الشعراء إلى حدّ ما عما كان يصونهم من قرب البداوة ، ومن قرب الوازع الدينى ، ومن قرب رعاية التقاليد التى كانت مألوفة فى ذلك الحين ، وجاء نوع جديد كله ثورة على القديم ، وكله ثورة على ما كان معروفاً من نظم وأوضاع .

جاء بشار وأبو نواس ، وهما من أصل فارسى ، يحملان نوعاً جديداً من الأدب ومن الشعر ومن الغزل .

كنا نجد بعض بدايات القصائد من الغزل: أما فى هذا العصر فقد كثر البدء بوصف القصور ، ومجالس اللهو ، وإخوان السمر ، وغناء القيان ، أو بوصف الخمر وما يتصل بهذا الوصف .

وكنا نجد الغزل العذرى ، ونجده بكثرة وقوة فى العصر الأموى ، أما فى هذا العصر فقد غاب واحتجب لأن أسبابه لم تعد قائمة فى هذا العصر؛ ولأنه وجد فى هذا العصر من العوامل والأسباب ما ينافى الغزل العذرى .

وكنا نجد غزلاً ماجناً فى العصر الأموى ، ولكنه لم يصل إلى حد من الفحش والاستهتار ، كما وصل فى العصر العباسى على يدى أبى نواس و بشار ومن لفّ لفّهما .

وقد سبق أن قلنا : إن الغزل بالمذكر قد نبت فى هذا العصر ، وقد نشأ على أيدى هؤلاء الشعراء الذين نسلوا من أصل فارسى ، أو تأثروا بهؤلاء الفرس .

و يكاد ينقسم شعراء هذا العصر قسمين :

شعراء الموالى الذين نشئوا من أصل فارسى ، أو كان لنفوذ الفرس والأعاجم أثر قوى فى شعرهم ، وفى منحاهم الشعرى .

ومن هؤلاء بشار ، وأبو نواس ، وابن الرومى ، وأبو العتاهية ، ومسلم بن الوليد .

وحسين بن الضحاك ، وسَلم الخاسر ، وحمّاد عجرد .

وشعراء العرب الذين بعدت بهم مناعتهم ، وبعد بهم حفاظهم عن أن يسلكوا في شعرهم ما سلكه الموالي ، أو أشياعهم .

ومن هؤلاء : أبو تمام ، والمتنبي ، والبحتري ، والمعري ، والعباس بن الأحنف ، وابن خفاجه ، وابن هانيء .

أما القسم الأول :

فقد نحا بالشعر منحى غريباً إلى ما يوافق هوى شعرائه ، ويوافق البيئة التي أحاطت بهم ، والعوامل التي أثرت فيهم . يوافق تجافيهم لأوضاع العرب ، وتهجين لتقاليدهم المعروفة .

وكيف كان ذلك ؟

سبق أن أشرنا إلى أن بشاراً وأبا نواس عابا على الشعر العربي البدء بوصف الأطلال والدمن ، ودعوا إلى وصف الخمر ، ومجالس اللهو .

وأشرنا إلى أن هؤلاء الشعراء في هذا العصر وصفوا الخمر في كثير من الإسراف ، وكثير من التبذل ، وكثير من الاستهتار : وصفوا الخمر في دنانها ، وفي كؤوسها ، كما وصفوا الساقي ، ومجالس الشراب ، وما يقع فيها من هذر ، وهزل ، وعبث ، ومجون .

وأشرنا إلى أن هؤلاء الشعراء خرجوا من الغزل بالمؤنث إلى الغزل بالمذكر . وصفوا حسنه وجماله ، وتجنيه ودلاله ، وصفوه في بسط ، وقالوا فيه كما بسطوا في المرأة وقالوا .

وأشرنا إلى أن هؤلاء الشعراء خرجوا من غزل القلب والروح ، أو غزل الألفاظ والمعاني ، إلى غزل حسي عابث ، يمثل هذا الفحش الذي طبع طائفة من هؤلاء الشعراء على تلك الصورة ، التي لم تكن معروفة من قبل .

هذه المعاني نجدها ظاهرة ، واضحة الظهور في شعراء القسم الأول . وإن لم يكن وجودها عند الجميع على حد سواء .

وصف هؤلاء الشعراء الخمر ، وأسرفوا في الوصف :

يقول بشار :

يا ابن موسى أسقني ودع عنك سَلْمى إن سلمى حِمىً وفىّ احتشام

رُبَّ كأس كالسلسبيل تعلَّلـــت بها والعيون عنى نيام

خُبست للشُّراة فى بيت رأس[1] عُتِّقتْ عانساً عليها الختام

نفحتْ نفحةً فهزّت نديمى بنسيم وانشق عنها الزكام

وكأنّ المعاولَ منها إذا را ح شجٍ فى لسانه بِرسام[2]

صدمته الشَّمولُ حتّى بعينيــه انكسارٌ وفى المفاصل خَامُ[3]

وهو باقى الأطراف حَيّت به الكا س وماتت أوصاله والكلامُ

وفتًى يشرب المدامة بالما ل ويمشى يروم ما لا يُرام

أنفدتْ كأسُه الدنانيرَ حتّى ذهب العينُ واستمر السَّوام[4]

تركته الصَّهباءُ يرنو بعين نام إنسانُها وليست تنام

جُنّ من شَربة تَمَلّ بأخرى وبكى حين سار فيه المُدامُ

ويقول أبو نواس :

غنّنا بالطلولِ كيف بَلينا وأسقنا نُعطك الثناء الثمينا

من سُلافٍ كأنه كل طيبٍ يتمنى مخبّر أن يكونا

أكل الدهر ما تجسّم منها وتبقّى لُبابها المكنونا

ثم شُجّتْ فاستضحكت عن لآلٍ لو تجمّعن فى يدٍ لاُقتُنينا

وإذا ما لمستها فهباءٌ تمنعُ الكفّ ما تُبيحُ الْعُيونا

فى كؤوس كأنهن نجومٌ جاريات بُروجُها أيدينا

طالعاتٌ من السُّقاةِ علينا فإذا ما غَرَبْنَ يغربن فينا

(١) اسم قريتين إحداهما فى بيت المقدس والأخرى فى حلب . (٢) كلمة فارسية يقصد بها الهذيان
(٣) قد يكون المعنى أن يكون بالمفاصل ارتخاء (٤) العين : الذهب . واستمر : دهب .
والسوام : الابل الراعية والمراد بها هنا المال الراعى كالسائمة .

لو ترى الشَّرْبَ حولها من بعيد قلت : قوم من قِرَّةٍ يَصْطَلونا

وغزال يديرهــا ببنان ناعمــات يزيدُها الغَمْزُ لِينا

ذاك عيش لو دام لى غير أنى عِفْتُهُ مُكْرَهًا وخفت الأمينا

أدر الكأسَ حان أن تسقينا وانقر العــودَ إنه يُلهينــا

ودع الذكرَ للطلول إذا ما دارت الكأسُ يَسْرَةً ويمينا

فانظر كيف وصف بشار وأبو نواس الخمر هذا الوصف الرقيق الدقيق . طلب بشار أن يُسقى الخمر ، فهى حبيبة إلى نفسه ، قريبة إلى هواه ، وذكر أنه راغب عن المرأة ، فهى بعيدة عنه ، وفيه احتشام ، وإن كنا لا نصدق أن فيه احتشاما ، ينمه عنها ، ويجعله يجفوها ، وهو ما نعرف غير ذلك .

ثم أخذ يصف الخمر ، وأنها معتقة ، يتملل بها والناس من حوله نُوَّم ، وهو الساهر اليقظان .

ثم أخذ يصف أثر الخمر فى صاحبها :

عقله كالغائب فهو يهذى ، وفى عينيه انكسار ، وفى مفاصله ارتخاء ، وفى أوصاله موات . وكأنه مجنون لا يعى ما يقول .

وكيف وصف الخمر أبو نواس ؟

فعل مثل صاحبه بشار . فى أن أقبل على الخمر ، واطّرح من عداها . وكلاهما اطرح المرأة . ولكن بشارا صرح بها ، أما أبو نواس فقد صرح بأثر من آثارها ، وهى الأطلال والدمن .

وكذلك وصف أبو نواس الخمر ، وكان وصفه دقيقا جميلا . وصف طيبها ، وأنها معتقة ، أكل الدهر ما تجسم منها ، ووصف نقاءها وصفاءها ، ووصف حببها ولألائها الضاحكة الباسمة .

ثم وصفها فى الكؤوس ، وما أجمل تشبيه الكؤوس بالنجوم ! وما أجمل خياله فى طلوع هذه النجوم وغروبها !

ثم وصف تجمع الشاربين حولها كأنهم يصطلون من فرّة البرد .

ووصف الساقى ، وأنه كالغزال ، ناعم البنان .

فأنت ترى من هذا أن بشارا وأبا نواس يتفقان فى صور ، ويختلفان فى أخرى .

يتفقان فى أن كليهما يميل إلى الخمر بقلبه وهواه . ويتفقان فى وصف الخمر .

ويفترقان فى أن بشارا ذكر أثر الخمر فى صاحبها ، ولم يفعل ذلك أبو نواس .

ويفترقان فى أن أبا نواس وصف الكؤوس ، ووصف الساقى ، ووصف الشاربين وتجمعهم ، وتزاحمهم ، ولم يفعل ذلك بشار .

هذا مع ما ترى من اختلاف فى تخيل هذه الصور .

وانظر بعد ذلك أى الوصفين أقرب إلى التأثير فى نفسك وقلبك .

كما وصف الخمر ابن الرومى ، وحسين بن الضحاك ، وسلم ، وحماد .

* * *

ووصف هؤلاء الشعراء مجالس اللهو ، وأسرفوا فى الوصف :

يقول حسين بن الضحاك :

ما لأنس كان مبتذلا ... منكَ لى بالأمس لم يُعُد

إيه قل لى غير محتشم ... هل دهانى فيك من أحد

حبذا والكأس دائرة ... لهونا والصَّيد بالطَّرَد [1]

وحديث فى القلوب له ... أُخَذٌ [2] يَصْدَعْنَ فى الكبد

(١) الطرد . مزاولة الصيد، يقال طرد — بكسر الراء — راول الصيد وتتبعه .

(٢) الأخذة : الرُّقية كالسحر يؤخذ بها .

يوم تعطيني وتأخــذها دون ندمـاني يداً بيــد

فإذا ألــويت[1] هيجني تلعٌ[2] من ظبية البلد

وإذا أصغيتُ ذكّرني نشرَ كافــورٍ على بَرَدِ

ذاك يوم كان حاسدُنا فيه معــذوراً على الحسد

ماذا وصف حسين بن الضحاك ؟

وصف مجلساً من مجالس لهوه ، كان يغازل فيه غلاماً اسمه « يُسر » ، وقــد أصاب حسيناً من هذا الغلام صدٌّ ودلال . فأخذ يتساءل حسين : ماذا دهاه فى هذا الغلام ؟ وماذا غيرت الأيام ؟ وقد كان الأنس بينهما بالأمس مبتذلا .

ثم أخذ يصف هذا اللهو ، وما فيه من خمر ، وصيد ، ومافيه من حديث وسمر .

وقد اعتــاد المحبون أن يكون لهم حاسدون يعذلونهم ، ويرقبونهم . وهؤلاء الحاسدون نعمة وبلاء على الأحباب والأصحاب . يكرهونهم ، ولا يرضون ما يفعلون .

أما هذا اليوم فممتع لذيذ . يفوق كل إمتاع ولذة . ولذلك كان حاسدوه معذورين إن غاظهم ما رأوا ، فحسدوا ، وكرهوا أن يكون لغيرهم هذا النعيم .

* * *

وتغزل هؤلاء الشعراء بالمذكر :

تغزل بالمذكر أبو نواس ، وحسين بن الضحاك ، وابن الرومى ، وحماد .

يقول ابن الرومى :

أيهـا الذاهـلُ عنى نمت عمن لا ينام

طال لى صدك والصدّ على الصبّ غـرام

من يكن من أمة الحســن فمن أهوى إمام

هـو بالدّل فتـاة وهـو بالزى غـلام

---

(١) ألوى برأسه . أماله (٢) التلع . طول العنق .

حار فى خـديه ماء   مازج المـاء صرام

ملتقى فى وجهه ضدّ   ان نـور وظـلام

وقد ذكرنا من قبل فى الفصل الأول طائفة من أمثلة الغزل بالمذكر.

وتغزل هؤلاء الشعراء بالمرأة غزلا ماجناً خبيثا.

تغزل بشار بامرأة من أهل البصرة يقال لها عُبَيْدة، وتغزل بأخرى اسمها «عَبْدة» كانت تحضر مجالسه فى منزله، فلما سمع كلامها تعلق بها، وكلف بها كلفاً شديداً. وتغزل بجارية اسمها فاطمة، كما تغزل فى جارية له أخرى.

وكان بشار فى غزله ماجناً خبيثاً، حتى خشى النـاس على نسائهم من شعره. قالوا [1]:

ماشىء أدعى لأهل هذه المدينة — أى البَصرة — إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى!

وقال واصل بن عطاء:

إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد.

وذلك لأن بشارا — كما قيل — يقارب النساء حتى لا يخفى عليهن ما يقول، وما يريد. وأى حرة حَصَانٍ تسمع قول بشار فلا يؤثر فى قلبها. فكيف بالمرأة الغَزِلة، والفتاةِ التى لا همّ لها إلا الرجال؟!

قال بشـار:

حَسْبِي وحسبُ الذى كَلِفْتُ به   منى ومنه الحـديثُ والنظرُ

أو قبلةٌ فى خلال ذاك وما   بأسٌ إذا لم تحلّ لى الأُزُرُ

أو عَضَّةٌ فى ذراعهـا ولهـا   فوق ذراعى من عضهـا أثَرُ

أو لمسة دون مِرْطِها [2] بيدى   والبابُ قد حال دونه السُّتُر

والسـاق براقة مُخَلْخَلُهـا   أو مصٌّ ريق وقد علا البُهُرُ [3]

واسـترخت الـكف للعراك وقا   لت إيه عنى والدمع مُنْحَـدِر

(١) الأغانى ج ٣ ص ١٨٢   (٢) كساء يؤتزر به.   (٣) تتابع النفس وانقطاعه من الاعياء.

انهض فما أنت كالذى زعموا   أنت وربى مُغازِلٌ أشِرُ
قد غابت اليوم عنك حاضِنَتى   واللهُ لى منكَ فيكَ بالتغيِيرُ
يا ربِّ خذ لى فقد ترى ضَرَعِى   من فاسق جاء ما به سَكَرُ

أترى ماذا قال بشار ؟

قال فى هذه القصيدة غزلا ماجناً مابعد ذلك مجون ، خبيثاً مابعد ذلك خبث ! حدثنا عما بينه و بينها .

ولم يكن ما بينهما حديث القلب والعاطفة ، حديث الوفاء والإخلاص ، حديث العيون ، التى تترجم عما فى القلوب من لوعة الحب وشوق الغرام ، حديث الروح المعذب المضنى ، الذى هدّه الصد وأسقمه البعد فهو يحتال و يتوسل ، يطلب الرضا والوصال ، ولكنه حديث الشهوة ، والشهوة الجامحة .

فهو لا يرضى منها بالحديث والنظر ، ولكن يمتد به العبث إلى القبلة ، والعضة ، واللمس ، ومص الريق ، وهو لا يرضى منها بهذا كله ، وهذا كله كثير و كثير ، ولكن يريد شيئاً آخر صرح به فى بقية القصيدة . وقد يصور لنا هذا الخبث الذى أراده بشار أنه قامت بينهما معركة حامية الوطيس ، يريد هو فى عنفه وجبروته أن يقهرها على مايريد ، ولا يريد إلا الفحش والخنا ، وهى تدفعه وتدافعه ، وهى تمنعه وتزجره ، وهى تسكب الدمع علّه يكون لها شافعا وشفيعا . وهى تود لو أن حاضنتها كانت حاضرة ، إذن لتقوّت بها ومنعت عنها العدوان والأذى ، ثم هى تطلب إلى الله ، وهو نصير العاجز الضعيف ، فى وقت الشدة والبلاء أن ينصرها ، وأن يأخذ بيدها من هذا الفاسق الذى جاء وما به سكر .

ألا ترى أن هذا الشعر يميل القلوب و يلين الصعب كما قالوا ؟ بلى .

إنه يغزو النفوس ، فيهيج فيها مواضع الشهوة والإثم والفجور .

و يقول بشار فى عبدة التى أشرنا إليها من قبل :

يا عبد بالله فرجى كربى   فقد برانى وشفنى نَصَبى

وضقت ذرعا بما كلفت به　　　من حبكم والمحب فى تعب

ففرّجى كربة شجيتُ بها　　　وحرّ حزن فى الصدر كاللّهب

ولا تظنى ما أشتكى لعباً　　　هيهات قد جل ذا عن اللّعب

وتغزل أبو نواس بامرأة يقال لها « حسن » كما تغزل « بجنان » جارية آل عبد الوهاب الثقفى .

وتغزل أبو العتاهية ، ومسلم بن الوليد ، وابن الرومى ، وحماد ، وسَلْم .

وتغزل حسين بن الضحاك بمغنية يقال لها — فتن —

ومن غزله الماجن أن قال له الحسن بن سهل ذات يوم :

كيف كنت فى ليلتك ؟ وكيف كنت عند نومك ؟

فحدثه عن ذلك . قال :

تألفتُ طيف غزال الحَرَم　　　فواصلنى بعد ما قد صرم

وما زلتُ أقنع من نيله　　　بما تجتنيه بَنَانُ الحُلُم

بنفسى خيالٌ على رِقْبَةٍ　　　ألمَّ به الشوق فيما زعم

أتانى يُجاذب أردافَه　　　من البُهُر[1] تحت كسوف الظُّلم

تُمج سوالفُه مِسْكةً　　　وعنبرةً ريقُه والنَّسَم

تضمّخ[2] من بعد تجميره[3]　　　وطاب من القرن حتى القدم

يقول ونازعتُه ثوبه　　　على أن يقولَ لشىء نعم

فغضّ الجفون على خَجْلة　　　وأعرض إعراضة المحتشم

فشبّكت كفى على كفه　　　وأصغيت ألثمُ دُرّاً بفم

فنهنهنى دَفْعَ لا مؤيِس　　　بجِد ولا مُطمِعٍ مُعْتزم

إذا ما هَمَمْتُ فأدنيته　　　تثنّى وقال لى الويلُ لِمْ

(١) تتابع النفس وانقطاعه عن الاعياء. (٢) تضمخ بالطيب : تلطخ به. (٣) أى تبخر بالطيب.

فما زلت أبسطه مازحا ... وأفرط فى اللهو حتى ابتسم

وحكمنى الريم فى نفسه ... بشىء واكتفيه أن يكتتم

نواها لذلك من طارق ... على أن ما كان أبقى سقم

حدثنا حسين بن الضحاك فى هذا مما وقع بينه وبين طيفه ، غلام للحسن بن سهل ، كان الحسين قد علق به .

ولا نريد أن نشرح هذا الحديث ، ولا أن نعلق عليه بأكثر مما قاله الحسن ابن سهل . قال :

يا حسين : يا فاسق ! أظن ما ادعيته على الطيف فى النوم كان فى اليقظة مع الشخص نفسه .

* * *

هذه المعانى - كما قلنا - نجدها فى شعراء الموالى ، الذين ذكرناهم ، ولا نجدها على هذه الصورة بين شعراء هذا العصر الذين نشئوا من أصل عربى .

ولكن بجانب هذا نعرف أن مطيعا بن أياس كان خليعا ماجنا ، وكان وصافا للخمر ، وكان غزلا بالمذكر . وهو وإن كان كذلك ، ولكن فى صورة ضيقة محدودة ، وفى وضع يكاد يكون ضيق النطاق .

أما شعراء القسم الثانى ، أو بعبارة أخرى أما شعراء هذا العصر الذين نشئوا من أصل عربى فإنهم لم ينهجوا هذا النهج الذى قدمنا .

ومن الطبعى أن يكون ذلك .

لأنهم عرب ، يحافظون على تراثهم الأدبى ، ويدفعون عنه هذا الطغيان ، الذى وفد عليهم من طريق الفرس ، وسائر الأعاجم .

فإذا كان الشعراء الذين يمتون فى النسب إلى أصل غير عربى يتهجنون كل ماهو عربى ، يحاربونه فى صور شتى ، فإن هناك شعراء آخرين يمتون إلى أصل

عربى . لا يجارونهم فيما يفعلون ، بل يصدون تيارهم الجارف .

ومن هؤلاء الشعراء ؟

من هؤلاء الشعراء أبو تمام ، والمتنبى ، والبحترى ، والمعرى، والعباس بن الأحنف، وعلى بن الجهم ، وابن خفاجة ، وابن هانىء .

فلا تكاد ترى واحداً من هؤلاء الشعراء أدمن فى وصف الخمر ، أو تغزل فى المذكر ، أو تغزل غزلا ماجناً ، كما فعل شعراء الموالى .

ولسنا بصدد الترجمة والحديث عن هؤلاء الشعراء ، فى كل نواحيهم الشعرية حتى نبسط ذلك كل البسط .

ولكنا بصدد شعراء الغزل .

وما حظ الغزل من هؤلاء الشعراء ؟

وفى أى نوع من أنواع الغزل ؟

كثير من هؤلاء الشعراء قالوا فى الغزل .

قالوه مبتدئين فى أول القصيدة، كما فعل شعراء العرب الأولون فى العصر الأموى وفى العصر الجاهلى ، وهذا هو الغزل الصناعى الذى ذكرنا ، وذكرنا له أمثلة كثيرة من الشعر .

ومن هؤلاء المتنبى ، والبحترى وغيرهما .

يقول المتنبى [١] فى أول قصيدة أرسلها إلى السلطان ، وكان قد حبسه إثر وشاية .

أيا خَدَّد اللهُ ورد الخدود ... وَقَدَّ قُدودَ الحِسانِ القُدودِ [٢]

فهنّ أَسَلْنَ دَمًا مُقْلَتِي ... وعذّبن قلبى بطول الصُّدود

وكم لِلهوى من فتًى مدنفٍ [٣] ... وكم للنوى من قتيلٍ شهيد

(١) ديوان المتنبى شرح البرقوقى ج ١ ص ٢١٧ (٢) التخديد : الشق . القد : القطع طولا. يدعو على ورد الخدود أن يشققه الله فيزول حسنه ، وأن يقطع القدود الحسان ، وهو دعاء حب واستحسان . (٣) المدنف : من أثقله المرض .

فوا حسرتا ما أمرّ الفراق ... وأعلق نيرانه بالكبود

وأغرى الصبابة بالعاشقين ... وأقتلها للمحب العميد[1]

وألهج نفسي لغير الخنا ... بحب ذوات اللمى[2] والنهود

ويقول البحترى[3] — ولم يكن يبدأ قصائده بغير النسيب — في أول قصيدة يمدح المعتز :

مَن عَذيرى من الظباء الغيدِ ... ومُجيرى من ظلمهنّ العتيد

إن سحر العيون ضلّل لبّي ... وحمانى الرقاد وردُ الخدود

والأمانى ما تزال تعنينا ... ببخل من الغوانى وجود

ومن العيش لو يساعد عيشٌ ... أن يجيء الوصالُ بعد الصدود

وبنفسى التى تولت بنفسى ... ثم ضنّت بالميل منها الزهيد

بَعُدَت دارُها فما من تلاقٍ ... غير طيف يزورنى فى الهجود

أتراها دامت على الوصل أم من ... عادة الغانيات نقض العهود

أو ترانى ملاقياً من قريب ... سكنا له أشتاقه من بعيد

الإمام المعتز بالله أولى ... هاشمىّ بالنصر والتأييد

***

كما أنهم قالوا الغزلَ كأى غرض من أغراض الشعر ، ولكنه لم يكن غالباً ، ولا قوى الحساسية ، ولا عظيم الأثر كما رأينا فى عصر بنى أمية .

إلا العباس بن الأحنف فقد امتد نفسه فى الغزل وقد صدقت عاطفته فيما قال .

قالوا إنه شاعر غزل ظريف مطبوع لم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء . ولذا كاد يكون شعره غناء يطرب الأفئدة ، ويستهوى القلوب .

---

(١) الذى أضناه العشق . (٢) اللمى : سمرة فى الشفة . (٣) ديوان البحترى مطبعة هندية ١٩١١ ج ٧ ص ١٩٣

وقد ترى صدق العاطفة ، وحرارة الغزل فى هذه الأبيات :

سلبتنى من السرور ثيابا وكستنى من الهموم ثيابا

كلما أغلقتْ من الوصل بابا فتحتْ لى إلى المنية بابا

عذبينى بكل شىء سوى الصـ ـد فما ذقت كالصدود عذابا

ويقول :

أبكى الذين أذاقونى مودتهم حتى إذا أيقظونى للهوى رقدوا

فأنت ترى من هذا كله أن العصر العباسى لم يكن كالعصر الأموى فيما خلف لنا من آثار فى الغزل ، وفيما نهجه من هذه الآثار .

أما الغزل العذرى فلا نراه فى هذا العصر .

وأما الغزل الصناعى فنراه بين كثير من الشعراء .

والغزل الماجن نراه بكثرة فى هذا العصر .

وقد عرفت فيما سبق الأسباب التى دعت إلى انتشار الغزل الماجن وخاصة بين الشعراء الموالى ، وأود فى هذه المناسبة أن أوجه نظر القارىء إلى أن هؤلاء الشعراء الذين أكثروا من المجون فى شعرهم نشئوا فى العراق حيث كان نفوذ الفرس والأعاجم قوى الأثر عظيم الجانب . فكان من الطبعى أن ينساقوا فى هذا المضمار ، وأن يتأثروا بما حمله إليهم الفرس من لهو وعبث ومجون .

أما من لم تزل أقدامهم ولم تقع أيديهم فى هذا العبث فقد نشئوا بعيدين عن العراق ، بعيدين عن مواطن الفتنة والفساد .

نشأ فى العراق : بشار ، وأبو نواس ، ومسلم بن الوليد ، وأبو العتاهية ، وسلم ، وحماد ، ومطيع ، وحسين بن الضحاك ، وابن الرومى .

ونشأ أبو تمام فى قرية جاسم قرب دمشق . والبحترى فى مَنْبِج من قبائل البدو الضارب بين حلب والفرات ، ولازم وهو فتى أبا تمام . والمتنبى ، وإن كان قد ولد

بالكوفة ، ولكنه خرج إلى الشام وهو فى العشرين من عمره ، وعاش فى بادية «بنى كلب» فترة طويلة من الزمن تذوق فيها لغة البداوة ونشأ أبو العلاء فى معرة النعمان بين حلب وحماه .

فى العصر الحديث :

بعد أن سلك الغزل فى العصر العباسى هذه الأدوار التى ذكرناها وبسطناها فى شىء من الإجمال جاءت عصور على الأدب لم تكن زاهرة ، بل كانت جامدة مقفرة ، جمود الحياة التى كانت تحياها الأمة العربية فى هذا الزمن ، و إقفار العيش الذى كان يرفرف على العرب فى هذه الحقبة .

كانت فترة من الضعف والتدهور السياسى والاجتماعى تبعهما ضعف وتدهور فى الأدب ، وفى الغزل . وفى مثل هذه الظلال لا تعيش حياة الغزل ، وهى باسمة ناعمة مشرقة الجبين ، وضاءة الخيال .

حتى جاء العصر الحديث وهبت على بلاد العرب نسمة من اليقظة والبعث والحياة! بدأ العربى فى كل بلد ينفض عن عينيه غبار الظلم والذل والاضمحلال .

تفتحت عيناه فوجد العالم فى رقى وحضارة ، ووجد العالم فى علم وفن وأدب ، ووجد العالم يرفل فى ثياب من السعادة والهناءة .

فلم لا يأخذ حظه من هذه الحياة ؟ وهو السباق ذو المجد المؤثل ، والمدنية العريقة التى اغترف منها هذا العالم ، حتى وصل إلى هذه الحال من رقى وسمو وسؤدد .

وكان أن طلع نور المدنية الأوربية على بلاد الشرق ، وحمله إلينا رسل العلم من مدارس وأساتذة و بعوث وكتب وصحافة . واتسعت هذه الرسالة وتجددت فى مظاهر مختلفة حتى أصبح لنا من الأدب العربى تراث نحتذيه ، ونتأثر به ، ونستقى منه كثيراً من صور العيش الذى يظللنا ، وأخذنا نقرأ من الأدب الغربى ونترجم من الأدب

الغربى حتى أصبحنا إلى هذه الحال التى نحن الآن عليها ، تلك الحال التى دعت كثيراً من المفكرين إلى أن ينادوا بالوقوف إلى ما وصلنا إليه ، وعلينا بعد ذلك أن نستثير ما بين أيدينا من أدب وفن ، وأن نخرج منه صورة تلائم عصرنا ، وتوحى إلينا الفكرة النشيطة والحياة العريقة ، والعيش الناعم الباسم ، وأن تكون هذه الصورة عنواناً لنا ورمزاً يمثل ما نصبو إليه من رفعة ووثبة ومجد .

وكان من الطبعى أن توجد حولنا فى هذا العصر حياة أدبية خاصة ، وأن يكون لنا طابع من الاستقلال فى هذه الحياة .

ومن أسباب ذلك :

أن وجد لنا ملك ، ووجدت لنا سيادة ، ووجد لنا ظل من القوة والمنعة .

وفى ظلال القوة يعيش الأدب وتنمو أسبابه ، وفى ظلال الضعف يضمحل الأدب وتذبل نضارة شبابه .

صحا الشرق من رقدته ، وجاهد فى سبيل حريته واستقلاله ، وضحى بالرخيص والغالى حتى نال حظه فى الحياة وحظه من الوجود .

وقامت فى أقطار العرب ممالك وإمارات وحكومات ذات قوة وسيادة .

وحظى الشرق بملوك وحكام نابهين ، ملكوا زمامه ، وسعوا جهد الطاقة فى أن يرفهوا عن شعوبه ، وأن يأخذوا بيدها إلى مدارك الرقى والفلاح .

فالفاروق : فى مصر رمز الآمال ، ومعقد الرجاء يبعث فيها الحياة ، ويوحى إليها أسباب الخير والسعادة .

وفيصل : فى العراق تهفو إليه القلوب ، ويستمد منه الشعب العراقى النبيل معالم القـــوة والعظمة .

وابن السعود : فى الحجاز يبنى ملكا موطد الأركان ، ذا عزة وسيادة وسلطان .

وشكرى القوتلى : فى سوريا يحمى الذمار ويصون الحمى .

و بشارة الخورى : فى لبنان يرفع راية العروبة كريمة مجيدة ، و يسعى فى أن يكون لبنان رفيع الذرى شامخ البنيان .

ويحيي الامام : عاهل اليمن ، ورمز القوة فيها والحياة .

أولئك فرسان صناديد وعرب أمجاد يسرى فى عروقهم دم العروبة نقيا أبيا ، صافيا منزهواً ، فيذكرون حياة الآباء والأجداد ، ويذكرون ما كان لهم من صول وسلطان ؛ وما كان لهم على المدنية من أياد وآثار ، فيتآخون فى سبيل مجد العروبة ، و يتفادون إلى تلبية نداء الحق ، نداء الحرية ، نداء الشرف ، ويلبون النداء .

وما أكرم نفس العربى ! يذود عن الحمى و يدفع العدوان .

إذن وجد للعرب كيان بعد أن تمزقت صفوفه ، وتوارت معالمه ، ووجد لهم ملاك يستظلون بظله الوارف ، و يستمدون من سلطانه القوة والجبروت .

و إذن أخذت تقوى أسباب الحياة فى كل قطر : فانتشر التعليم وازدهر العلم وانتشرت المطابع والصحف والمجلات .

وقويت آصرة الثقافة بين العرب فى جميع الأقطار فتبادلوا الكتب والصحف والمجلات ، وتبادلوا الأساتذة رسل علم ونور وعرفان .

بل قويت إلى ما هو أبعد مدى فوجد المجمع اللغوى الملكى يضم رجالا من الأقطار العربية ومن المستشرقين تجمعهم رابطة وثيقة، هى خدمة الفصحى ، وخدمة الثقافة العربية فى أوسع صورة وأقوم طريق ، بل قويت إلى ما هو أبعد من الثقافة ، قويت وامتدت إلى الروابط الأخرى التى يجب أن تسود بلاداً شقيقة يقطنها أخوة أشقاء . يجمعهم دم واحد ، ولسان واحد ، ودين واحد ، فلا بد أن يتعاونوا و يتآلفوا ، ولابد أن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، ولا بد أن يكون القوى عون الضعيف ، وأن يكون الغنى رحمة للمحتاج ، وأن يكون الأخ عونا لأخيه ، تقوى به شوكته ، و يأمن به غوائل العدوان .

لذلك كانت الجامعة العربية تجمع تحت لوائها رجالات العرب ، فيسعون ويعملون ما فيه خيرهم وفلاحهم وصلاحهم .

وها هى ذى روابط الود والإخاء تزيد على مر الأيام وتقوى آصرتها ، وفى كل يوم نرى من ثمارها ما يبشر بتحقيق الآمال .

وطالما رأينا ملوك العرب يجتمعون ويُضفي اجتماعهم على العرب الخير والمعروف .

تلك هى حال العرب فى هذا العصر .

حرية كسبوها بعد طول جهاد .

وملك يهيئون أسبابه ، ويوطدون دعائمه .

ووحدة تظللهم فى كل جمع ، وتربطهم فى كل ناد ، فتفوز كلمتهم لأنها كلمة الحق ، وتعلو رايتهم لأنها راية العدل والسلام .

ويقظة فى العلم ، يقظة فى السياسة ، يقظة فى العمران ، يقظة فى كل مظهر من مظاهر الحياة .

ومن الطبعى والأدب مرآة العصر وترجمانه ــ أن تشمل هذه اليقظة فنون الأدب.

ومن الطبعى أن يمثل الأدب صور هذه الحياة ، وما فيها من ملك وقوة ، ونهضة ووحدة ، ونور ومعرفة .

ولا أريد أن أبتعد فى حديثى عن الغزل .

فلأتحدث عنه بعد أن ذكرت هذه الإلمامة عن حال الأدب فى هذا العصر . ولابد من ذكر هذه الإلمامة لأن الغزل مرتبط بالأدب ، وبالحال الاجتماعية برباط قوى وثيق .

ما دواعى الغزل فى العصر الحديث ؟

ومن شعراء الغزل فى العصر الحديث ؟

وما أغراض الغزل فى العصر الحديث ؟

هذه ثلاثة أسئلة . ولابد لكل سؤال من جواب .

هذه الأجوبة قد تطول ، فيتسع أمامها مجال القول . وقد تخرج بنا هذه السعة عن المدى الذى رسمناه لأنفسنا .

فلنجتزىء قدر الإمكان حتى يكون هناك تكافؤ بين العصور ، وحتى يكون هناك مجال للبسط والبيان لمن شاء البسط والبيان .

دواعى الغزل فى العصر الحديث :

ذكرنا من قبل دواعى الغزل .

فلنلخص هذه الدواعى . ولنطبقها على هذا العصر .

ماذا زاد ؟ وماذا نقص ؟ وما السبيل إلى هذه الزيادة ؟ وما السبيل إلى ذاك النقص ؟

قلنا من دواعى الغزل :

١ — بيئة العربى وطبعه :

أما البيئة و إن لم تكن فى جميع الأقطار صحراء مشرقة الجبين ، وضاءة الخيال ، فإن فى الكثير الغالب من بيئة هذه الأقطار ما يدعو إلى صفاء الذهن ، ورقة الحس ، وجمال العاطفة .

فى بيئة كثير من هذه الأقطار الطبيعة الباسمة الطروبة . فيها صفاء السماء ، ورقة الماء ، وخضرة النبت والزرع .

وهذه أسباب تدفع المرء إلى أن يكون غزلا ، وأن يكون فى عيشه طروبا .

أما طبع العربى فلا يزال — و إن كانت قد أتت عليه أحداث — يميل إلى أن يأنس إلى المرأة ، وتأنس المرأة إليه فى ظلال من الود ، والعطف والحب .

٢ — اختلاط الرجل بالمرأة :

لم تكن المرأة العربية محتجبة فى منزلها ، فكانت تلقى الرجل ، وكان الرجل يلقاها .

وذكرنا من أسباب اللقاء المرعى ، والتزاور والاستسقاء ، ومواسم العرب .

تطور هذا العامل تطوراً حساساً . فلم يعد المرعى عاملا من عوامل الغزل .

والآن قد يلقى الرجل المرأة فى المرعى . ولكن لا يتولد عن هذا اللقاء غزل . لأننا بعدنا كثيراً عن الشاعرية العربية ، فلم نصبح شعراء بالفطرة والسليقة ، كما كان العرب ، فى كثير من العصور الماضية ، بل أصبح الشعر علماً وصناعة ، وهيهات أن يجيدهما من ينتجعان الكلأ والمرعى فى هذه الأيام ! .

ومثل ذلك الاستسقاء إذ أصبح غير قائم فى عصرنا الحاضر ، وقد وجدت وسائل كثيرة يحصل بها المرء فى رحيله على الماء . أما التزاور فلاشك أنه من وسائل لقاء المرأة بالرجل ، والرجل بالمرأة ، وقد يلتقيان فى إحدى الزيارات ، فيلتقى قلباهما ، وتتلاقى نبضات قلبيهما ، ويلتقى إشعاع ناظريهما ، فإذا وجد هذا لساناً من الشعر قويا فتيا ، حدثك حديث الغزل الرائع الجميل .

أما مواسم العرب فلم تعد كما كانت .

كان الحج موسم العرب الأكبر ، وكان مثاراً لإذكار روح الشاعرية فى نفوسهم وقد قرأت فيما سبق كيف أوحى الحج إلى كثير من الشعراء كثيراً من الغزل الرقيق لأنهم رأوا المرأة فى هذه المثابة الكريمة ، فذكروا حسنها وجمالها ، وكأنهم بذلك يذكرون الله الذى خلق هذا البدع من الحسن والجمال ، وكأنهم بذلك وهم يصفون بأرواحهم إلى نسيان الحياة الدنيا يصفون بعاطفتهم فيتحدثون عن المرأة حديثاً حلواً جميلا .

وفى الزمن الماضى كان العرب فى موسم الحج يتجهون إليه جميعاً رجالهم ونساؤهم حكامهم ومحكوميهم ، أغنيائهم وفقرائهم ، شيبهم وشبابهم .

أما اليوم فليس الأمر كذلك .

وما سمعنا ، ولاحمل السمع إلينا أن شاعراً فى عصرنا هذا رأى ما رأى عمر بن أبى ربيعة فى تلك العراقية الحسناء ، فأوحى إلينا من شعره ما أوحى عمر .

ولست أدعو إلى اطّراح الحج إذا أنا ذكرت الواقع ، بل أرجو أن يعود الحج

كما كان نتجه إليه الفتاة الغضة الناضرة ، والفتى الغض الناضر ، أو يتجه إليه الجميع لافرق بين الشيوخ والشباب ، ولا بين الأغنياء والفقراء ، ولا بين المترفين والمعدمين ، ولا بين الزعماء والمتزعمين ، ولا بين الشعراء والخطباء والكتاب ورجال العلم والفقه والقانون .

إذن لأفدنا من الحج فائدة عظيمة واتخذنا منه دروساً نافعة وانتظمت من جموعنا فيه مؤتمرات نتدارس فيها أمورنا ، ويتلاقى فيها نتاج عقولنا ، وكان لنا من كل ذلك خير أى خير !

ولا شك أن الشعر ومنه الغزل يجد مادة خصبة فى هذا المجال، فإذا رأى الشاعر الغزل ، ذو الحس المرهف المرأة الباسمة الفاتنة جرى خياله وراء حسنها ، فزينه وصوّره ، وأخرج لنا صورة حية مؤثرة ، قد تفوق بعض الصور فى العصور الماضية ، لأنه زاد عليها خيال جديد ، وزاد عليها عقل جديد ، وزادت عليها ألوان من الحياة ،لم تكن قائمة ، فأصبحت اليوم فى قوة ونمو وازدهار .

على أننا إذا عدمنا ما كان عند العرب من موسم اللقاء وما يكون ثمرة لهذا اللقاء من غزل رفيع ، ومن ثروة فى الغزل، فإننا لا نعدم فى وقتنا الحاضر ما يكون كالحج وسيلة من وسائل لقاء الرجل المرأة واستثارة شاعريته ، بما وهبها الله من حسن وفتنة وجمال .

تلك هى مواسم الاصطياف .

فإن كان الاصطياف على شاطىء البحر رأيت أسراباً من الغيد الحسان، رائحات غاديات ، أوجالسات يستمتعن بالظل ، وهواء البحر ، أو عائمات سابحات ، يسرن بين طبقات الماء القريبة أو البعيدة ، ويتماوجن مع الأمواج ،ويداعبن نسيم البحر ، والبحر أنيس محبوب ، قد يكون وادعاً فيأنسن إليه ، ويرضى بهذا الأنس فترة من الزمن ،

وقد يكون ثأراً فيثأرن لأنفسهن منه، ويرضى كذلك بهذا الثأر، فهو ثأر من لاقوة له ولا خوف منه ، وهو كذلك يكون ضرباً من ضروب التسلية والسرور .

أليس ذلك من بواعث الغزل ؟

بلى .

إن ذلك يثير فى الرجل العادى أن يتأمل وأن ينظر ، وأن يسوقه التأمل والنظر إلى الإعجاب ، وتقدير هذا الجمال ، وقد يسوقه ذلك أيضاً إلى أن يحمد الله الذى خلق فصور ، وأحسن الخلقة والصورة .

فما بالك بالرجل الأديب ؟ ، الذى يصوغ الوزن والقوافى ، والذى رق قلبه وصفا وجدانه وقويت حساسيته ، وقرأ فى الشعر العربى صور الخيال وعرف فى الشعر العربى ضروب الغزل .

إنه لا شك يحدثنا عن هذا حديثا قويا جذاباً .

ولا شك أن شعره يحمل إلينا صورة من هذه الحياة الجميلة الجذابة . وقد يجمع الله بين قلبين تعارفا فى هذه البيئة وتحابا ، وقد يجعل الله فى هذين القلبين روحا من الشاعرية . وفى هذا المجال من الشاعرية يقوم الغزل ويقوى ، ويصفى علينا ألوانا من روائع الشعر ، تصور هذه الحياة أجمل تصوير ، لنسعد به ونأنس إليه .

وإن كان الاصطياف فى مكان آخر فيه الطبيعة تزهو ، والماء يجرى ، وفيه الربوات تزدان بالأعشاب والأشجار . رأينا أيضاً جماعات المصطافين لا حرج بينهم ولا تثريب ، يجتمعون ويأتلفون ، ويتسامرون ، ويلتقى الفتى بالفتاة .

والعرب فى أى قطر كانوا يرتحلون حيث يجتمعون فى الصيف على شاطىء البحر أوغيره ، فيلتقون فى مكان واحد ، ويتولد عن هذا اللقاء تعارف وتآلف ، وقد تتولد عنه ما يذكى هذا التعارف من علاقة ومودة .

على أن اختلاط الرجل بالمرأة فى هذا العصر فاق كل عصر ، فأصبحت الفتاة

تتعلم كالفتى ، وأصبحت تخالطه فى كثير من المجتمعات والمنتديات ، وأصبح يراها ويجالس إليها فى دور العلم ، ودور الثقافة ، ودور الخيالة ، والحدائق والمنتزهات . وقد تقوض ما كان هنالك من حجاب ، يجعلها أسيرة المنزل وقعيدة الدار ، وتقوض ما هنالك من قيود اجتماعية ، فأصبحت المرأة مثل الرجل ، حتى فى الحقوق السياسية فهى الآن صيحة جديرة بالتلبية فى أن تكون لها فى هذه الحقوق مثل الرجال .

وقد يكون للبيئة الغربية وتأثر العرب بهذه البيئة أثر فى هذا الذى وصلنا إليه من اختلاط الرجل بالمرأة . ولست بصدد بيان ما لهذا الاختلاط من أثر حميد ، أو غير حميد . ولكننا بصدد موضوعنا ، وما يتصل به من أثر الاختلاط فى الغزل . وكيف أفاد الغزل من هذا الاختلاط .

لا شك أنه أجدى كثيرا .

ولو نشر الشعراء ما عندهم من هذا الأثر ، ولو نشر شباب الشعراء ما عندهم ، ولم يتحرجوا ، ولم يخشوا جانب العتب واللوم ، ولم يخشوا جانب التشهير ، وما يجره على المحبوبات من أمور كثيرة . لو نشر الشعراء ذلك لوجدت ما لهذا الاختلاط من أثر فى الغزل ، ولوجدت للغزل فى هذه الناحية مجالا فسيح المدى .

٣ — أسواق الأدب :

قلنا إنه كانت للعرب أسواق فى الأدب ، كانوا يتناشدون فيها الشعر ، وكانوا يجودونه ، ويتسابقون فى هذه الجودة ، وينصبون بينهم من يحكم للسابقين المجودين .

وقد تدرج العرب فى هذه الأسواق ، ونوعوا فهناك أسواق عامة ، يجتمع فيها الشعراء ، من كل مكان ، وكانت لها أوقات محدودة . وهناك مجالس خاصة . يجتمع فيها طائفة من رجال الأدب وعشاقه . يتسامرون ، ويتناشدون الشعر ، ويتدارسون أخباره ونوادره . وشعر الغزل كما قلت قريب إلى النفوس ، حبيب إلى الأفئدة . فوجدوا منه مادة لا ينضب معينها .

لم تعدم عصور الأدب هذه الأسواق . ولكن لم توجد بحال واحدة فى هذه العصور ، ولم يكن أثرها واحداً فى هذه العصور . بل اختلفت قوة وضعفا ، واختلفت قلة وكثرة ، وتفاوتت مكانتها بين جمهرة الناس .

وهى لا تزال فى هذا الاختلاف ، حتى وصلت إلى عصرنا الحاضر .

فماذا نرى من الأسواق الأدبية ؟

نرى بعض هذه الأسواق فى صورة بسيطة تقام فى دور العلم . وتقام فى بعض المناسبات كتكريم شاعر ، فتثار صفحات شعره ، يتناولها الأدباء بالتحليل الدقيق ، والوصف الرقيق .

وكان العرب فى قديم الزمن فى حاجة ماسة إلى هذه الأسواق الأدبية ، إذ بعدت الشقة بينهم ، وتناءت ديارهم ، فكانوا يتخذون من هذه الأسواق مثابة لاجتماعهم ، ومثابة لنثر أزاهير أدبهم .

ولا شك أن لهذه الطريقة آثارها وفوائدها . ومن الحسن أن نحذو حذوها فى هذا العصر ، لأن فيها إذكاء لروح التنافس ، وحفزاً للهمم ، وبعثاً ليقظة الأدب .

ويظهر أننا أحسسنا بهذه الحاجة ، فراح جماعة من أدبائنا يؤلفون رابطة أدباء العروبة . يرتحلون بين وقت وآخر إلى بلد ، حيث يرتقى منبر الخطابة والشعر جماعة من رجال العلم والأدب ، ويطلعون علينا بصورة من شعرهم وأدبهم ، فيها ما هو حسن جميل .

والفكرة فى ذاتها صالحة نافعة مثمرة .

ونحن أحوج ما نكون إلى إذكاء روح الشاعرية والأدب فى نفوسنا . فحياة الأمم لابد لها فى نهضاتها ووثباتها إلى روح من الأدب ، يذكى فيها الحياة ، ويذكى فيها اليقظة ، ويذكى فيها الإحساس بالوجود ، بل الإحساس بالعظمة والمجد .

الحاجة إلى هذه الأسواق الأدبية ماسة . وحسناً تفعل جامعة أدباء العروبة .
ولكن الأمر يحتاج إلى توجيه ، وتنظيم ، وبحث ، ودراسة .

أفهم أن تعقد هذه الجماعة أو غيرها من جماعات الأدب أسواقاً أدبية . يتبارى فيها الخطباء والشعراء فى موضوع معين . يتناولونه جميعاً بالبحث ، والدرس . والبيان . ويعطى الفائزون السابقون مكافآت ، و ينشر بين الناس نتاج قرائحهم .

ولا يخفى ما فى هذا من تشجيع ، و إذكاء لروح الأدب بين كثير من الناس .
وأفهم أن يعقد لواء الأدب ، فيترك الخيار للخطيب أو الشاعر فيما يقول . وحينذاك يتناول حديثهم شتى الموضوعات . ومن أحسن الاختيار ، ومن هز الأفئدة ، ووصل إلى موضع الرضا من نفوسنا كان جديراً بالسبق والتقدير .

ولو اتسعت هذه الأسواق ، وانتظمت فى فترات معينة من السنة ، والتأمت فى كل فترة فى إحدى عواصم الأقطار العربية . ولو ترك الخطباء يقولون و يتحدثون فيما يسوقنا إلى الخير ، و يدفعنا إلى الحياة الكريمة . ولو ترك الشعراء يكشفون لنا عن حاجات قلوبهم . هذا يصف ، وذاك يمدح ، وذلك يتغزل — إذن لكانت لنا من هذه الأسواق حياة رفيعة ، وسلطان فى الأدب منيع .

هذا و إن أسواق الأدب وجدت فى عصرنا الحاضر ، ولكن فى صور أخرى .
فالصحف ، والمجلات ، والكتب ، والمذياع — كل هذه أسواق أدبية .

نقرأ فى جميعها، ونسمع فى جميعها صوراً حية من الأدب، وصوراً حية من شتى الفنون.
أما الصحف — وأعنى الصحف قبل هذه الحرب ولما تهيأ لها الفرصة الآن — فإنها كانت تخصص صفحة من صفحاتها للأدب . وفى هذه الصفحة نقرأ ألواناً من الشعر ، فى مختلف الأغراض ، ولشعراء كثيرين من جميع الأقطار العربية .

ونرى هذا فى المجلات . ولكن فى صورة فسيحة المدى ، دقيقة الأثر .

والكتب الأدبية كثيرة متنوعة . دبجها يراع الكاتبين والأدباء ، فنشروا

فى صفحاتها فصولا من الأدب ، وفصولا من الشعر . فيها ماهو حسن جميل ،رائع مؤثر .

والمذياع نسمعه فى كل يوم ، وفى كل مكان . نسمعه فى البيت والمدرسة ، فى الشارع والمنتدى .

نسمع ونحن فى مصر صوت العراق ، وصوت الشام ، وصوت فلسطين ، بل أصواتاً عربية فى جهات أخرى ، وفى ممالك أخرى .

وللشعر ، وللغزل حظ عظيم مما نسمع .

ولو وجد فى المذياع توجيه سليم لكان خير المنابر ، يوحى إلى الناس غذاء العقول والقلوب . وكان سوقاً أدبية لا يمكن أن تجاريها سوق أخرى ، من حيث الذيوع والانتشار ، ومن حيث الفائدة وحسن التأثير .

أما الصحف والكتب والمجلات فقد كثرت ، وانبسطت تبعاً للطباعة التى وصلت فى تقدمها إلى حد بعيد . والمذياع أصبح قائماً من عهد قريب . ولكن أبلى فى هذه الناحية البلاء الحسن ، وقدم لنا خير ما يقدم من دروس . وأعتقد أنه سينمو أثره فى المستقبل ، ويزيد نفوده ، وخاصة عند تعميم — التليفزيون — .

هذه ولا شك أسواق أدبية .

وهى الآن فى هذه الناحية مفيدة نافعة . وستكون بعد الحرب أكثر فائدة ونفعا ، إذ يحتاج القارىء إلى مزيد من الأدب . والسامع إلى مزيد من غذاء القلب والروح .

وهناك سوق أدبية أخرى ، كثيرة الرواج ، بعيدة الانتشار . تلك هى الشاشة البيضاء .

كم نرى فيها من المشاهد !

وكم نقرأ فيها من شعر الغزل !

وكم نرى فيها من حوادث الغزل !

وكم يشجونا فيها غناء الغزل !

ونتأثر نحن ، وتهتز قلوبنا بما نسمع ، ونقرأ ، ونرى .

ومن هذا كثير .

ومن هذا . قيس ولبنى ، ومجنون ليلى ، وعنترة وعبلة . . . .

وتقوم كذلك فرق التمثيل بكثير من الروايات . فيها غزل ، وفيها شعر غزل ، وفيها غناء غزل .

٤ — مظاهر الترف :

قلنا إن الترف من دواعى الغزل . وذكرنا مظاهر الترف : من شباب ، وجوار ، وغناء .

وما حظ عصرنا هذا من تلك الدواعى ؟

إن شباب الأمة العربية لم يكتمل بعد .

فى عهد قريب كسرت قيود الذل والاستعباد . ومنذ عهد قريب نالت حقها من الحرية والاستقلال . وها هى ذى تعد العدة لبناء مكانها من العالم ، واستكمال ما يتطلبه شبابها من عدة وعتاد ، ومن ثروة وغنى ، ومن علم ومعرفة ، ومن رقى وحضارة .

ولا أعنى بهذا أن الأمة العربية فى وقتنا الحاضر ليس فيها أدب ، وليس فيها شعر . بل أعنى أن الأمة العربية فى دور اليقظة والتكوين ، وهى حين تصل إلى عهد الشباب ، وستصل إليه بعون الله وتوفيقه فى يوم قريب — يكون لها لون من الأدب يفوق كثيراً ما نحن عليه الآن .

ولا يمكن أن يستوى عود الأدب إلا بعد أن يستوى عود الحياة .

وعود الحياة فى بلادنا العربية لا يزال غض الإهاب ، لم يتماسك بناؤه ، حتى يشق طريقه إلى الوجود ، شامخ الرأس ، موفور الكرامة . والعرب يسعون الآن فى أن يصونوا هذا العود من عبث الأهواء والأنواء ، حتى يتم بناؤه ، وتثبت دعائمه .

والجوارى :

لاحظ لعصرنا فيهن ، إذ أصبح الناس جميعاً أحراراً لافرق بين سيد ومسود ولا مالك أو مملوك .

والغناء :

وقد وصل فى عهدنا الحاضر إلى درجة عظيمة ، ذاع وانتشر، حتى طغى على كل شىء ، وأصبحنا نعيب أنفسنا على هذا الطغيان ، طغى على ماهنالك من فنون الأدب، ومن فنون الحياة ، ومن ألوان الحياة .

ومن الحق أن يكون له المقام الأول ، ولكن ليس من الحق أن يكون له كل مقام .

يحمل الغناء إلى أذنك ، وإلى قلبك المذياع ، والشاشة البيضاء . وفى دور التمثيل والحفلات العامة نسمع الشىء الكثير .

وأصبح للغناء فى نفوسنا منزلة كبيرة كريمة .

وإذا شئت أن تعرف ما للغناء من منزلة فى نفوس الناس فعليك أن تشهد رواية غنائية على الشاشة البيضاء ، وفى دور التمثيل ، وعليك أن ترقب الناس وهم يجلسون إلى المذياع يستمعون إلى بعض الأغانى ، إنك تجد شيئاً عجيباً غريباً، تجد إقبالا وتهافتاً ورغبة وحنيناً ، تجد ذلك كله من جميع الناس لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ، ولا بين جاهلهم ومتعلمهم .

وعرف القائمون بالأمر هذه الرغبة الملحة ، فعملوا على إشباعها ، أو على إروائها بما يخرجون فى كل يوم من أغان ، وما يخرجون من روايات فى دور الخيالة أو التمثيل ، وما يطلع به علينا المذياع فى كل ساعة من أغان كثيرة الألوان ، مختلفة الغايات .

وسعد الغناء بطائفة من المغنين والمغنيات ، مازهم الله بالصوت الحسن ، واللحن الجميل ، والموسيقا الجذابة .

سعد الغناء : بأم كلثوم ، ونادرة ، ونجاة ، وملك ، وأسمهان ، وفتحية أحمد ، وليلى مراد ، وسعاد زكى ، ونور الهدى ، ولوردكاش .

كما سعد : بمحمد عبد الوهاب ، وصالح عبد الحى ، ومحمد عبد المطلب ، وعلى محمود ، وعبد الغنى السيد ، وفريد الأطرش ، ومحمد الكحلاوى .

إن من بين هؤلاء من إذا سمعته أشجاك ، وهز فيك المشاعر ، وانتقل بك إلى عالم آخر ، فيه تزهو ، وتعجب ، وتطرب .

وإنه ليساعد على روعة الغناء فى هذا العصر فوق جمال الصوت ، وحسن النغم ، ماوصلت إليه الموسيقا من تقدم ورقى .

أما مادة الغناء فأكثرها فى الغزل ، ولأمر مّا كان كذلك . ذلك لأن الغزل كما قلنا قريب إلى النفوس ، يثير فيها مواضع الإعجاب والحساسية ، ولأنه وجه الحياة الضاحك المشرق ، والإنسان يميل إلى كل ما هو ضاحك طروب ، ولأن مثيرات الرضا فى الغناء الغزلى كثيرة متعددة : قوة الغناء ، وقوة المعانى ، وقوة الموضوع ، ولا شك أن الصوت الجميل يستهوى القلوب ، ومعانى الغزل تطرب لها الأفئدة ، وموضوع الغزل تهفو إليه الطباع ، ويتم للإنسان بذلك لون جميل من اللذة ، والفرح ، والسرور .

وتعال معى لنقرأ ونسمع شطراً من هذه الأغانى :

أم كلثــوم :

تغــنى :

أراك عَصِىّ الدمع شيمتُك الصبرُ — أما للهوى نهىٌ عليك ولا أمر

نعم أنا مشتاق وعندى لوعة — ولكن مثلى لا يذاع له سر

إذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى — وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر

معللتى بالوصل والموت دونه — إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر

تكاد تضىء النار بين جوانحى — إذا هى أذكتها الصبابة والفكر

فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى　　فتيلك قالت أيهم فهـو كثر
فقالت لقد أزرى بك الدهر بعدنا　　فقلت معاذ الله بل أنت لا الدهر
وحاربت أهلى فى هواك وإنهم　　وإياى لولا حبك الماء والخمـر
وعدت إلى حكم الغـرام وحكمها　　لها الذنب لا تجزى به ولى العذر

وتغنى من شعر الأستاذ أحمد رامى :

أذكرينى كلما الطير شدا　　مرسلا فى الجو ألحان الصفاء
ينصت الزهر إلى أنغامـه　　فيحييـه ببشر وانحنـاء

* * *

قـد ظللت اليـوم أبـكى　　من أذى دهرى ومنـك
وشـدا الطـير وغـنى　　وتنـاجى وتهـنى

* * *

فتذكرت الذى طاف بسمعى　　إذ مزجت الكأس فى كفى بدمعى
وهفـا قلـبى من طـول أننى　　فارحمى دمعى وغنى واذكرينى

ومحمد عبد الوهاب :

يغنى من شعر المرحوم أحمد شوقى :

تلفتت ظبيـة الوادى فقلت لهـا　　لا اللحظ فاتك من ليلى ولا الجيد
ليلى : منـاد دعا ليـلى فخف له　　نشوان فى جنبات الصدر عربيد
ليلى : نداء بليـلى رن فى أذنى　　سحر لعمرى له فى السمع ترديد
ليلى : تردد فى سمعى وفى خلدى　　كما تردد فى الأيـك الأغاريد
هـل المنادون أهلوها وأخوتهـا　　أم المنادون عشاق معاميـد
إن يشركونى فى ليلى فلا رجعت　　جبال نجد لهم صوتاً ولا البيـد
أغير ليـلاى نادوا أم بهـا هتفوا　　فـداء ليـلى الليالى الخرّد الغيد

كسا النـداء اسمها حسناً وحببه حتى كأن اسمها البشرى أو العيد

ليلى : ترى أنا مجنون يخيل لى لا الحى نادوا على ليلى ولا نودوا

ويغنى من شعر الأستاذ على محمود طه المهندس — أغنية الجندول — ومنها :

أين من عيـنى هاتيك المجـالى يا عروس البحر يا حلم الخيال ؟

أين عشاقـك سمــار الليـالى أين من واديك يا مهد الجمـال ؟

موكب الغـيد وعيد الـكرنفال وسرى الجندول فى عرض القنال

* * *

بين كأس يتشهى الـكرم خمره وحبيب يتمنى الـكأس ثغـره

التقت عينى به أول مـــرة فعرفت الحب من أول نظـرة

* * *

فأنت ترى قدرا من هذه الأغانى . وترى فى هذا القدر لونا من ألوان الغزل .

وأغنية أم كلثوم — أراك عصى الدمع شيمتك الصبر — تحدثنا عن كثير من شؤون الغزل .

وذو الهوى مُعنًّى بكثير من الأرزاء والأهواء ، لا يستطيع لها صبرا . وذو الهوى دمعه غزير هتون ، لا يستطيع له زجراً أو منعاً . وذات الهوى متجنية متعللة ، تمنيه بالوصل والأمانى ، ولـكنها لا تجود . يتوسل لها ، ويضرع إليها ، ولـكنها تمعن فى الصد والهجران .

وهذا حوار جميل لطيف بين الرجل وهواه . يدل على كثير من معانى الغزل .

يقول الرجل :

أنا قتيلك .

وكان من الطبعى أن تحمد فيه هذه التضحية ، وأن ترحمه ، وتحنو عليه . ويكفى أنه ذهب فى حبها إلى هذا المدى . والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

وماذا يكون الجواب ؟

تغيظه هى ، وتقسو عليه ، وتشتد فى الغيظ والقسوة ، وتقول له أى القتلى أنت ؟

إذن هام بها كثيرون ، وشغفوا حبا . بل وصلوا إلى أن أصبحوا قتلاها وصرعاها .

وليس هناك أقسى على المحب من أن تستهتر به الحبيبة ، وأن تظهر له أن كثيرين يبادلونها عاطفة الحب . والمحب غيور مستأثر .

وهذه حاله : سهد ، وألم ، وحرقة ، وعذاب . أضناه ذلك وأسقمه وأهلكه .

تتجاهل الحبيبة كل ذلك ، وتتجاهل أنها سببه ، وتقول له : لقد أزرى بك الدهر بعدنا .

ويقول المحبوب : معاذ الله . بل هى التى كانت سببا فى ذلك كله . إنه يهواها وفى سبيل هذا الهوى حارب أهله ، وهم لديه أحب من الخمر والماء .

وأغنية « اذكرينى » تحدثنا عن ألم الحب ، ومرارته ، وما يوحيه من دموع وأنين ، ومن لوعة واشتياق ، فهو يطلب أن تذكره ، وأن ترحمه .

وأغنية « محمد عبد الوهاب » ـ تلفتت ظبية الوادى ـ تحدثنا عن بعض صفات الحسن فى الحبيبة من لحظ ، وجيد ، وأن اسمها حلو جميل ، حتى كأنه البشرى أو العيد . ويصف الحبيب نفسه كأنه فى حال جنون : يتخيل من يناديها : ومن هم المنادون ؟ أهم أهلها أو عشاق معاميد ؟ وهل يشركه فى حبها أحد ؟ إن هذا بلاء عظيم .

وهل ليلى هذه التى نادوها هى ليلاه ، أو غيرها ؟ هذه ثورة تكاد تكون جنوناً ، يعبر عن حالة نفسية ، تقع كثيراً بين المحبين .

أليس ذلك كله غزلا ؟

وأليس غزلا رقيقاً جميلا ؟

على أن هذا الغزل وإن كان رقيقاً جميلا ، ولكن الصوت الجميل الذى حمله إلينا جعله أكثر رقة ، وأكثر جمالا .

إنك تعرف ما فى هـــذا الغزل من حلاوة وجمال حين تسمعه من أم كلثوم ، أو من محمد عبد الوهاب ، وأمثالهما .

وإنى أســائل القارىء الكريم ماذا يكون حظ هذه الأشعــار من الذيوع والانتشار . إذا لم تحظ بمثل أم كلثوم ، ترددها وتغنيها ، فتحيى بها القلوب ، وتطرب الأفئدة وتصبح بعد ذلك نجوى كل حبيبة وحبيب .

إن الألفاظ والمعانى تسعد وتشقى ، كما يسعد الناس و يشقون ، والشعر يكون حظه من السعادة إذا كان المعنى جميلا ، واللفظ سهلا ، وحين يغنيه وجه جميل ، وصوت جميل .

وعلة ذلك عند علماء علم النفس أن التأثير وصل إلى النفس فى أكثر من حاسة ، وصل التأثير من طريق الذوق ، والسمع ، والبصر .

أما الذوق : فطريقه نذوق الألفاظ والمعانى .

وأما السمع : فطريقه النغم الحلو ، والصوت الجميل .

وأما البصر : فطريقه ما وهب الله المغنيات من حسن وبهاء .

* * *

هذه أمثلة من بعض الأغانى المصوغة باللغة العربية الفصحى .

وهناك سيل جارف من هذه الأغانى ، صيغت باللغة العامية ، ولا بأس أن أذكر شطراً منها :

أم كلثوم تغنى .

إنت فاكرانى والا ناسيانى   يا للى ظالمانى يا للى هجرانى

إنت فاكرانى والا ناسيانى

الحنين فاض بى والبعاد طول   والهوى فى قلبى زاد عن الأول

إوعى تفتكرى قلبى يتحول   يا للى ظالمانى يا للى هجرانى

إنت فاكرانى والا ناسيانى

إمتى يتمتع بالوصال قلبى   والزمان يسمح بالهنا فى حبى
دا الفراق قاسى والشجن زاد بى   يا للى ظالمانى يا للى هجرانى
إنت فاكرانى والا ناسيانى

طال على الليل اشتكى وجدى   زاد على الويل فى السهر وحدى
وانت ليه ترضى فى الهوى بعدى   يا للى ظالمانى يا للى هجرانى
إنت فاكرانى والا ناسيانى

ارحمى قلبى واسألى عنى   الغرام ذله واشتكى منى
إمتى تصفى لى وابقى متهنى   يا للى ظالمانى يا للى هجرانى

وليلى مراد تغنى :

يا قلبى اصبر على الأيام   يمكن يعود صفوك تانى
عهد الهوى ذكراه أحلام   يا قلبى إمتى تعيش هانى
يا قلبى اصبر على الأيام

آسيت فى دنيا الحب كتير   وليه يا قلبى طاوعت هواك
بعد الوفا ما لقيتش نصير   ما شفت غيرى فى الوحدة أساك
عهد الهوى ذكراه أحلام

حبيت وشفت اللى جرالك   ظلمت ليه حالى وياك
شريد ومين يرحم حالك   وحيد ومين يسمع نجواك
عهد الهوى ذكراه أحلام

أبات وأنا وياك حيران   واتمنى يوم يرتاح بالى
ما لقيتش غير جفنى السهران   ولا حبيب يبكى لحالى
عهد الهوى ذكراه أحلام

وأسمهان تغني :

يا نسيم احمل سـلامى　　للى قلبى مال إليـه
أشتكى له من هيـامى　　وانشغال فكرى عليه
قضيت نهارى أناجى طيفك　　واغنى لحن الهوى الجميل
أقول لروحى امتى أشوفك　　والقرب يحلى من غير عذول
لما حوانى الليـل　　وزاد فى قلبى الميـل
مريت على بيتك وحدى　　أغنى من شـدة وجدى
وجيت أناجيك بلحنى　　والحب ظـاهر فى عينى
يمكن فؤادك يرحمنى

ومحمد عبد المطلب[1] يغني :

يا بو العيـون السود　　ياللى جمالك زين
ميتى[2] الوداد يعـود　　وتنول مناها العـين
ميتى يا نور العين
حبيت وجلت[3] ياريت　　الحب يصفـالى
وياريت ما كنت هويت　　ولا كان على بالى
ليـه يا جميـل صـديت　　شمت عـذالى
يابوى يابوى يابوى
جلبى عشج جدك[4]　　ولا لوش حبيب تانى
وياريت يلين جلبك[5]　　وتجـل[6] أشجـانى

(١) هذه الأغنية على لسان رجل من أهل الصعيد — الوجه القبلى بمصر — وفى بعض لهجاتهم العامية يبطقون القاف جيما كما ترى .
(٢) أى متى .
(٣) أى قلت .
(٤) أى قلبى عشق قدك .
(٥) أى قلبك .
(٦) أى تقل .

وتشوف عيني بهاك   واتهنى من تانى
يابوى يابوى يابوى
العين ضناها النوح   م السهد وأنينى
والجلب بات مجروح   كان ليه تجافينى
ياللى معاك الروح   بالجرب[1] هنينى
يابوى يابوى يابوى

* * *

وتعال معى لأترجم لك هذه الأغانى :

فى أغنية أم كلثوم :

حبيب يناجي حبيبته ، التى ظلمته بهجرها له ، دون ذنب جنى . يناجيها ، ويسائلها : أتذكره ؟ كما يذكرها ، أو تنساه ، ويغيب عن قلبها ؟

ثم يذكر لها أن طال بعادها ، ومع ذلك فهو لايزال يحن إليها ، ولايزال هواها فى قلبه ، يزيده الفراق لوعة ، وشوقاً ، وغراماً .

والفراق قاس مرير . ومع ذلك فهو يصبر . ويدعو الله أن تدنو ساعة الوصال ، وفيها الهناءة والسعادة .

ليل المحبين طويل . فيه ذكريات ، وفيه آلام ، وفيه وحشة ، وفيه سهاد .

هذه حال المحبوب . حال تتطلب من الحبيبة أن ترق ، وترحم ، فهو يتوسل إليها ، حتى تصغى إلى خفقات قلبه ، وتأسو جراحه ، حتى يعود إليه صفاء العيش .

وفى أغنية أسمهان :

يطلب الحبيب من النسيم أن يحمل سلامه إلى من مال قلبه إليها ، وأصبح فكره بها كلفاً مُعنىً .

---

(١) أى بالقرب .

فى النهار يناجى طيفها ، ويغنى لحن حبها وهواها ، ويمنى نفسه الأمانى ، لعله يراها ، يراها وحيدة ، دون رقيب أو عذول . وفى هذا خير متعة للمحبين .

وفى الليل يزيد وجيب قلبه بحبها . ولعل ذلك يدفعه إلى أن يعرج على دارها ، فيغنى غناء الحب ، ويشدو شدو الهوى .

وفى أغنية محمد عبد المطلب :

يسائل المحبوب الحبيب :

متى يكون الوصل ؟ ومتى تقر العين بلوغ الأمانى ؟ ولا أمنية للمحبوب إلا أن يلقى حبيبته ، وأن يصفو بينهما الحب .

ثم لايدرى سببا لصد الحبيب ، فيسأل علام الصدود ؟ ، وفى الصدود شماتة العذال .

ثم بين أنه يعشق حبيبته ، وأنه يؤثرها بهذا العشق . فهل يلين قلبها له ؟ وهل ترحمه : فتقل أشجانه وأحزانه . وهل يهنأ بها ؟ ، فترى عينه حسنها وبهاها .

ثم ذكر سقمه فى سبيل حبها : عين ساهرة ، وقلب جريح . فلم الهجر والتجافى ! إن روحه معها ، فلمَ لايهنأ بالقرب منها ؟ ، ذلك ما يشتهى و يتمنى .

* * *

هذه أغان جميلة حقاً : جميلة فى تصويرها ، وفى خيالها ، وفى معانيها ، وكثير من هذه المعانى عرض له الشعراء المجيدون ، وبسطوه فى قوافيهم ، وبعضها جديد مبتكر ، وخاصة فى صوره وأخيلته .

لكن يشوب جمال هذه الأغانى أنها صيغت باللغة العامية ، وقد طغت هذه الصياغة على الأغانى فى عصرنا الحاضر ، فمسخت روعتها وجلالها .

واللغة العربية سهلة ، غنية ميسرة ، فلم لانسير على نهجها ، فى كل أثر من آثارنا من حديث ، وخطابة ، وكتابة ، وشعر ؟

كم نود أن يرتفع الغناء إلى مستوى رفيع من حيث الصياغة ، ومن حيث روعة

المعانى . إذن لزاد جمـــالا فوق جمال ، وزاد حسنا فوق حسن .

و يظهر أن هذا سببه ما نشكو من نقص فى نسبة التعليم بيننا . وحين نصبح جميعاً متعلمين ، بل حين نصبح جميعاً فى درجة متقاربة من الثقافة والأدب نرتفع بنفوسنا عن أن نسمع غناء بغير اللغة العربية الفصحى ، ويرتفع المغنيات والمغنون عن أن يسمعونا غناء بغير اللغة العربية · لأن من الواجب أن توجد بين المغنين والسامعين صلة روحية فى الفكرة ، واللغة ، والأسلوب .

وعيب تفشى الأمية بين شعوبنا العربية قد يكون من العوامـل التى تؤخرنا عن أن يكون لنا فى هذا العصر أدب ذائع رائع .

وقد يكون هذا هو الفارق بيننا وبين العرب فى العصور الأولى .

العربى فى عصوره الأولى كان يتذوق اللغة العربية ، ويتفهم معانيها ، ويجرى بها قلمه ، ويهتز بها لسانه ، و يصوغ القوافى سجية وطبعاً ، دون تكلّف ، أوتمحل أو إعياء :

أما فى عصرنا الحاضر ، فقد بعدنا عن أن نجرى فى هذا الميدان ، لما غلبنا من هجنة ، وعجمة ، وما خالطنا من سيل جارف أجنبى ، وما وقع علينا من أحداث ، آلت بنا إلى هذا الوضع .

هذا العيب نتواصى الآن جميعاً على اطراحه ، لأنه لا يليق بكرامتنا ، ولا بما نصبو إليه من مجد وحضارة أن يقوم بيننا ، وخاصة ونحن فى عصر غلاب ، والغلبة فيه لمن تسلح بسلاح العلم ·

لابد من محاربة الأمية ، بل لابد من أن يتقارب الشعب العربى فى درجة من الثقافة ، لا تجعله متفاوتا متنافراً · وحينذاك يقوى الأدب ، ويزدهر . وحينذاك نجد جمهرة من الشعراء ، وجمهرة من السامعين والقارئين ولا أبالغ إذا قلت إننا إذ نصل إلى هذه الحال نكون بلا شك خيراً من العصور الأولى ، فى كثير من الأخيلة والألفاظ والمعانى .

شعراء الغزل في العصر الحديث :

غني العصر الحديث بطائفة من الشعراء ، أضفوا على اللغة العربية ثروة من الأخيلة والمعاني .

واستطاع هؤلاء الشعراء ، وقد طغت على دولة الشعر غوائل الزمن أن يعيدوا لها مكانتها ، وقوتها ، حتى أصبحت الآن قائمة البناء ، ثابتة الدعائم ، وأرجو أن يتم لها في المستقبل القريب مانصبو إليه جميعاً من رفعة ومجد .

ومن مشهوري متقدمي هؤلاء الشعراء .

الشيخ أمين الجندي الحمصي ، والشيخ شهاب الدين المصري ، والشيخ خليل اليازجي ، وخليل الخوري ، وعبد الله باشا فكري ، وعائشة التيمورية ، ومحمود باشا البارودي ، وحفني ناصف ، واسماعيل صبري .

و بعد هؤلاء غني كل قطر عربي بطائفة من الشعراء .

فمن شعراء مصر :

أحمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، ومحمد عبد المطلب ، وخليل مطران ، وعلى الجارم ، ومحمد الهراوي ، حسن القاياتي ، وعباس محمود العقاد ، وأحمد رامي ، وابراهيم عبد القادر المازني ، وعلى الغاياتي ، ومحمود حسن اسماعيل ، وسيد قطب ، ومحمد الأسمر ، وعبدالعزيز عتيق ، وبيرم التونسي ، ومحمد عبدالغني حسن ، ومحمود غنيم ، وزكي مبارك ، وعلى محمود طه ، وعلى الجندي ، والعوضي الوكيل ، وفايد العمروسي ، محمد الحناوي ، محمود عمار ، طاهر الجبلاوي ، طاهر أبو فاشا .

ومن شعراء العراق :

معروف الرصافي ، جميل صدقي الزهاوي ، عبد المحسن الكاظمي ، محمد رضا الشبيبي ، محمد مهدي الجواهري ، حبيب العبيدي ، حيري الهنداوي ، كاظم الدجيلي .

ومن شعراء سورية ولبنان :

خير الدين الزركلى، وشبلى ملاط، و بشارة الخورى، و إيليا أبو ماضى، عمر أبو ريشة.

ومن شعراء المهجر بأمريكا :

ميخائيل نعيمه ، جبران خليل جبران ، حليم دموس .

ومن شعراء فلسطين :

إسعاف النشاشيبى ، أبو الإقبال اليعقوبى .

ومن شعراء الحجاز :

أحمد عبد الغفور عطار ، على أحمد با كثير ، طاهر زمخشرى .

ومن شعراء البحرين : إبراهيم العريض .

ولا شك أن هناك شعراء آخرين ، قد يكونون مجوّدين لم تصل إلىّ أخبارهم ، وليست لدى مصادر عن شعرهم ، وليعذرنى هؤلاء إذا لم أعرض إلى ذكرهم .

هؤلاء هم الشعراء عامة .

فأين منهم شعراء الغزل ؟ وأين حظ الغزل فى شعرهم ؟

ولعل فى بيان ذلك — إذا شئنا الإطالة والتفصيل — كثيراً من الصعوبة والمشقة .

وقد تدعونا الضرورة لهذه الإطالة إذا شئنا أن نتحدث عن الشعراء فى العصر الحديث ، أو عن شعراء الغزل فى العصر الحديث — حديثاً خاصاً ، قائماً بذاته .

ولكننا نتحدث الآن عن تطور الغزل، ونتحدث عن الغزل فى ثلاثة كتب، هذا أحدها.

وليكن حديثنا إذن مجملا ، نعرض فيه العوامل ، والأسباب ، والنتائج ، ونذكر أمثلة شعرية لهذا ، دون استقراء أو استيعاب .

ثم إن كثيراً من هؤلاء الشعراء ليس لهم دواوين ، تحوى نتاج قرائحهم ، وقد تبعد الشقة بينى و بينهم ، فلا أستطيع الاتصال بهم ، لأستمد منهم بعض ما أريد . وهيهات أن يكون ذلك ! فأعباء الحياة ثقيلة كثيرة ، لايتسع فيها وقت الباحث ، ولا تمكنه طاقته

أن ينتقل ويرتحل ، ليتصل بالشعراء ، ويستوحى منهم مايساعد على تحقيق تلك الغاية .

على أنى لا أخفى عليك أيها القارىء الكريم — لتكون شاهداً بينى و بين طائفة من هؤلاء الشعراء ! — رغبة منى فى الدقة التى يتطلبها البحث العلمى ، أردت أن أتصل بجماعة من شعراء الغزل ، اتصالا غير مباشر ، فأرسلت لهم كتاباً ، أكشف عن أربى ، وأعرض حاجتى ، فلقيت من بعضهم بعض العون . واعتذر لى بعضهم ، متعللا ببعض العلل والأسباب . وكانت النتيجة فاشلة ، ولو نجحت لعممتها ، ونشرتها فى دائرة أكثر اتساعاً ، وفى آماد بعيدة . ومن يدرى إذا كنت قد بدأت بغير من بدأت بهم لكانت التجربة ناجحة موفقة ؟ ! .

وشيء آخر كان سبباً فى هذا العناء . ولولم يوجد لما كانت هناك حاجة إلى التجارب ، وارتقاب نتائجها من فشل أو نجاح — ذلك أننا فى أعقاب حرب ، لم تمكن ظروفها من طبع الدواوين الشعرية ، ومن تزويد الصحف والمجلات ، بنتاج قرائح الشعراء .

ومن العجيب الغريب حقاً ، ونحن فى عصر نهضة ، ونحن نأخذ أنفسنا بأسباب هذه النهضة فى كل شيء ، ومنها الأدب ، أو فى مقدمتها الأدب ، لأنه باعث الحياة ، وموحيها ، ومحييها — من العجب الغريب ، وقد كثر النقد الأدبى بيننا ، وأصبحت له أصول ، وقواعد ، وفنون . أن لم يعرض الناقدون شعراء هذا العصر ، فيبسطوا نتاج قرائحهم ، و يثيروا ما فيها من آيات وروائع ، و ينبهوا إلى ما فيها من أكدار وشوائب . إذن لكان لنا من ذلك خير .

ومن هذا الخير أن يتدارس النشء الشعر فى العصر الحديث . أو بعبارة أخرى أن يتدارس النشء حياتنا فى العصر الحديث ، لأن الشعر مرآة الحياة ، وعنوانها الصحيح ، فى صورتها الباسمة ، أو العابسة .

ما أحوجنا إلى أن ندرس أنفسنا ! ، وأن ندرس ماحولنا ومن حولنا ، وأن ندرس آلامنا وآمالنا .

فصلاح الأمة ، و إصلاحها يتطلب أن نعرف ما هى ؟

أين وجه الخير ؟ حتى نقويه وندعمه ، وأين وجه الشر ؟ حتى نحارب به ونهدمه .

وكذلك الأدب لابد أن نعرف ما هو ؟

أين فيه ما يبعث القوة والجمال ؟ فنغذيه وننميه .

وأين فيه ما يبعث الضعف والانحلال ؟ فنطرحه ونجفوه .

ولا يكون ذلك إلا بالنقد ، والدرس ، والتمحيص .

وعسى أن يكون .

ولنعد الآن إلى ما كنا فيه .

ولنتناول من بعض هؤلاء الشعراء بعض الأمثلة فى شعر الغزل ، لنتبين منها طابع الشعر فى هذا العصر ، والغاية التى يتجه إليها . وقد أعرض بعض هذه الأمثلة فى شىء من الشرح والتحليل ، مكتفياً فى هذا بالقدر القليل ، وأترك للقارىء اللبيب تحليل مالم يتناوله القلم .

١ — أحمد شوقى :

يقول فى أول قصيدة فى وصف حفل[1] :

طال عليها القِدَم	فهى وجودٌ عَدَمْ
قد وئدت[2] فى الصبا	وانبعثت فى الهرم
بالَغ فرعون فى	كَرْمَتِها من كرم
أهرَق عُنقودها	تَقْدِمَةً لِلصَّم
خبأها كاهنٌ	ناحيةً فى الهرم
اكتشفت فامّحت	غيرشذاً[3] أوضَرَم[4]

(١) ديوانه ج ٢ ص١١١

(٢) وأد ابنته : دفنها فى القبر وهى حية .

(٣) الشذا : قوة ذكاء الرائحة

(٤) الضرم : الاشتعال .

أو كخيال لهــا بعــد متاب ألم
نمّ بها دهــا وهى عليــه أنم

ويقــول [١] :

أريد ســلوّكم والقلبُ يأبى وأعتبكم [٢] وملء النفس عُتْبى [٣]
وأهجــرُكم فيهجــرنى رُقادى ويُضوينى [٤] الظلام أسًى وكَرْبا
وأذكركم برؤيةِ كلّ حسن فيصبو ناظرى والقلبُ أصْبى
وأشْكو من عذابى فى هواكم وأجزيكم عن التعذيب حُبّا
وأعلم أن دأبكم جفائى فما بالى جعلتُ الحبّ دأبا
ورُبَّ معاتبٍ كالعيش يُشْكَى وملء النفس منه هوى وعُتْبى
أتجزينى عن الزلفى نِفارًا ؟ عتبْتك بالهوى وكفاك عَتْبا
فكل ملاحةٍ فى الناس ذنب إذا عُـدَّ النِّفارُ عليك ذنبا
أخذتُ هواكَ من عينى وقلبى فعينى قد دعت والقلب لبّى
وأنتَ من المحاسن فى مثالٍ فديتك قالباً فيــه وقلبا
أحبك حين تَثْنِى الجيد تيها وأخْشى أن يصير التيــهُ دأبا
وقالوا فى البــديل رضًا ورَوْح لقد رمتُ البديل فرمتُ صعبا
وراجعتُ الرشاد عساى أسلو فما بالى مع السلوان أصْبى
إذا ما الكأسُ لم تُذهِب همومى فقد تبَّتْ يـدُ الساقى وتبّا
على أنى أعفُّ مَن احتساها وأكرمُ من عذارى الدير شُرْبا
ولى نفسٌ أروّيها فتزكو كزهر الورد نَدَّوْه فهبّا

---

(١) ديوانه ج ٢ ص ١٤٥
(٢) يقال أعتبه : أى أزال عتبه أى أرضاه
(٣) العتبى : الرضا
(٤) أضواه الأمر : أضعفه

ويقول[1]:

يا ناعماً رقدت جفونه مُضناك لا تهدا شجونه

حمل الهوى لك كلَّه إن لم تُعنه فمن يعينه

عُدْ منعماً أو لا تَعُدْ أودعتَ سرك من يصونه

بيني وبينكَ فى الهوى سببٌ سيجمعنُا متينه

رشأ يُعاب الساحرو ن وسحرهم إلا جفونُه

الروحُ ملكُ يمينه يَفديه ما ملكت يمينه

ما البان إلا قدُّه لو تيَّمت قلباً غصونه

ويزين كل يتيمة فمُهُ وتحسَبُها تزينه

ما العمر إلا ليلة كان الصباحَ لها جبينُه

بات الغرامُ يَدينُنا فيها كما بتنا ندينه

بين الرقيب وبيننا واد تباعده حُزونه

نغتابه ونقول لا بقى الرقيب ولا عيونه

فأنت ترى فى شعر شوقى غزلا ، وترى فيه رقة وعذوبة .

وكثيراً كان شوقى يبدأ قصائده بالغزل كما رأيت من قبل . ويبدأ قصائده بوصف الخمر كما ترى فى المجموعة الأولى من هذه الأمثلة الشعرية .

وفى المجموعة الثانية :

يحدثنا شوقى أنه يريد أن يسلوها ، ولكن القلب يأبى هجرها . إن فى هجرها سهداً ، وعذابا ، وكربا .

إن الحبيب يذكر حبيبته ، لأن فى ذكرها خيراً ونعيما . ان فى ذكرها أملا حلوا ، ينير الحياة أمام المحبين . والحبيبة جميلة فى عين المحبوب . فإذا رأى شيئاً جميلا ،

---

(١) ج ٢ ص ١٧٤

أومنظراً حسناً تذكرها ، بتمثلها فى كل ما هو حسن جميل . وكأن كل ما هو حسن مستمد منها ، وكل ماهو جميل مأخوذ عنها . يشكو من تعذيبها له . وما أكثر شكوى المحبين ! تجفوه ، وهذا دأبها ، لا تنفك عنه ، ولا تحيد . أما هو فيجزيها على ذلك مودة وحبا ، ويجعل ذلك دأبه ، لا ننفك عنه ، ولا يحيد . هذه حاله معها . وتلك حالها معه . ويسائلها : اتجزين عن الزلفى نفارا ؟ والجواب على ذلك صد وهجران ، أو متابعة للصد والهجران . ويصور كيف وصل الحبيب إلى الحبيبة ، ووقع فى شراك هواها . رأتها العين ، ورأت حسنها ، وملامحها ، وجمالها . أما العين فأعجبها ذاك الحسن والجمال ، وأما القلب فقد خفق متأثراً بالحسن والجمال ، فابى دعاء العين ، وما دعاؤها إلا الحب والهوى . ويأتى دور العواذل ، ولا شأن لهم إلا أن تقوم الكراهية بين المحبين ، يزينون لهم الفرقة ، والفتنة ، والجفوة . إنهم راموا له بديلا يغنى عنها ، فما أغنى عنها بديل . راموا أن يسلوها ، فلم يستطع أن يحقق لهم ماراموا ، بل زادت صبوته ، وزاد شوقه وحنينه ، حتى الخمر احتساها — وهو العف — لعله ينسى الهموم والأحزان . هموم الحب وأحزان الهوى . ولكنه لم ينسها ، لأن حبها تمكن فى قلبه ، ولأن هواها امتزج بلحمه ودمه ، وهيهات أن تنسى نزوة الخمر ما حل فى القلب ، وامتزج باللحم والدم ! .

وفى المجموعة الثالثة :

تظهر صورة صادقة للحبيب المغرم المتيم .

الحبيبة تنام راقدة الجفن ، قريرة العين . والحبيب لا يزور النوم عينيه . فهو مضنى معذب لا تهدأ شجونه ، ولا تجف أحزانه .

هذه حال تتطلب الشفقة والرحمة . الشفقة منها وحدها ، فهى التى تعرف داءه ومصابه .

وأخذ يذكر حسن هذه الحبيب .

جفون ساحرة . والسحر معيب إلا من هذه الجفون. وقدّ كالبان ، تيمت القلب غصونه . وفم عذب الثنايا ، وجبين مشرق وضاء .

ثم يصف ليلة اجتمع فيها المحبان ، فى ظلال الغرام يتناجيان ، ويتبادلان كؤوس الهوى . وما ألذ هذه الكؤوس ! . والرقيب ناء بعيد ، يتلهيان باغتيابه وملامه ، و ينتشيان بظفرهما عليه ، حيث كان هذا اللقاء بعيداً عن الرقيب وعيونه — لا بقى الرقيب ولا عيونه ! .

٢ — عبد المحسن الكاظمى :

يقول متغزلا ويذكر وطنه[١] :

أيها الأرض إن فيك نجوما	باهر ضوءها نجومَ السماء
تتجلى فى كل حين فتُجلى	شبهات الأكدار والأقذاء
بضياء تعشوا له كل عين	إذ تراه أحببْ به من ضياء
أيها القلب كم تحن إلى الكر	خ[٢] وتهفو لساكنى الزوراء[٣]
وشجيا أراك فى كل حين	لصحاب من الجوى أخلياء
أخذوا النوم من جفونى وباتوا	فى جفون ريّاً[٤] من الأغفاء[٥]

ويقول متغزلا ويشكو الزمان[٦] .

ما العيش إلا ليــــلة	فى الدهر نام وشاتها
وافاك من تهوى وقد	شغل العيون سناتها[٧]
حيث الصبابة فى الحشا	نار ذكت جمراتها
يسقيك طيب حديثه	خمرا حلت نطفاتها[٨]

---

(١) ديوانه ص٥٤
(٢) الكرخ : محلة فى بغداد
(٣) الزوراء : بغداد
(٤) ريا : مرتوية
(٥) أى النعاس
(٦) ديوانه ص ٣١٦
(٧) جمع سنة وهى النوم
(٨) جمع نطفة وهى الماء الصافى

ويظل يمرجها هوى أو نمطفى حرفاتها
فى الأرض جنات وقد جمعت لنا جنّاتها
فى روضة طابت مغا رسها وطاب جُنَاتُها[1]

ويقول غزلا فى أول قصيدة :

يهفو إليك ويصبو متيّم بك صبُّ
فؤاده يتلظى ودمعه منصب
لظى الوجـ ـد فى حَشاه تشُبُّ

فى المجموعة الأولى :

يخاطب شاعرنا الكاظمى الأرض ، ويشير إلى أن بها نجوماً تفوق نجوم السماء ؛ فى الحسن ، والبهاء والجمال . ويذكر وطنه وأن له فيها خلاناً يهفو إليهم ، ويحن لمودتهم . بل امل فيه هوى نفسه ، التى تأخذ النوم من جفنه ، وتتركه مضنى معذباً .

وفى المجموعة الثانية :

يصف صفو الحياة . وصفوها فى أن يلقى الحبيب حبيبته ، بعيداً عن الوشاة والرقباء . يبثها صبابته وغرامه ، وتسقيه من طيب حديثها خمراً ، أو أرق من الخمر ، وأكثر نشوة فى النفس من الخمر . وفى الحياة الأولى كالحياة الأخرى جنات . وفى هذه الجنات نعيم ، وخلود . هى حيث تكون ظلال الحب ، وحيث يكون العيش تحت هذه الظلال ، وحيث يكون سلاماً وأمنا .

٣ — حافظ ابراهيم :

يقول فى أول قصيدة مدح :[2]

أوشك الديك أن يصيح ونفسى بين هم و بين ظن وحَـدْس[3]
يا غلام المدام ، والكاس ، والطا س وهيِّئ لنا مكاناً كأمس

(١) جمع جان وهو من يجنى الثمر . (٢) ديوانه ج ١ ص ١٣٠ (٣) الحدس : التخمين والتوهم .

أطلق الشمس من غياهب هذا الد ... ن واملأ من ذلك النور كأسى

وآذن الصبح أن يلوح لعينى ... من سناها فذاك وقت التحسى [١]

وادع ندمان خاوتى وأتناسى ... وتعجل وأسبل ستور الدمقس [٢]

واسقنا يا غلام حتى ترانا ... لا نطيق الكلام إلا بهمس

خمرة قيل إنهم عصروها ... من خدود الملاح فى يوم عرس

ويقول متغزلا فى أول قصيدة مدح [٣] :

كم تحت أذيال الظلام متيم ... دامى الفؤاد وليله لا يعلم

ما أنت فى دنياك أول عاشق ... راميه لا يحنو ولا يترحم

أهرمتنى يا ليل فى شرخ الصبا ... كم فيك ساعات تشيب وتهرم

لا أنت تقصر لى ولا أنا مقصر ... أتعبتنى وتعبت هل من يحكم ؟

لله موقفنا وقد ناجيتها ... بعظيم ما يخفى الفؤاد ويكتم

قالت من الشاكى؟ تسائل سربها ... عنى ومن هذا الذى يتظلم ؟

فأجبنها وعجبن كيف تجاهلت ... هو ذلك المتوجع المتألم

أنا من عرفت ومن جهلت ومن له ... لولا عيونك حجة لا تفحم

أسلمت نفسى للهوى وأظنها ... مما يجشمها الهوى لا تسلم

وأتيت يحدو بى الرجاء ومن أتى ... متحرما بفنائكم لا يحرم

أشكو لذات الخال ما صنعت بنا ... تلك العيون وما جناه المعصم

لا السهم يرفق بالجريح ولا الهوى ... يبقى عليه ولا الصبابة ترحم

فى المجموعة الأولى :

يصف الخمر ، وما يتصل بها من لهو وسمر .

---

(١) التحسى : الشرب شيئاً فشيئا . (٢) الدمقس : الحرير . (٣) ديوانه ج ٣ ص١٤٣

وفى المجموعة الثانية :

يحدثنا عن الليل ، وكم يحوى من متيمين ، أضناهم الهوى ، وأدمى أفئدتهم .

وليت من يرمى القلب ، فيكلمه ويدميه ، يحنو و يترحم ، إنه فاس جاف ، لايرق ولايلين ، وهذا شأن العاشقين ، منذ أن خلق الله الكون .

وكم لهذا الليل من ساعات : فيها أهوال ، وفيها شدائد ، وفيها آلام .

ثم هذا هو الحبيب يناجى حبيبة قلبه ، و يبثها حزنه ومكنون حبه ، وهو فى هذه النجوى يذوب صبابة ، و يحترق ألمًا وأسى ، والحبيبة لا تحس بذلك ، بل تتجاهله وتسائل تربها فى شيء من التغاضى والاستهتار : من الشاكى ؟ ، من هذا الذى يتظلم ؟ كأن الأمر لايعنيها : وكأن الأمر لايتصل بها ! وكأن ليس فى الأمر ما يؤ به له ، و يستحق منها النظر والرعاية ! أما أترابها فقد عجبن ، كيف تتجاهل هذا الذى تراه ؟ ، ولا ترى إلا صفرة الوجه ، ونحول الجسم ، كيف تتجاهل هذا الذى تسمعه؟ ، ولا تسمع إلا الآهة والأنّة ، آهة القلب الكسير ، وأنّة الفؤاد المكلوم . هو ذلك المتوجع المتألم الذى تسألين عنه أيها الظالمة المتجنية !

وإنه بعد ذلك يسلم نفسه للهوى ، وقد تجشمها الهوى آلاماً ، و إنه يشكو ما تصنع به العيون : من أسر وفتك وسحر .

ولا يزال الحبيب معُنًّى بثلاث من النائبات الدواهى : سهم قاتل لا يرفق به ، وهوى فاتك ، لايبقى عليه ، وصبابة لا ترحم .

٤ — عباس محمود العقاد :

يقول [١] :

لا تسلنى متعبٌ أنت فما ... تتعب الأرواح فى عُليا السماء

بجناحين من الحب ومن ... حسنك الخافق ينقاد الفضاء

---

١) ديوانه : هديه الكروان ص ١٠١

طرت لأشكو المدى من تعب . حين صاحبتك فى ذاك المساء
لم أكن ألمس أرضاً إنما كنـ ـت أسرى حين أمسى فى ضياء

ويقول فى وصف أحد شواطىء الاستحمام فى الإسكندرية « ستانلى[1] » :

هذى المحاسن موسمٌ أحييت مواسم من سَلَف
جُمعت لعينك ساعة وغداً تفرّقها الغُرَف
ملأت خليج « ستانلى » وطغت على أعلى الطَّنَف[1]

* * *

فِتَنٌ شهدتُ زحوفها كالجيش أهول ما زحف
فهتفتُ « فليحى الجما ل » وقد يُعاقب من هتف
هذى معارض صنعة لله تُنْهِر من وصف

ويقول[2] « تحت عنوان : فيك من كل شىء » :

فيك من شمس الضحى العين التى ترسل اللمح مضيئاً فى الظلام
فيك من بدر الدجى أحلامه حين يسرى ناعماً بين نيام

* * *

فيك من كل ربيع طلعة تنبت النضرة عاماً بعد عام
والشتاء الجهْمُ لا يعدوك من عهده العاصف برقٌ وغمام

* * *

ما تغنّى الطير إلا بعض ما أنت راويه ، ولا ناح الحمام
وإذا الجدول ناغى نفسه فهى أصداؤك من غير كلام !

* * *

فيك من نار الحياتين الهوى هل حياة الحى إلا من ضرام ؟

---

(١) الطنف : ما برز من البناء

(٢) ديوانه وحى الأربعين ص١٠٦

والذى أرهبه وا آسفا هجرك المدعوُّ بالموت الزؤام

***

فيك من دنياك نقص رائقٌ ومن الأخرى تباشير التمام
ومن الأملاك طيب ورضاً ومن الشيطان غيٌّ وأثام

***

ومن الخمرة سكراها إذا أسلسلت فى النفس أو طاش الزمام
ومن القوت غذاء، ومن الـ ماء رى، ومن الجوع هيام

***

فيك من أرض حظٌّ وافرٌ وحظوظٌ من سماء لا ترام
أجديد؟ إى نعم. قال الصبا أقديم؟ أى نعم. قال الوسام

***

هذه الروعة هل تجمعها فى مدى يوم لُحومٌ وعظام؟
لا وربى! بل دهورٌ غبرت قبلما تتقنها الأيدى الكرام

ويقول:

تريدين قلبى؟ خذيه خذيه!. رويدك. لا. بل دعيه دعيه
دعيه إذا غبت عنى أرى محياك فيه، وحبى فيه
وسرٌّ أبوح به خلسة وإن كنت من قبل لم تسمعيه
أخاف على البعد أن تلعبى به يا بنية أو تهمليه
فكم لعبة وقعت من يد يك وقوعاً أرى القلب لا يشتهيه
إذا ما لعبت به ها هنا فإنى لآمن أن تكسريه
تريدين قلبى خذيه خذيه ولكن بربك لا تنقليه

فماذا نرى فى شعر العقاد ؟

فى المجموعة الأولى :

نرى محباً ، سما روحه فى الحب ، فعاف الأرض وساكنيها ، وصعد إلى عُليا السماء ، واتخذ مطيته فى هـذا الصعود جناحين : جناحاً من الحب ، وجناحاً من حسن الحبيب ، والرحيل شاق عسير ، فما بالك به إذا كان بين أجواز الفضاء ؟ ولكن هذا الرحيل سهل هين ، لأنه ارتحال أرواح ، والأرواح لا تتعب ، ولا تصادفها مشقة أو عناء . والرحيل حلو جميل ، لأن فيه الحبيب ، وحين يكون الحبيب تكون السعادة وتكون الهناءة . وحين يكون الحبيب ، تهون الشدائد ، وتسهل الصعاب ، بل يصبح الظلام نوراً ، والجوع شبعاً ، والظمأ ريًّا .

وفى المجموعة الثانية :

يصف جمال هؤلاء الغيد الحسان على شاطىء البحر .

وفى المجموعة الثالثة :

يصور الحبيبة كما يراها الحبيب .

يرى فيها من كل شيء .

يرى فيها نور الشمس ، وأحلام البدر ، ونضرة الربيع ، وعهد الشتاء من برق وغمام ، وغناء الطير ، ونوح الحمام ، ونقص الحياة الأولى ، وتمّ الحياة الأخرى ، وملاك الرحمة ، وغيّ الشيطان ، وسكرة الخمر ، وغذاء القوت ، ورِى الماء .

وفى المجموعة الرابعة :

يهب لها قلبه ، ويصرح لها بهذه الهبة . ولكنه يفكر ملياً ، ويرى أنه مخطىء فيما فعل ، مسىء إلى نفسه ، وإلى حبيبة قلبه . مسىء إلى نفسه ، لأنه يرى فى قلبه محياها ، ويرى حبه فيها ، فإذا أعطاها قلبه حُرِم هذا المحيا ، وحرم تلك الصور الجميلة من ذكرى حبها ، وفى هذا عذاب وبلاء . ومسىء إلى حبيبة قلبه . لأنه يخاف على

البعد أن تهمله ، أو يلعب به فيصيبه شرخ أو انكسار . وفى هذا وزر ، وجرم كبير إذن فليبق قلبه بين جوانحه حتى يكون عليه حارساً وحفيظاً .

٥ — معروف الرصافى :

يقول : يصف مجلس لهو(١) :

ولى عند إخوان الصفا أريحية ... إلى كل خل فى الزمان موافق
إذا ماعقدنا مجالس الأنس بالطِّلا(٢) ... فبينى و بين السكر خمس دقائق

* * *

أسابق ندمانى إلى السكر طائراً ... بجنح من الأنس المضاعف خافق
فما هى إلا بعد شربى سويعة ... وقد دب من رأسى الطلا فى المفارق
فنادمت أصحابى على غير حشمة ... وقلت لهم ما قلت غير منافق

ويقول :(٣) تحت عنوان — إلى جميع الغوانى : —

وقفت عليكن وقلبى الذى ... يمر به الحب مر السحاب
ومنكن أحببت هاتى وذى ... وألفيت عذباً بكن العذاب

* * *

فمنكن بيضاء ما مثلها ... (عدا حمرة الخد) إلا القمر
فتلك التى طاب لى وصلها ... كما ليلة البدر طاب السمر

* * *

ومنكن حمراء جذابة ... حكى وجهها الشمس عند الطلوع
أرى عينها (وهى خلابة) ... فأمسك بالكف منى الضلوع

* * *

ومنكن من هى مثل الرياح ... لها فى ذرا كل قلب هبوب
تريد غلاب جميع الملاح ... وتبغى عذاب جميع القلوب

---

(١) دراسة أدبية لديوانه ص ١٦٨ ، (٢) الطلاء : الخمر ، (٣) دراسة أدبية للرصافى ص ١٧١

ومنكن من هى مثـل النجوم   من البعـــد ناظرة تبتسم
فتلك عليهـــا فؤادى يحوم   وتلك إليهـــا الردى اقتحم

✲ ✲ ✲

ففيكن طراً بوادى الهوى   أهيم وإن لم تعـد عائده
ألا إن حبـــاً بقلبى انطوى   كثـير فلم تكفـــه واحده

ويقول[1] — فى الغزل بالمذكر :

أسبغ الله نعيم الـ   ـحسن فى وجه نعيم
قمر أغنى فى الإشـــراق عن ليل بهيم
علم النـاس صحيح الـ   ـحب بالطرف السقيم
يرجع السحر بعينيه   إلى عهـد الكليم

ويقول[2] تحت عنوان اسمعى لى كلاما :

اسمعى لى قبل الرحيل كلاما   ودعينى أموت فيـك غراما
هاك صبرى خذيه تذكرة لى   وامنحى جسمى الضنى والسقاما
لست ممن يرجو الحياة إذا فا   رق أحبابه ويخشى الحماما
لك يا ظبيـــة الصريمة طرف   شدّ ما أوسع القـلوب غراما

✲ ✲ ✲

كلما زاد عاذلى فيـك عذلا   زدت فى حسنك البديع هياما
أفأحظى بزورة منك تشـفى   صـدع قلبى ولو تكون مناما
ورب ليل بالوصل كان ضياء   ونهـار بالهجر كان ظلاما
قد شربت السهاد فيه مداما   وتخـذت النجوم فيـه ندامى

---

(١) دراسة أدبية لشاعر العراق — معروف الرصافى ص ١٧٢
(٢) ديوان الرصافى طبع بيروت ص ١٩١

ما لقلبي إذا ذكرتك يهفو ولعيني تذرى الدموع سجاما
إن شكوت الهوى تلعثمت حتى خلتني في تكلمي تمتاما

وماذا قال الرصافى ؟

فى المجموعة الأولى :

يصف مجلس اللهو ، وما فيه من خمر ، يتسابق إلى شرابها الندماء ، وما فيه من حديث ، يرسلونه ، وهم فى نشوة من الخمر ، دون تحرج أو احتشام .

وفى المجموعة الثانية :

يتحدث عن حبه . فقد وقف على النساء جميعا قلبه ، وقد وزعه بينهن ، دون أن تكون له حال من الثبات والاستقرار . هو الحب الذى لا يمثل العاطفة المشبوبة ، بل هو ينتقل ، من امرأة إلى امرأة ، فإذا صادفه جمال وصفه ، دون أن يترك الوصف فى قلبه كلوماً أو جروحاً ، كما ترك جمال الحبيبة فى قلب المدنف المتيم . وقسّم أحوال النساء ، وذكر بعض ألوان جمالهن ، وأنه يهيم بهن جميعا ، ولا تكفيه فى الحب واحدة .

وفى المجموعة الثالثة :

يتغزل بالمذكر ، ويصف حسن وجهه وإشراقه ، ويصف طرفه ، وسحر عينيه .

وفى المجموعة الرابعة :

يودع حبيبته ، ويتوسل إليها أن تستمع إلى نجواه قبل أن ترتحل . إن ارتحالها عنه يجلب له الضنى ، ولا يرجو الحياة بعد هذا الفراق . ثم يذكر أن عذل العواذل يزيده كلفاً بها وهياما . إنها تهجره وتجفوه ، فهلاّ زارته ، ولو فى المنام ، حتى يشفى صدع قلبه ؟ . وقد تغيرت معايير الحياة ، فأصبح النهار بهجرها ليلا ، وأصبح الليل بوصلها نهارا ، وأصبح حين يشكو الهوى تمتاما ، لا يكاد يبين ، وهو الفصيح ذو اللّسن والبيان .

٦ — اسماعيل صبرى :

يقول فى مطلع قصيدة يهنىء الخديو اسماعيل بقدومه من الأستانة [(١)] :

أطْلع الكاس كوكبا فى ازدهاء   وأدرها فى هالة الندماء [(٢)]
اسقنيها حتى ترانىَ لا أفـ   ـهم نصحا يمُلّه إصغائى
عاطنيها صرفا ولا تُطفىء النو   ر الذى زان حسنها بالماء
وأدرها خدا وحىِّ الندامى   بعِذار [(٣)] الريحان وأغنم ثنائى
مجلس فيه ما جلا صدأ السمـ   ـع وقرت به عيون الرائى
من مغنٍّ يغزو الهموم بأوتا   ر فيحوى أعنّة الأهواء
وغزال أحلى من الأمن يسعى   بكؤوس الغرام والصهباء
مذ رأت خده المدامُ علاها   عَرَقٌ من حَبابها [(٤)] للحياء

ويقول فى مطلع قصيدة يهنىء الخديو عباس الثانى بعيد الأضحى [(٥)] :

شوق يهيِّجه نواك   وجوى يؤججه هواك
كم ذا أراك تميل عن   مضناك يا غصنَ الأراك
وتسومنى صبرا وصبـ   ـرى عنك أقتل مِن جفاك
صيرتَ بُعْدَك من محبـ   ـك بُعْدَ وعدك من وفاك
يا فتنة العشاق حسـ   ـبُ الناس ما جرّت يداك
وكفاك ما صنعتْ بأر   باب الصبابة مقلتاك
أنت النعيم فما لقلـ   ـبى ليس يسلم من أذاك
إنى وإن بالغت فى   هجرى وآلمنى قلاك

(١) ديوانه ص ١٣ (٢) هالة الندماء حلقتهم ومجتمعهم (٣) العذار : مادار على الخد من الشعر (٤) الحباب : ما يعلو الشراب من الفقاقيع . أى أن استحيت الخمر من حسن الساقى فكانت الفقاقيع قناعاً يستر به الخجل (٥) ديوانه ص ٣٦

أصبو إليك إذا النسيم سرى يمثّل لى شذاك
أو دارت الكاسات بالصهباء تخبر عن لماك[1]
وأعد قربك مشتهى وغايتى القصوى رضاك

٧ — على الجارم

يقول فى سنة ١٩١٦[2] : « تحت عنوان الحب »

عاجَ الخيالُ فلم يَبُلَّ أُوَاماً[3] ومضى وخلّفَ فى الضلوع ضِراما
مالى وللكحلاءِ هجتُ عيونَها فلأن قلبى أنصُلاً[4] وسهاماً
يا قلبُ ويحك! ما سمعتَ لناصح لما ارتميتَ ، ولا اتقيت مَلاماً
لعبتْ بك الحسناء تدنو ساعةً فتثيرُ ما بِكَ ثم تهجُرُ عاما
والحب ما لم تكتنفه شمائلٌ غرٌّ يعود معرّة وأثاما
والحبُّ أحلامُ الشباب هنيئةً ما أطيبَ الأيامَ والأحلاما !
والحب نازعةُ[5] الكريم تهزُّه فيصولُ سيفاً أو يسيل غَماما
والحب مَلهاةُ الحياة وطبُّها ولقد تكونُ به الحياةُ سقاما
والحب نيرانُ المجوسِ لهيبها يُحيى النفوسَ ويقتلُ الأجساما
والحب شِعر النفس إن هتفَت به سكتَ الوجودُ وأطرقَ استعظاما
والحب مِن سرّ السماء فسمّهِ وَحْياً إذا ما شئتَ أو إلهاما
لولاهُ ما أضحى وليدُ زَبيبةٍ[6] يومَ التفاخُر سيّداً مقداما
وَلما رمى فى الجحفلين بصدره لا يتّقى رُمحاً ولا صمصاما
الحب ألبسه المروءة يافعاً وأعدّه للمكرُمات غلاما

---

(١) اللمى : سمرة فى الشفتين (٢) ديوانه ص ٦٨ (٣) الأوام : حر العطش
(٤) الأنصل : جمع نصل وهو حديدة الرمح والسهم والسيف ونحوها (٥) النازعة : الميل
(٦) زبيبة : أم عنترة بن شداد العبسى ، وهو المقصود بوليدها .

يا شَــدّ ما فعل الغرامُ بمهجة ذابت أسيً وصــبابةً وهُياما
كانت صَؤولاً(١) لا تُنيل خِطَامها(٢) فغدت أذلّ السائمات(٣) خطَاما
سَــكَنَتْ إلى حُلْوِ الغرام ومُرِّه ورعت عهوداً للهوى وذماما
وطوت أحاديث الجوى فطوت بها داء يدُكّ الراسيات عُقَاما(٤)
نال الضنى منهـا الذى قد ناله فعلامَ روّعها الصُّدُودُ عَلاَمَا ؟

***

يا زهْرَةً نمّ النّسِيمُ بعَرفِهـا وجَرى بها ماء النّعِيم جِماما(٥)
يا جَنّةً لو كان ينفع عنــدها نُسكٌ لبثنا سُجّـــداً وقياما
يا طلعة الروض النضـــير تحية ومُجاجَةَ(٦) المِسْك الذكىّ سَلاما

***

فى هذه القصيدة يتحدث شاعرنا عن الطيف ، وأنه حين يعوج لا يطفىء غلة ، بل يترك خلفه أواراً من النار ، يتلظى به القلب الجريح . ثم أخذ يذكر بعض صفات الحبيبة ، وبعض أحواله معها : فهى كحلاء العيون ، وعيونها ذات سهام فواتك . وهى حسناء لعوب ، تعرف كيف تستثير لواعج الغرام فى قلبك ، ثم تهجرك وتجفوك ، عاماً طويلا ، كم فيه من أشهر وليال ! ، وكم تطوف به نجوم يرعاها بين السهاد والأرق !

وأخذ الشاعر بعد ذلك يحدثنا عن الحب العذرى ، وعن حلاوة الحب . يجب أن يكون الحب طاهراً بريئاً ، وإلا كانت عاقبته فحشاً ونكراً . وهو كذلك حلو جميل ، على قدر ما فى الحيـاة من حلاوة ، وعلى قدر ما يحمله العيش من جمال ونعيم . هو حلم الشباب ، وما أحلى هذه الأحلام ! هو لهو الحياة البرىء ، وهو طبّها

---

(١) الصؤول : الوثاب النافر من الإبل (٢) الخطام : الزمام — المقود —
(٣) السائمات : جمع سائمة، من سامت الماشية إذا رعت (٤) العقام : يقال داء عقام : أى لا يبرأ منه
(٥) الجمام : جمع جمم وهو الكثير (٦) المجاجة : فى الأصل الريق ، والمراد هنا الفتات والخلاصة

من كثير من الآفات والأدواء . هو كالنار عند المجوس ، تميتهم وتحرقهم ، ولكنها تطهر نفوسهم وتحييها ، وكذلك الحب يضنى أصحابه ، ويهد أجسامهم وقواهم ، ولكنه يحيي قلوبهم ، ويبعث فيها نشوة الأمل ، وفرحة الحياة . والحب أغنية النفس ، إذا هتفت به سكت الوجود جميعاً ، من جماد ونبات وحيوان ، وأصغوا إلى جمال هذا الغناء، وأحنوا رءوسهم إجلالا وإكباراً .

وأخذ الشاعر بعد ذلك يحدثنا عن أثر الحب .

فعنترة بن شداد أحب ابنة عمه « عبلة » . ودفعه هذا الحب إلى أن يكون فارساً مقداماً ، وجواداً كريماً ، وصاحب مروءة ومكرمات . ولولا ذلك لكان عبداً هجيناً ، لا تعرف له هذا الشأو البعيد . والحب يهذب النفوس ، ويسلس قيادها ، فهو يروضها إلى الرقة والدقة ، بعد أن كانت جامحة نافرة . وفى الحب وفاء ، يجعل المحبين يرعون عهود الهوى ، ويحفظون حقوقه وحرماته . وفى الحب صبر ، به يحتملون مره ، وعذابه .

وأخذ الشاعر يخاطبها بما فيها ، ويحييها تحية خالصة من قلبه . أخذ يذكرها ، ويدعوها بالزهرة ، وبالجنة ، وبالروض النضير . وخلاصة المسك . أما الزهرة فلها عرف، ذكى الرائحة والطيب . وكذلك هى. وأما الجنة ، فهى تتطلب نساكا عابدين ، حتى يكون نسكهم وعبادتهم قرباناً فى دخولها . وهى جنة ، ولكن لا يجدى عندها سجود وقيام ، ولو أجدى لبات حياته كلها ساجداً ومقيما

٨ — محمد رضا الشبيبى

يقول[١] تحت عنوان سانحة فى الحب :

مالامنى لو أحس الناس أو شعروا	ألستم الحِسَّ سمعى منه والبصر
كان الهوى بيننا عهداً وبينكمُ	لما تعارفت الأشباح والصور

(١) ديوانه ص ١٤٣

إنا عذرنا من اللوّام طائفة خليّةً لو أحبوا مثلنا عذروا
لِمَ لا يرقون بل لِمْ لا تؤرّقهم محاجرٌ رَقّ مما تذرف الحجر

* * *

هل عند من أسهروا ألاّ فهم خبرُ في الليل طولٌ وفي أجفاننا قِصَرُ
دجت ليالي محبيهم وآنسني ليل تضيء حواشيه إذا ذكروا
يومي أصيلٌ إذا وافت بشائرهم وليلي كلها من رقةٍ سَحَرُ
طيف الكرى أثر قنعتُ به يكفي من العين ـ إن لم توجد ـ الأثر
هذا نصيب من الدنيا خُصِصْت به أم صدفة الدهر، أم هذا هو القدر؟

ويقول[1] تحت عنوان «محنة الحب» :

ما كفاكم من امتحان المحب أن تجافى عن المضاجع جنبي
هل أسال البكاء عيناً كعيني ؟ أو أذاب الفراق قلباً كقلبي
أعلى العين هذه فرض عين حين يدعو داعي البكا أن تلبي ؟

* * *

سوف أقضي من الصبابة حقي حين أقضي من الصبابة نَحْبِي
بغّض الحبُّ كل شيء بعيني فاستوى في المآل بغضي وحبي
آيسونا من اللقاء وقالوا : حسبك الطيف طارقاً قلت: حسبي

ويقول[2] متغزلا في أول قصيدة :

سؤر عينيك باعثٌ نشواني ـ إي وعينيك ـ لم يكن سُؤْرَ دَنّ
لم تجيء آفة القطيعة إلا من تجنّيك يا كثير التجني
لي ظن ـ وإن أسأت ـ جميل بك ياقاطعي فكن عند ظني
ما ملكتُ الذي هويتُ ولكن قد تمنيْتُ لو أفاد التمني

---

(١) ديوانه ص ١٥٧
(٢) ديوانه ص ١٤٤

٥ — شبلى الملاط :

يقول فى مطلع قصيدة بحفلة سيدات الهلال الأحمر فى بيروت (١) :

ما حيلتى وسواهى أَعْـيُنُ العين ... خططن سِفر عذابى قبل تكوينى
فواتكٌ وهى فى الأجفان مُغْمَدَةٌ ... صوائل وهى فى غــير الميادين
هن الدواء ، وهن الداء من قدم ... كلاهما رهنُ تحريك وتسكين

ويقول فى مجلس أنس (٢) :

واف ِالـكروم وهاتهـا ... معصورة تروى الـكبد
ماء الـكروم بزَخْـلَةٍ ... كالروح تَسْكُبُ فى الجسد
تولى الـكهولةَ قــوّةً ... وتهيج منهـا ما خمد
وإذا مشت وتحـكمت ... بالشـــيخ ردّته ولد
ساقيتها فى فِتيــــة ... كالزهر فى هذا البلـد
يروى نسيم النهر عن ... أخلاقهم راحا وشهـد
نزلوا من الجبل الذى ... نشئوا به غاب الأسـدْ
لبنـان واشوقى إلى ... لبنـان والعيش الرغَـدْ
أيام كنت أخا الهـوى ... عَدَل الحبيب أو استبد
واللحـظ يعشق عادلا ... كاللحظ يَمْشَقُ مستبد

ويقول (٣) :

يا أهل الوادى لى قمرٌ ... بسماء الوادى مطلعُــهُ
وبجفنى الساهر مسكنه ... وبقلبى الذائب موضِعهُ
بنقاب الليــل تحجُّبُـه ... وبدرع الفجر تمنّعــه

(١) ديوانه ص ٢٧٢ (٢) ديوانه ص ٣٠٥ (٣) ديوانه ص ٤٠٧

فالقلب بلا حبٍّ قدحٌ   لم تُرْوِ الشارب أدمعه
يا ظبياً يرتع فى الوادى   و بروحى الظبي ومرتعه
ما ألطف روحاً يحملها   مولاى تبارك مبـدعه

٩ — خليل مطران :

يتغزل فى أديبة جميلة[1] :

يا عيونا تسقى العيون الرحيقا[2]   واصلى مُدمِناً أبى أن يفيقا
أسكرينى على الدوام وأفنى   مهجتى دمعاً وعزمى رحيقـا
تلك خمـر الحياة من لم يذقها   مرةً ليس بالحيـاة خليقـا
وهى حُسن الحياة سعداً و بؤساً   واصطباحاً لشَربها[3] وغبوقا[4]
أنت يا من سقت فؤادى منها   حـر وجـد ولوعـة وخفوقـا
اظلمينى ما شاء ظلمك وانهى   آمر الحسن أن يكون شفيقا
عذبينى فقد جنيتُ على نفسى   وأمسيتُ بالعقـاب حقيقـا
فلهـذا العقـابِ عاودتُ حُبّى   ولألقـاه خنت عهـداً وثيقـا

* * *

أيها النائمون يهنيكم النـوم   ولا زال حظى التأريقـا
إن يكُ الساهرون مثلى كثيراً   فسعادٌ أسمى وأسنى عشيقـا
فاتنِى من جمالها الوجه طلقاً   لا يباهى والقـدّ لَدْنا رشيقـا

---

(١) ديوان الخليل ص٢٧   (٢) الرحيق : الخمر
(٣) أى شاربيها   (٤) الاصطباح : شرب الصباح . الاغتباق : شرب المساء

فاتنى عقلها الذى يبدع الخاطر روحاً وهيكلا وعروقا
فاتنى نظمها القريض كما تنظم عقداً فى جيدها منسوقا
فاتنى لطفها الذى ينعش الوجد ولو شاء أنعش التوبيقا
ويقيم الآمال فى النفس كالنور يحيل البزور زهراً أنيقا
فِتَنٌ قيّدت بهن فؤادى وأرانى إذا شكوتُ عقوقا
كلٌّ مستأسرٍ يودّ انطلاقا وشقائى بأن أكون طليقا

ويقول[1] يصف قضيته فى الحب بين القلب والعين ، و يسلك فى هذه القضية سلوك المحاكم : عرض ، ودفاع ، حكم فى البدء وحكم فى الاستئناف، ثم نقض و إبرام:

عرض القضية .

بين قلبى ومقلتى حملةٌ توهن القوى
ونزاع بفصله حكّما قاضىَ الهوى

الدفاع عن العين .

إنما العين أبصرت نصبا القلب واكتوى
عرضاً أبصرت ولا ذنب إلا لمن نوى

الدفاع عن القلب .

وهو لولا طموحها لم يبت شاكى الجوى
مستمرًّا خفوقه كلما نسّمَ الهوا
شِبه ظمآن ما له من ندى الدمع مرتوى

الحكم الابتدائى .

قال قاضى الغرام من سُدّةٍ[2] فوقها استوى
إن تك العين أذنبت حسبها السّهد والنوى

---

(١) ديوان الخليل ص ٢٨ (٢) أى منبر

كيف تُجزى وماغوت　　وسِواها الذى غوى
فعلى القلب غُرمــهُ　　وهى لم تجن بل هُوا

حكم الاستئناف .

هى مالت فسَبّبَتْ　　وهو جارى فما ارعوى
فليُعاقب كلاهمـــا　　فهما فى الهوى سـوا

النقض والإبرام .

القـلوب والمُقَـل　　هنّ للهوى رُسل
لسنَ للهوى عللاً　　فى الهوى لها علل
ربهـا وآمرهـا　　يقتضى فتمتثـل
حاكمٌ مشـيئته　　لا تردهـا الحيل

＊＊＊

عينك التى نظرت　　منـه جاءها المَيَلُ
والفـؤاد طاوعهـا　　وهو مكره وجِل
فالمسىء غـيرُهما　　ما إليه متصـل
إنمـا الجـزاء لمن　　عنه يصدر الزلل
عـلة لمـا فعـلا　　لو تعاقب العـلل

ويحسن أن نقف من هذه القضية التى أتاها شاعرنا موقف البحث والدرس . قضية بين خصمين : بين العين والقلب . وهما خصمان قويان عنيفان ، قامت بينهما هذه الحملة ، وكانت حملة قاسية ، طال فيها الـكرّ والفرّ ، وجال فيها الطرفان وصالا ، ولم يدخرا فى ذلك جهداً وقوة .

فلم يكن بد ، بعد أن دام النزاع بينهما طويلا ، و بعد أن لم يصلا فيه إلى فصل

الخطاب — أن يرفعا أمرهما إلى قاض حازم حكيم ، عليم بأدواء النفوس ، خبير بطب القلوب . هو قاضى الهوى .

نحن الآن إذن أمام منبر القضاء العادل ، وهذه جمهرة من الناس ، يتزاحمون بالأيدى والمناكب ، يشهدون هذه القضية الصاخبة ، الثائرة ، لعل لهم فيها ما يطفىء الغلة ، ويشفى الغليل .

فما هى القضية ؟

من الجانى على ذى الهوى ؟ العين التى أبصرت الحبيبة ، فعاد شعاعها يحمل إليه الإعجاب بحسنها وفتنتها وزينتها . وسرى هذا الشعاع إلى القلب ، فاهتز وخفق ، وانقلب الإعجاب إلى حب وغرام ، وكان من ذلك ألم ، وحرقة ، وعذاب .

مَن كان سبباً فى هذا العناء الذى عاش الحبيب تحت ظلاله ؟

تقول العين :

القلب هو سبب هذا البلاء ، لأنه هو الذى صبا ، وهو الذى خفق . ولولا ذلك لكانت النظرة عابرة عارضة . وكم تنظر العين مثل هذه النظرات ! ، فلا يترتب عليها مثل هذا الأثر .

لا ذنب للعين إذن ، ولا إثم عليها .

ويقول القلب :

كيف لاتكون العين سبباً فى عناء الحبيب ، وشعاعها هو الذى حمل إلى القلب حسن الحبيبة وجمالها . ولو لم يصل إلى القلب أثر هذا الحسن ما خفق خفقة الهوى .

إذن لا شك أن العين هى السبب فى هذا كله .

وماذا حكم القاضى ؟

حكم قاضى المحكمة الابتدائية :

بأن الغُرم على القلب ، وماغوت العين ، وحسبها عذاباً ماتلقاه من السهد والنوى .

رأى القلب قسوة وعنفاً فى ذلك الحكم الابتدائى فاستأنفه .

وحكم قاضى محكمة الاستئناف :

إن الغرم على العين والقلب ، كلاهما جنى ، وكلاهما اعتدى ، وكلاهما كان سبباً .

أما العين فقد رأت ، ومالت إلى ما رأت ، وأما القلب فقد أحس واهتز ، ولم يرعو ويزدجر ، فليأخذ كلاهما عقابه ، ولينل جزاءه .

وحكم قاضى محكمة النقض والإبرام :

برأ القاضى العين والقلب ، فلم يجعل لهما إثماً ولا ذنباً ، فالعيون والقلوب فى نظره ليست علة للهوى وسبباً ، إنما هى رسل تؤدى رسالتها ، وتخدم صاحبها بأمانة وإخلاص ، دون أن تكون لها مرحلة بعد ذلك ، تتجاوز فيها عملها ومهمتها . فعمل العين الرؤية والبصر ، وعمل القلب التأثر بمايرى . وقد ترى العين من هو حسن جميل ، ويتأثر القلب بذلك الحسن والجمال ، ولا يتولد عن هذا أو ذاك حب وهوى . أو يتولد حب ماجن ، أو حب عابر ، وهذا ومثله لا يكون ذا قيمة وأثر . هناك علل أخرى تعدو الحسن ، وتعدو إعجاب القلب به .

هناك فى نظر الشاعر رب وآمر يحكم ويقضى ، فنمتثل لحكمه وقضائه . حاكم يدين له العالم جميعاً بالخضوع والطاعة ، فتبصر العيون ، وتهفو القلوب ، إذعاناً لأمره ، وطوعاً لحكمه .

وهناك فى نظرى توافق القلوب ، وامتزاج الأرواح ، هذا التوافق الذى يخلق منهما فكرة واحدة يؤمنان بها ، وينعمان بهذا الإيمان . وهذا الامتزاج الذى يسمو بهما إلى أن يكونا فى عالم الروح ، لا فى عالم المادة ، حيث تتغير فى عيشهما مظاهر الحياة ، فتصبح صفاء ، وطهراً ، وخلوداً . وهذا هو الحب الصحيح .

١٠ - جبران خليل جبران :

يقول[١] :

والحب في الناس أشكال وأكثرها ... كالعشب في الحقل لا زهر ولا ثمر

وأكثر الحب مثل الراح أيسره ... يرضي وأكثره المدمن الخطر

والحب إن قادت الأجسام موكبه ... إلى فراش من الأغراض ينتحر

كأنه ملك في الأسر معتقل ... يأبى الحياة ، وأعوان له غدروا

١١ — زكي مبارك :

يقول تحت عنوان « حلم اللقاء » :

غداً سوف ألقى من حياتي نعيمها ... وأمرح في روض الهوى وأجولُ

وأقتل أحزاني وأحيي بشاشتي ... ويبسم مني فاتني فأقول

ألا إن نجوى الحب بيني وبينه ... وقد غاب عنا كاشحٌ وعذول

رياضٌ من اللذات يهفو نسيمها ... ويحيا به المشتاق وهو قتيل

* * *

أمنّي فؤادي بالأحاديث في غدٍ ... إذا ضمنا عند السّمار مَقيل

غدٌ ، أين مني في الغرام صباحُهُ ؟ ... فإن انتظاري شمسه سيطول

سأقْطع ليلى بالأماني أديرها ... أقول لها ما أشتهي وتقول

سأبدع في تصوير أحلامنا غداً ... ونحن بفردوس الوصال حلول

* * *

تقول الأماني إن ميعادنا غدٌ ... وبعض الأماني الواعدات مطُول

إلى الله أشكو وَقْدَة الحزن في غدٍ ... إذا ضاع ميعادٌ وخان خليل

---

(١) ديوانه المواكب ص ٢٢

١٢ — محمود حسن اسماعيل

يقول فى وصف حمامات البحر — خليج ستانلى — :(١)

من علّمَ البحر لجاج الهوى وأترع الحب بشطآنه ؟
وقال للموجة : خمر الصبا صافٍ ، فعُبّى الكأس من حانه ؟
وأنشدى فى الشط أُغنيّةً أودعها النّايُ بألحانه !

***

يا بِدعة الشّط سلبْتِ الهدى من كل معصوم بإيمانه
لولا جلال الفن فى بُهرة للحُسْن أصلتنى بنيرانهِ
الهبْتُ فى شعرى سعيرَ اللظى ورحتُ أُصليكِ بأوزانهِ
أوْ ألهمِ البحْرُ مِساسَ الحجا لأغرقَ البرَّ بطوفانه
ولم يَدعْ فى غمْرِهِ سابحاً يُصَافحُ الموْجَ بِشُطآنه

ويقول :(٢)

يازَهْرَتى ! طلع الصباحُ وفى فمى نغمٌ ينوح . وهل سمعتِ نُواحَهُ ؟
مازال يصرخُ فى الفضاء فلمْ يجد شفةً تناغِم(٣) لحنه وصُدَاحه
أسيان(٤) مُختبلَ النشيدِ أذابه مِنْ خافق دفنَ الزّمان مِراحَه
قلبٌ كعصفورِ الأراكة ذِيدَ عن عُشِّ الصِّبا والسجنُ شلّ جناحَهُ
جرّحتِهِ بالهجر . . . ثم تركته ماذا عليك إذا أسوْتِ جراحَه !
كم رتل اسمك — خاشعاً — فكأنه (موسى) يرنّمُ فى الدُّجى ألواحَه
الهجرُ عذّبه وأذبل رُوحَهُ والمكرُ غيّبَ فى الأسى أفراحه

---

(١) ديوانه هكذا أغنى ص ١٣٧
(٢) ديوانه هكذا أغنى ص ١٤٤
(٣) ناغمة : كلمه كلاما رقيقاً ضعيفاً
(٤) أى حزين

وبكى ونوّح فى الظلام فما أسا ... قلبُ الحبيب بكاءه ونياحه !

حجبوك.. هل حجبوا سناك مفجّرا ... كالنبع يسكب فى الحشا تلماحه ؟[1]

حجبوك. هل حجبوا عبيرك عن دمى ... ريّان يذكى فى الفؤاد نفاحه ؟[2]

حجبوك. هل حجبوا نشيدك عن فمى ... لهفان حلّد فى الهوى تصداحه ؟

حجبوك . هل حجبوا نفاثة عاشق ... أضرى الغرامُ جلادَه وكفاحه ؟

متولع بهـواك ما أغرى به ... بين ولا فلّ الفراق سـلاحه

وافى بروجك فى الصباح فلجّ فى ... ظلم النوى ، وبكى الحزين صباحه

لم يلق إلا ظلمة مشبوبة ... وسـناً تخطفت الدجى لمّاحه

يا ليلَهُ أترعْ لواعج قلبه ! ... حدِّث عن الخفقات يا مصباحه !

لم يُبق منه الحب إلا آهة ... مجنونة الحركات تقلق ساحه

وقصيدة هزت ملاحنها الدجى ... ومحت رُؤاه ، وفزّعت أشباحه !

ظنوا غرامىَ فيكِ مُلهية ساخر ... يلقى على الزمن الضحوك مزاحه

فتنوك عن نظرى وخلّوا مهجة ... حيرى يجرّعها الهوى أتراحه

كالطائر المنبوذ فى قُبَب الفلا ... يذرى الهجيرُ بساحها أرواحه

وأنا الذى سأظل باسمك هاتفاً ... حتى يعد الموتُ نحوىَ راحه

وماذا قال الشاعر فى قصيدة : يا زهرتى :

قدم الشاعر نفسه هذه القصيدة فى ديوانه — هكذا أغنى — بهذه العبارة :

« عصفت بقلب الشاعر عاصفة من الوجد الصارخ عقب فراق مفاجىء ، نكب به منذ عامين ، فاستحالت حياته إلى جحيم من العذاب النفسى ، والقلق الممض !.. وقد نزع به الحنين — يوما — إلى قصر عذرائه الملهمة ، حيث مهد غرامه ، وشط الهامه ، فسبق الشمس إلى أستاره فى الصباح بنظرات مشدوهة . . وروح شارد ،

(١) يقال لمح البرق لمحا ولمحاناً وتلماحاً : لمع

(٢) نفاخ الطيب : انتشار رائحته

فوقف لحظة ثم عاد بهذه الدموع المشتعلة — التى سكب نارها فى هذه المناجاة !! »

هذه التقدمة تكشف لنا ماذا يعنى الشاعر فى هذه القصيدة .

يخاطب الشاعر حبيبته ويناجيها . يبثها ألمه وعذابه ، فى هذا الفراق الطويل .
ولم يستطع أن يحتمل مرارته ، فهرع إلى دارها ، لعله يخفف هذه الآلام .

طلع الصباح ، وفى فمه نغم ينوح ، ولكن من يسمع نواحه ؟ ينوح ويصرخ فى الفضاء ، وهو حزين ، مبتئس ، كسير القلب ، مهيض الجناح ، ولكن من يرق ويرحم ؟ أين من يردد صدى هذا النواح ، وذاك النغم ؟

قد جرحته بالهجر ، والهجر عذبه . وبكى ، فما أسا قلب الحبيب .

حجبوها ، ولكن لن يستطيعوا ذلك . فسنا نورها يسطع فى الحشا والقلب .

حجبوها . ولكن لن يستطيعوا ذلك . فعبيرها يروى دمه ، ويذكى فؤاده .

حجبوها . ولكن لن يستطيعوا ذلك . فإنه يهتف باسمها ، وينشد ألحان حبها وهواها .

حجبوها . ولكن لن يستطيعوا ذلك . فقلبه يخفق بحبها ، ولن يحولوا بين القلب وخفقاته ، ولا يزيده الفراق إلا لوعة وحنينا .

وافاها صباحا ، وعاد خائبا محسورا ، لم يظفر بوصل أولقاء . ولم يظفر بما يشفى غليله ، ولم يبق منه الحب إلا الأنة والآهة ، ولم يبق منه إلا الفزع والقلق ، ولم يبق منه إلا قصيدة ، هى نفثه قلبه المكلوم ، إذا ردد ألحانها انقلب نور هـذا العالم ظلاما حالك السواد ، وانقلب نعيمه ، بؤسا وشقاء . ويأتى دور العواذل ، وهم بلاء المحبين . يقولون إن حبه إياها لهو ومجون ، فليحجبوها عنه . وهم كاذبون واهمون . فحبه صادق دفين برىء ، كم جرّعه من اتراح وأحزان . سيظل يهتف باسمها ما بقى الزمن ، وما بقى حيّا فى هذا الزمن . ومن يدرى لعل روحه يهتف باسمها ، إذا انتقل إلى الحياة الأخرى ؟ .

١٣ سيد قطب

يقول تحت عنوان « الكأس المسمومة »[١]

أقلاك أقلاك كالشيطان أقلاك | أملاك كالسم يسرى جد فتاك
أقلاك . إنك فى نفسى وفى زمنى | وفى حياتى أفعى ذات أشواك
سممت عيشى وأحلامى وأخيلتى | وأنت شيطانة فى سمت أملاك
وعشت أرعاك فى قلبى وأنت بلا | قلب يحس ويرعى كيف أرعاك
من أنت ؟ ماأنت ؟ إنى حائر قلق | أنت أسطورة فى سفر أفاك

***

أنسى الليالى التى قضيتها قلقاً | وأنت ساكنة راض محياك .
أنسى الدموع التى أرسلتها غدقاً | ولست لولا هواك المر بالباكى
وكبريائى التى ما كنت أخفضها | من قبل أو بعد فى دنياى لولاك
أنسى لأذكر أحلامى وأخيلتى | كأنهن نجوم بين أحلاك
وكلهن نسيج الوهم فى خلدى | ولسن غير علالات وأشراك

***

أقلاك ؟ ليت ! فإنى لست أقلاك | أهواك ؟ ليت ؟ فإنى لست أهواك
أهوى وأقلى وأيامى موزعة | بين الهوى والقلى كالضاحك الباكى
هذا الرحيق وهذا السم قد مزجا | ولست أروى بكأس غير رياك
هاتى لى السم صرفاً لا يمازجه | هذا الرحيق فإنى لست بالشاكى
مللت كأسك لا ألتذ نشوتها | ولا أحطمها تحطيم سفاك

***

(١) قيلت فى ٣ مارس سنة ١٩٤٣

يحدثنا الشاعر فى هذه القصيدة عن صبابة نفسه .

والناس يكرهون الشيطان ، لأنه يضلهم طريق الحياة ، ويكرهون الأفعى ، لأنها تؤذيهم ، وتبيدهم بسمومها الفتاكة .

والحبيبة كالشيطان ، وكالأفعى . ولاشىء أنكى على الحبيب أو أكثر أذى له ، أو انتقاما منه — كالحبيبة إذا هجرت ، وتمنعت ، وتجنت ، وتدللت ! ولهذا كره شاعرنا حبيبته .

لأنها سممت عيشه ، وأحلامه ، وأخيلته .

وكيف سممت هذا العيش ؟

عاش يرعاها فى قلبه ، وهى بلا قلب يحس ويرعى ! قضى أيامه ولياليه قلقاً فى هواها ، وهى ساكنة راضية المحيا ! كان يرسل دمعه غدقاً ، ولولا هواها ما دمعت عيناه . وهى قاسية القلب ، متحجرة العيون . خفض كبرياءه ، وهو الأشم الأبىّ ، ولولا حبها ما خفضها من قبل أو من بعد .

ولكنه فى حيرة من هذا الكره .

ليته يكرهها ، حتى يخلص من آلام حبها .

ولكنه لا يكره . لأنها حبيبة نفسه . وليس إلى كراهيتها من سبيل .

بل هو فى حيرة من هذا الهوى .

هو حقاً يهواها ، ويتمنى أن تبادله الهوى ، حتى يطول ويدوم .

ولكن حالها معه من صد وهجر تجعله يقابلها بالمثل ، فلا يهواها .

فحاله إذن بين هوى وقلى ، كالضاحك الباكى .

وهو فى حال تعطيه السم صرفاً فيرضى ولا يشكو ، وفى حال يمل كأسها ، لا يلتذ نشوتها ، ولا يحطمها ، فيتخلص منها .

* * *

١٤ — عبد العزيز عتيق

يقول[١] يصف شاطىء البحر :

عم صباحاً يا كعبة المصطاف ... وملاذ الأحباب ، والألاّف

قد سعينا إليك يسبقنا الشو ... ق ، فماذا أعددت للأضياف ؟

نحن ركب الجمال والفن جئنا ... نتملّى الجمال فوق الضفاف

فانظم الشاطىء الكريم جمالا ... نتمـلاه فى الوجوه اللطـاف

ويقول[٢] « وقد ركب مع حبيته فى إحدى الليالى زورقاً » .

حينما ذهّب الأصيل مياه النيـ ... ـل واختال فى الرياض جميلا

أبصرتنى أطوف حول حماها ... سادر الخطو ، حائراً مذهولا

هتفت بى : إلىّ ياصاح أقبل ... أنا من قد بحثت عنها طويلا

ذاك وكرُ الهوى، ألست تراه ... مثلما كان شاعرياً ظليلا ؟

ذاك روضى فقَرّ عينا ونفساً ... ياحبيبى واجلس إلىّ قليلا

* * *

كيف جانبتَ روضك الفينانا ... أتسليت أم نسيت المكانا ؟

كلما طفت بالمكان أثارت ... وقفات الوداع منى الحنانا

وأرى القلب فى غيابك أمسى ... ياحبيبى موزعا حـيرانا

أيها الغائب الذى خالط القـلب هواه فذاق منه الهوانا

خذ ذراعى إلى ذراعك واصعد ... ربوة الأمس واسقنى الألحانا

رب ليـل سهرته أتقلى ... فيه وحدى وأشتكى الحرمانا

* * *

(١) ديوانه ج ١ ص ٣٦

(٢) ديوانه ج ١ص ٩٣

هـا هو العود حالمًا بالأغانى	فأعِدها سحريّة الأنغام
هـا هو العود ياحبيبى فغنّ	غن للحب ، للنفوس الظوامى
فإذا ماشُغِلتُ عنك بنفسى	وبما هاج من هوى وضرام
فدع العود جانباً ، وأدرها	قبلات من ثغرك البسام
ودع الربوة الظليلة تخفى	أثرينا بظلها المترامى
ولنعش ها هنا كما نتمنى	للأغانى ، للحب ، للإلهام

* * *

هذا جانب الغزل فى الشعر . وللغزل النثرى فى هـذا العصر حظ لا بأس به بفضل ماقام به بعض الكتاب من ترجمة عن الأدب الأجنبى . وبفضل ماوضعوه فى هذا الباب من رسائل ممتعة . وسأوفى هذا الموضوع حقه فى كتب الغزل الأخرى .

* * *

أغراض الغزل :

ولعلك أيها القارىء الكريم ، بعد أن مرت بك هذه الأمثلة من شعر هذا العصر ، تستطيع أن تتبين صورة صحيحة لأغراض الغزل .

فلا يزال من سنة الشعراء فى هذا العصر كما كانت سنتهم من قبل أن يبدءوا قصائدهم بالنسيب ، وذلك هو الغزل الصناعى .

وإن كان بعضهم قد بدأ القصيدة بوصف الخمر ، ومجالس اللهو ، وما إلى ذلك ، ولكن بقى البدء بالنسيب كثيراً غالباً .

ولا يزال الغزل الماجن قائماً فى هذا العصر ، نتيجة اختلاط العرب بالغرب ، ونتيجة تأثير المدنية الغربية فى المدنية الشرقية ، ونحن نعرف ما يشوب المدنية الغربية ، من لهو ومجون ، وعبث وفساد ، وقد امتد هذا إلى الشرق فى صور شتى ، ولولا مناعة الشرق ، لطغى سيل هذه المدنية ، وجرف أمامه مظاهر الخير فى عاداتنا ، وتقاليدنا ،

وعقائدنا . ومن المؤلم حقاً أننا حاكينا الغرب فى كثير من ضروب العيش الساخرة الماجنة ، وتركنا ما هنالك من ضروب أخرى ، فيها قوة ومناعة . ومن المؤلم أيضاً أن امتدت هذه المحاكاة إلى الأدب ، وإلى الشعر ، وإلى الغزل .

إذن تغزل شعراء هذا العصر غزلا ماجناً ، وقد تسمع الشيء الكثير من هذا الغزل الماجن إذا أنت جلست إلى جماعة من شعراء الغزل فى هذا العصر ، وأنست إليهم ، وأنسوا إليك ، وكانت تجمعك بهم ساعة من اللهو والفراغ . سيسمعونك — وخاصة إذا كانوا شباباً — كثيراً من الغزل الماجن ، وقد يكون مجونه بالغاً فائقاً . وخاصة إذا أمنوا جانبك ، ولم يتحرجوا منك ، ولم يخافوا تشهير الناس بهم ، وعتبهم وملامهم . ولولا خوف التشهير والملام لقرأت جهراً ، وسمعت جهراً ما يصح أن تقرأه وتسمعه سراً .

ولعله بعد ذلك يجيء دور الغزل الصادق ، الغزل البريء ، الغزل ذى العاطفة الملتهبة ، والقلب المرهف .

هذا النوع من الغزل وجد فى هذا العصر ، ووجد بكثرة لا شك فيها .

وجد نتيجة لقاء الفتى بالفتاة ، الفتى الشاعر ، والفتاة الفاتنة . عرف كلاهما الآخر ، وامتزجا عاطفة ، وقلباً ، وروحاً . فهام كلاهما بالآخر . أما هو فترجم عن هيامه بقافيته وألحانه ، وأما هى فأذكت فيه الحس حتى أصبح رائعاً ، وأذكت فيه القلب حتى أصبح يخفق خفقة الغرام . الغرام الذى لا يعرفها إلا هى ، ولا يتحدث إلا عن وحيها ، ودلها ، وحسنها .

وإنك لتجد أمثلة من هذا النوع من الغزل ، وخاصة لشعرائنا الشبان المحدثين ، أو خاصة لشعرائنا فى عهد الحداثة والشباب .

اقرأ هذه الأمثلة ، التى مرّ بك شطر منها وأيّا وجدت قلبك يخفق ، ووعيك يهفو ، وسمعك يطرب ، فاعرف أن هذا هو الغزل الصادق .

واقرأ[1] :

منّنى أطيب المنى يا حبيبى | فالمنى وحدهن منك نصيبى
إن يفتنا منالها لم تفتنا | نظرة من خيالها المرقوب

***

منّني بل دع المنى يا حبيبى | فشقائى فى الموعد المكذوب
هان فقد المنى التى لم تَعِدنا | وافتقاد الموعود جدّ صعيب
أعطنى! أعطنى إذن يا حبيبى | غير ما نا كث ولا مستجيب
أعطنى صفوك ارتجالا ودعنا | من مطال بالوعد أو تقريب

واقرأ[2] :

إن تسل فى الشّعر عنى | هكذا كنت أغـنِّى
لا أبالى أشَجَى سَمْ | عَكَ أم لم يُشْجِ لحنى!
هو من روحى لروحى | صلواتٌ وتغـــنِّى
وهو من قلبى ينابيـ | ـعُ بها يَهْدر فنى
للأسى فيها تعاليـ | ـل ولليأس تمنّى
وهو إحساسى الذى ينسـ | ـاب كالجدول منّى

وقول الشاعر[3] :

يا مُحَيّاً عبــدتُه | مثلمـــا يُعْبَدُ الإلهْ
وجمالاً عشــقتُهُ | عشقَ من لا يرى سواه

---

(١) هدية الكروان للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٤٣ (٢) هكذا أغنى للأستاذ محمود حسن اسماعيل ص ٢٣٩ (٣) أحلام التخيل عبد العزيز عتيق ص ٩٧

وقول الشاعر[١] :

جنة الحسن كلٌّ ما فيك حلوٌ وجميلٌ إلا التجنّى فمُرُّ
أنا من هام فاستباح التشكّى والهوى جاحمٌ فأين المفر ؟
أنا من ذل فى هواكِ وحَسْبى أنه ليس فى المذَلّة وِزْرُ
أنا من أرسل المدامِعَ شِعرا وكفانى أن المثوبة هَجْرُ
أنا من ذاب من أساك التياعا والتياع الأسى سعيرٌ وجمْرُ
أنا من ذوّب الفؤاد دموعا وأنينا وزفرةً لا تقِرّ

وقول الشاعر[٢]:

هاتى دموعك تستدر دموعى وضعى يمينك فوق خفق ضلوعى
تلق فؤاداً كالوليد أمضه حر البكاء وصرخة الترجيع
نبّهْ رسول العطف ياليل الأسى يشفى جروح فؤادىَ المصدوع
فهناك قلب يحتويه خافق خفق الحنان لقلبىَ المفجوع

وقول الشاعر[٣] :

ياطيرُ لا تخش منّى الآن عادية لا تخش ياطيرُ منى أىّ عدوان
فى الروض لى صاحبٌ من أجل خاطره كلُّ الطيور أحبّائى وخلاّنى
لبلبلى — ولعينيه وطُهرها وهبت للطير تحنانى وغفرانى

وقول الشاعر[٤]

أفا تنتى أنظرى كبدى المعنى تذوب من الحرارة فوق صدرك
وفى نهديك بعض دمى وإنى على بلواى — باق طوع أمرك

---

(١) أحلام الربيع طاهر زمخشرى ص ٨٤
(٢) ألحان الألم فايد العمروسى ص ٨٥
(٣) أشواق ـ ديوان محمود أبو الوفا ص ٧٣
(٤) الهوى والشباب ـ ديوان أحمد عبد الغفور عطار ص ١٥٦ .

فقالت — وهى باسمة — أصدقٌ مقالُك ؟ أم تراه بعض شعرك
ألست بشاعر ، والشعر كذب تخادعنى به يا سوء مكرك
فقلت : استغفرى ولديك جسمى وروحى يشهدان بفعل هجرك
هجرت — وما أظنك عن ملال — وجئتِ فمرحباً بك فى مقرك
هنا فى القلب دارك فاستقرى وشيدى عالما حيا بسحرك
وفى دمى الطهور هواك يجرى وفى عينىّ يسطع كل نورك
وكيف أشق فى الدنيا طريقى إذا لم تهدنى أضواء بدرك

* * *

فأنت تحس من هذه الأمثلة ، وما ذكرنا من قبل وهج العاطفة الملتهبة ، التى تجيش فى صدور المحبين .

كان الشعر فى عصوره الأولى سليقة وطبعا ، وهو قريب من ذلك فى بعض العصور اللاحقة . أما الشعر فى عصرنا الحاضر فقد أصبح فنا ، نتذوقه ، وندرسه ، ونتعلمه ، ليكون وحى نفوسنا ، وترجمان ما تجيش به ، من أمل وألم ، ومن حب وغرام ، ومن شكوى وأنين . فبينا الفتى الشاب الناضر ، قد خرج إلى هذه الحياة مزودا بالعلم ، والثقافة والأدب . نظر بعينيه فرأى الفتاة الغضة الناضرة . راقه حسنها وجمالها . وعقد الحب بينه و بينها آصرة من الود ، والإخاء . وكان بعد ذلك فراق ولقاء ، وهجر ووصال ، ثم كان شدو ، حين تبسم له الحياة ، وشجو ، حين تعبس فى وجهه الأيام . كل هذا يدعو النفس الثائرة إلى أن تتنفس ، ويدعو القلب الحساس إلى أن يخفق . وكل هذا يريد أن ينشره على الناس ، حتى يفرحوا ويطربوا ، كما فرح وطرب . وحتى يشاركوه فى شكواه و بلواه ، حين يكون له حظ من البلاء والشكوى . إذن هو فى حاجة إلى أن يصور خفقات قلبه ، وخلجات نفسه .

وليكن الشعر أداته ، حتى يسمع الناس جميعا ، فيشوقهم ، لأنه صادق ملتهب ، وحتى تسمعه الحبيبة ، فيكون نجواها ، حين تسكن إلى مخدعها ، وحين تكون بعيدة عن عيون الرقيب ، لعلها ترق ، أو ترحم ، أو تلين .

فى هذا اللهيب من العاطفة ، وفى هذا الصدق من الشعور ، وفى هذه النجوى تقرأ نوعاً من الغزل ، لم يتخذه الشاعر بضاعة وصناعة ، ولم يتخذه للهو والمجون ، بل اتخذه ليكون وحى إحساسه ، وترجمان شعوره . وهو إحساس الحب ، وشعور الغرام .

***

على أن نوعاً آخر من الغزل جدّ فى هذا العصر ، وكانت له ثمار طيبة ـ هو الغزل المسرحى .

إذ قام جماعة من الشعراء بتأليف روايات مسرحية شعرية ونثرية ، وكان للغزل فيها الحظ الوافر .

ومن هذه الروايات الشعرية : مجنون ليلى ، وكليوبطرة ـ لأحمد شوقى ـ والعباسة ـ لعزيز أباظة ـ ، وعفراء ـ لفايد العمروسى ـ ، وولادة ـ لعلى أحمد عبد العظيم .

يقول أحمد شوقى : فى رواية مجنون ليلى

ابن عوف [1] :

لا تكتئبْ وتعال يا قيسُ استرح مما تكابد فى الهوى وتلاقى

قيس :

هل أنت آسٍ يا أمير جراحتى أم أنت من سحر الصبابة راق ؟

ابن عوف :

بل من رُواتك قيسُ من زمن مضى لم أخلُ قيسُ عليك من إشفاق

---

(١) مجنون ليلى ص ٤٦ .

قيس :

قل للخليفة يا بن عوف فى غدٍ منذا أباح له دم العشاق ؟
هدرت حكومته دمى فتحرشت بدم على سيف الجفون مراق

ابن عوف :

أرضيتنى عند الخليفة شافعاً ؟ يا قيس

قيس فى أنفة : لا والواحد الخلاق

بل عند ليلى فامض فاشفع لى لدى ليلى وناشد قلبها أشواقى
حبَّها فذكّرها العهود وحفظها واذكر لها عهدى وصف ميثاقى
ليلى إذا هى أقبلت حقنت دمى كرما وفكت يا أسير وَثاقى

ويقول على عبد العظيم : فى رواية ولاّدة ـ بين ولادة ووصيفتها ـ :

ولاّدة :

ما للسعادة فى الدنيا ومن صفرت من الأمانى والأحلام كفاه ؟
ما قيمة العمر أطويه مدلهة كأن آماله العظمى منایاه ؟

عتبة :

داويه بالحب وأستجلى مباهجه .

ولادة : وهل يحب جريح القلب مضناه ؟

عتبة :

لولا الهوى ما انطوت نفس على أمل ولا استساغت مذاق العيش لولاه

ولادة :

وهل عرفت الهوى يا عُتبَ

عتبة :

والهفا لقد أمات الهوى قلبى وأحياه
إنى عرفت الهوى مذ كنتُ يافعة ولست مهما تراخى العمر أنساه

ولادة :

من لى بكفء قوى أستعين به على الخطوب ، ويهوانى وأهواه ؟
تنضر العيشَ فى قلبى ابتسامته وتسكب الحب فى عينىّ عيناه
وإن ألمت خطوبٌ بات يكلؤنى وإن أناخت هموم بت أرعاه
وقد تهيىء عشا راقصا مرحا أفراخنا الزغب تحبو فى زواياه
هتافها فيه « ياأمى » « ويا أبتى » فما أرق أبى منها وأماه

* * *

ولعلك عرفت أيها القارىء الكريم صورة عن الغزل فى هذا العصر ، وصورة عن الغزل فى سائر العصور ، وعرفت أنه غزل كريم لاعبث فيه ولافساد ، بل فيه عاطفة، وفن وذوق ، وأدب . يؤذن بخير ونهضة ، وصل إليها العرب بعد جهاد طويل ، فى سبيل الحرية والاستقلال ، وأبلوا البلاء الحسن ، حتى كان لهم هذا النجح والتوفيق . ومن ثَمّ تفتحت الأزهار ، وتيقظت العقول ، إلى حياة جديدة ، فيها بعث ، وفيها نشاط ، وفيها ثروة . ولم يتخلف الأدب عن هذه الحياة ، بل كان مذكيها وموحيها ، ثم كان عنوانها وترجمانها .

وإنى على يقين أن سيكون للعرب أدب رفيع ، يمثل هذا النضج الذى وصلوا إليه ، وسيصلون إليه قويا ، رائعاً ، فى العلم ، والفن ، والسياسة .

وأرجو أن يكون هذا قريبا .

بفضل ما حبانا الله من دور العلم ، وفى مقدمتها الأزهر ، وجامعتا فاروق الأول ، وفؤاد الأول ، ومن بينها دار العلوم التى أسبغت على اللغة والأدب ثوب اليقظة ، وثوب القوة . ودور الثقافة ، وهى فى مصر ، وفى الأقطار العربية كثيرة العدد ، قوية البناء ، تقدم بين يدى القارئات والقارئين ألوانا جديدة من الكتب المؤلفة ، والمترجمة ، ومن بينها « لجنة البيان العربى » التى أنشئت منذ عام ، تحقيقاً لهذا الهدف النبيل ،

الذى نرجوه ، ونصبو إليه ، وعلى رأسها رجل العروبة والإسلام الأستاذ الجليل محمد على علوبة باشا . بفضل المجمع اللغوى الملكى ، وجامعة الدول العربية ، وسائر الجماعات والأندية العلمية والأدبية . و بفضل المذياع ، والصحافة والمجلات .

بل بفضل هــذا التراث الكريم الذى خلفه لنا العرب الأولون . وأرجو أن نستخرج منه ألواناً من الخير ، والفائدة ، فى جميع مظاهر الحياة . فالأمم الكريمة لاتحيا إلا إذا وصلت حاضرها بماضيها ، ووصلت مستقبلها بحاضرها . وبهذا يكون البناء سليماً ، متماسكاً ، مستمداً من وحى التاريخ ، فينمو ، ويقوى ، ويرتفع على قدر ما يبذل أبناؤه من جد ونشاط . فلم لانصل حاضرنا بماضينا ؟ وفى ماضينا مايسمو بنا ، وفى ماضينا مانعتز به ونفخر .

ورعى الله هذا الأدب الجميل الذى خلفه لنا هؤلاء الأدباء . ورعى الله هؤلاء الشعراء الأمجاد ،الذين نفحونا بهذا الجمال من الألفاظ ، والمعانى .

ورعى الله شعراءنا فى هذا العصر ، وقد كانوا صلة الأدب بين الحاضر والماضى ، وحملوا هذه الرسالة الكريمة فما ونوا ، ولا قصّروا . وأدباءنا ، وقد بسطوا بين أنظارنا هذا الشعر ، فنقدوه ، ونثروا درره ولآلئه .

ومن توفيق الله أن هيأ الله لبلاد العرب ملوكاً وحكاماً ، حملوا لواء النهضة ، وأذكوا فيها أسباب القوة . وفى مقدمة هؤلاء فاروق مصر ، ولنا بل وللعرب جميعاً من روحه السامى ، ومن رأيه السديد ، ومن شبابه الفتىّ ، ومن طموحه الوثاب — ما يبشر بالخير ، وتحقيق الآمال .

أطال الله عمر الفاروق . و بسط للعرب والمسلمين على يديه ، وعلى أيدى عاهلينا الكرام ، ورجال الرأى والفكر فينا — كل أسباب الرفعة والمجد .

إنه سميع مجيب ؟

مراجع الكتاب

١ — الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى : من الجزء الأول إلى العاشر — طبع دار الكتب . وما بعد ذلك طبعة قديمة .
٢ — الأمالى لأبى على القالى — طبعة دار الكتب .
٣ — نهاية الأرب للنويرى — طبعة دار الكتب .
٤ — العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه — طبع المكتبة التجارية .
٥ — عصر المأمون : للدكتور أحمد فريد رفاعى — مطبعة دار الكتب .
٦ — معجم الأدباء : لياقوت الرومى — عشرين جزءاً .
٧ — زهر الآداب : لأبى اسحق الحصرى — المطبعة الرحمانية . شرح وتعليق الدكتور زكى مبارك .
٨ — البيان والتبيين : للجاحظ .
٩ — ديوان الحماسة لأبى تمام الطائى — مطبعة السعادة .
١٠ — المفضليات : للضبى — الطبعة الأولى سنة ١٩٢٦ م .
١١ — الشعر والشعراء : لابن قتيبة :
١٢ — عيون الأخبار : لابن قتيبة .
١٣ — المزهر : للسيوطى — الطبعة الأولى سنة ١٩٢٥ ه .
١٤ — المخصص : لابن سيده — طبعة بُلاق سنة ١٣١٦ه .
١٥ — مقدمة ابن خلدون .
١٦ — المستطرف فى كل فن مستظرف : للأبشيهى .
١٧ — تزيين الأسواق : المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠٨ ه .
١٨ — تاريخ آداب اللغة العربية : لجورجى زيدان .
١٩ — الوسيط : لأحمد الاسكندرى .
٢٠ — حديث الأربعاء : للدكتور طه حسين بك .
٢١ — ضحى الإسلام : للأستاذ أحمد أمين بك .
٢٢ — بلاغة العرب فى الأندلس للدكتور أحمد ضيف .
٢٣ — شاعر الغزل : للأستاذ عباس محمود العقاد .

الدواوين الشعرية :

٢٤ — ديوان المتنبى : شرح وتعليق البرقوقى .
٢٥ « البحترى : طبعة هندية سنة ١٩١١ م .
٢٦ « ابن الرومى : اختيار الأستاذ كامل كيلانى .
٢٧ « عمر بن أبى ربيعة : طبعة بيروت .
٢٨ « اسماعيل صبرى .
٢٩ « محمد عبد المطلب .
٣٠ « أحمد شوقى .
٣١ « حافظ ابراهيم .
٣٢ « خليل مطران .
٣٣ « عبد المحسن الكاظمى .
٣٤ « المواكب — جبران خليل جبران .
٣٥ « محمد رضا الشبيبى .
٣٦ « على الجارم بك .
٣٧ « معروف الرصافى .
٣٨ — دراسة أدبية لشاعر العراق ـ معروف الرصافى ـ للأستاذ بدوى طبانة .
٣٩ — ديوان هدية الكروان للأستاذ عباس محمود العقاد.
٤٠ « وحى الأربعين « «
٤١ « أعاصير مغرب « «
٤٢ « الملاط : طبعة بيروت .
٤٣ « هكذا أغنى : للأستاذ محمود حسن اسماعيل.
٤٤ « أحلام النخيل : للأستاذ عبد العزيز عتيق .
٤٥ « الهوى والشباب للأستاذ احمد عبدالغفور عطار.
٤٦ « أشواق : للأستاذ محمود أبو الوفا.
٤٧ — مسرحية : مجنون ليلى : أحمد شوقى .
٤٨ « ولادة : للأستاذ على عبد العظيم .

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام

تصويب

مهما جهد المؤلف فى أن يكون التأليف خالياً من الأخطاء المطبعية ، فإنه لابد من وقوع بعضها ، وهى لاتخفى على القارئ اللبيب . ولكن يحسن الإشارة إلى الأخطاء الآتية :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤	٥	بن	ابن
١٨	٧	البُهم	البَهم
»	١١	أوْقِدت	أوقِدت
١٩	١٤	يقلن	هكذا فى الرواية والفصيح يقول
٣١	١٧	إنا	أنا
٣٤	٢١	كلُّ	كلٌّ
٣٦	١٦	السماء	السماء
٤٠	١١	المتقدمة	المتقدة
٤١	٢١	الحيلة	الحياة
٤٩	١٠	الماضية	الماضين
»	١٤	بن	بين
٥١	٢٠	أن	إن
٥٣	٢١	الرشيدى	الرشيد
٥٣	٤	فأعطاها	فأعطاها
٥٧	١٥	تحب	تحت
٨١	٤	فى عصر	فى كل عصر
٩٨	٣	يعيشون	يعبسون
٩٩	١٧	فرفع	فدفع

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٣	١٢	ملاتُ	ملاتِ
١١٨	١٢	ولا	وقد
١٣٤	٤	حزّبهم	حز -بهم
١٧٤	١٧	ولسطو	وليسطروا
١٩٧	٩	عنهما ما	عنهما
٢٠٣	١	أجلها	أُجلها
٢٠٤	١٨	عسا	محا
٢٠٦	٨	انقاليدهم	نقاليدهم
٢١٠	٢	تلعٌ	تلعْ
»	»	ظِبية	ظبية
»	٤	حاسدْنا	حاسدُنا
»	١١	نعمة	نقمة
٢١٤	١٢	مطيعا	مطيع
٢١٥	١٨	والله	الله
»	١٩	أرسلن	أسلن
٢١٦	١٣	له	لى
» هامش	٢ هامش	ج ٧	ج ١
٢١٧	٣	أُغلقت	أَغلقت
٢٣٨	٣	اشعال	انشغال
٢٤٩	١٢	تعشوا	تعشو
٢٥٢	١٣	أيها	أيتها

كتب اللجنة

[illegible] اللجنة [illegible] العربية المقررة [illegible] الباب العالي [illegible] :

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	محتويات الكتاب
١	[illegible]	[illegible]	[illegible] الخواص [illegible] ٢٢٢ [illegible] ٢٥ [illegible]
٢	[illegible]	[illegible]	[illegible] ١٢٨ [illegible] ١٥ [illegible]
٣	[illegible]	[illegible]	[illegible] والعلماء [illegible] ٢٥٦ [illegible] ٢٥ [illegible]
٤	[illegible]	[illegible]	[illegible] ١٦٦ [illegible] ٢٠ [illegible]
٥	[illegible]	[illegible]	[illegible] ١٦ [illegible] ٢٠ [illegible]


